

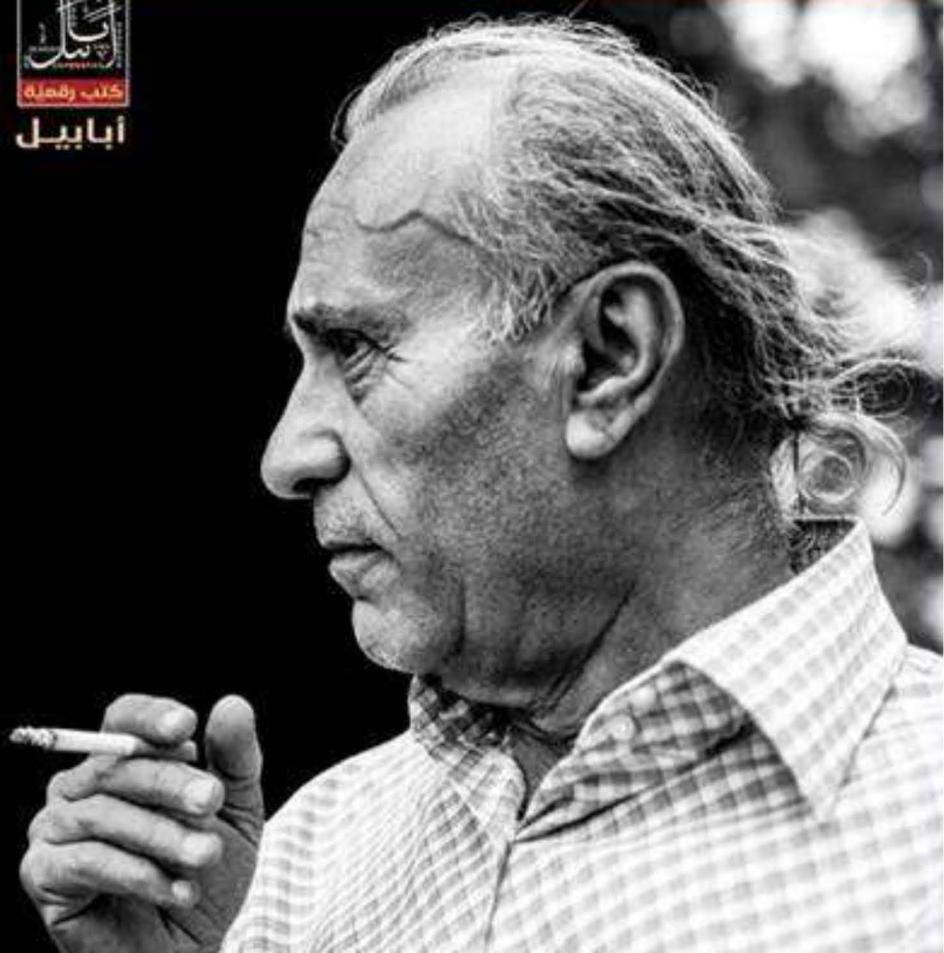
WADIH SAADAH

# واديح سعادة

الأعمال الشعرية



أبائيل



---

# وديع سعادة الأعمال الشعرية

الكتاب: الأعمال الشعرية  
المؤلف: وديع سعادة  
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف  
2016



دار أبابيل / كتب رقمية  
00905389886909  
00963959327435  
E-mail: imadmusa1@gmail.com  
www.ebabil.net  
www.facebook.com/AbabeelBook

تصميم الغلاف: م. جمال الأبطح  
البيورترية: ستار نعمة  
تنضيد: حسن إبراهيم الحسن

وديع سعادة  
الأعمال الشعرية



## وديع سعادة:

ولد العام ١٩٤٨ في قرية شبطين شمال لبنان، عمل في الصحافة العربية في بيروت ولندن وباريس قبل هجرته الى استراليا في أواخر عام ١٩٨٨، حيثُ يقيم حتى الآن.

موقع الشاعر في النت:

[www.wadihsaadeh.awardspace.co.uk](http://www.wadihsaadeh.awardspace.co.uk)



## الفهرس

٧	كلمات و حروف في نحر الحياة	١
١١	لس للمساء أخوة	٢
٦٣	المياه المياه	٣
٧٥	رجل في هواء مستعمل يقعد و يفكر في الحيوانات	٤
١٣٥	مقعد راكب غادر الباص	٥
١٨١	بسبب غيمة على الأرجح	٦
٢٤٣	محاولة وصل ضفتين بصوت	٧
٢٩١	نص الغياب	٨
٣٣١	غبار	٩
٣٧١	رتق الغبار	١٠
٤٢٣	تركيب آخر لحياة وديع سعادة	١١
٤٨٥	من أخذ النظرة التي تركتها أمام الباب ؟	١٢
٥٤٥	قل للعابر أن يعود نسي هنا ظله	١٣
٥٨٩	ريش في الريح	١٤



## كلمات وحروف في نهر الحياة

### د. علياء الداية

كلمات وديع سعادة ونصوصه تنساب كنهر يمتلك ألوان الحياة، ويمضي بين متغيرات تتحول بين يدي الشاعر إلى كائنات متحركة، تتبادل الحوار مع مكونات القصيدة، كالليل والنهار، والفصول الأربعة.

يقف الإنسان ليكون محوراً تدور من حوله الأحداث والأماكن والأزمان، فهل تُكتب له الحياة حين يرتحل من الحاضر إلى الماضي، أم يحمل له المستقبل المجهول حقيقةً أو كينونةً بديلةً عن حاضر غريب؟

إن أبرز ما في الإنسان لدى وديع سعادة هو العيون، فهل هي عين، عيان، أو عيون تتماهى مع المحيط المجاور لها، حياً أم جامداً؟ قد تحاكي العيون الأحجار والصخور، أو تتبادل معها الأماكن، وتوحي لها بوداعٍ ما، وقد تغدو العين والدموع عالماً كاملاً، من أشجار وأوراق وعشب وسماء.

حين تتجاوز الكلمات في العناوين أو داخل النصوص يصبح التناقض أو البُعد فيما بينها أليفاً ينتظم مع إيقاع المعنى، "التحدث إلى الخيول، زارع اليأس، قليل من الأرواح، أشباح اللغة، إبادة النهار"، والمحاولات المتعددة: "محاولة وصل صفتين بصوت، محاولة لحم أحرف، محاولة إكمال كلمة".

أما الجمال والقبح، فهما يتجولان بين سطور النصوص، تارةً يكون الجمال كما يتصوره الشاعر، على هيئة لون أبيض أو دخان، وتارةً يكون القبح مبطناً بروى وخيالات وذكريات.

الطبيعة والحيوانات والنماذج البشرية هي التي تتبادل أدوار البطولة، فالفطر عاشق، والصمت شبيه بالعشب، والدماغ سلحفاة عنيدة. وتتنوع الحيوانات وفق ما يختاره لها الشاعر من أدوار مشكّلة ظاهرة فريدة، بعضها مألوف كالقطط واليمامة والفراشة والكلب والثعبان، وبعضها أكثر ندرة وغرابة في الأجواء الشعرية، كالطواط والطاووس والحلازين والدلافين والسلطعون.

إنها جميعها تتخذ مكانها إلى جانب نماذج بشرية تحفل بها القصائد، كالصديق والشاعر والقبطان والبواب والبصارة والبستاني واللصوص والمهريين.

فكل ما نراه لدى وديع سعادة يقدم نوعاً من الحوار المضمر، وراء كل نص يوجد قصداً ما، طريقاً أو ممراً آخر

تستكين إليه الشخوص. وعلى الرغم من تنوع الأسلوب من ضمير المتكلم، إلى ضمير المخاطب، أو ضمير الغائب، فإن هنالك وحدة تساؤل الإنسان عن مصيره، وعن الهيئة التي يتبدى الكون فيها.

إنّ الحرب تظهر بكابوسيتها، ومستقرّها العميق البعيد، ولا نهائية الموت الناجم عنها، والألم الذي لا يستحيل كلماتٍ فقط، بل تتجذّر معانيه رحيلاً وفقداً. فالدمار يجعل العين تقف عند الأبواب، والأحجار، والسقوف، والخطوات الضائعة المترددة. وتظهر الفرصة ماثلة أمام جدلية المكان والزمان، داخل الحرب أو خارجها، فالمصحّ والزنازة والميناء والبحر والحانة تتجاذب الذات الشاعرة، بين الإقبال على الحياة، والحدز منها.

الإنسان في بطولة القصيدة، يسلم بمجرى الحياة الهادئ، ولكنه يبتعد عن اليقينيّات، إنه ليس إنساناً وحيداً، بل كائنٌ متحرك في محيطٍ ساكن، إنسانٍ ساخرٌ، مسافر، سابح. كثيراً ما يكتنفه خيار الغرق في البحر، أو في الماء، أو في دمعة. الغرق هو وسيلة للخلاص من الحياة، أو من الأسئلة، أو هو الحياة في شكل آخر.



# 1

ليس للمساء إخوة



## ليس للمساء إخوة - ١

(١٩٦٨)

خُطَّ باليد وُزِعَ باليد أوائل ١٩٧٣

|

في هذه القرية  
تُنسى أحيواناتُ المساء  
مرتجفةً وراء الأبواب.  
في هذه القرية التي تستيقظ  
لتشرب المطر  
انكسرتُ في يدي زجاجةُ العالم.

||

هذه المياه  
تَفْتَحُ أَقْنِيَةَ اللَّيْلِ فِي الْجَسَدِ.  
هذه المياه وهذه المراكب  
نقودُ عميانٍ  
نسوا أنفُسَهُمْ عَلَى أَرْصَفَةِ الضَّوِّءِ  
ونسوا  
أن يرفعوا شبكة العمر.

### III

ستخرجون بقميصٍ صارخٍ لتقابلوا اعتزلاتكم.

في الليل أو في النهار

ستخرجون

وعلى حدةٍ يقابل كلُّ واحد اعتزلاته

ينقبّ طويلاً في الحقول

ولا يجد كنز حياته

في الليل أو في النهار

ستمزق المحيطاتُ ثيابكم

وتبحثون عبثاً عن إبرة الشمس.

إِعرفُ أَنكُ لن تجعل من الشمس حبيبةً  
 وإن كنتَ في رداءِ كثيرِ الثقوبِ  
 وَأنتكُ

حين تَدلفُ فوق ساقية الروح ببطء  
 ستكون الماءَ الضائعَ

وحين ترصفُ أنفاسك في الفضاء قضباناً كثيرة الذكريات.  
 أنت

ولو كانت لك نجمةٌ صغيرة

ولو فتحَ الليلُ أحياناً حياتهُ

لأعواد ثقابك

ستأخذ غيرَ الضوء طريقاً

وتطلُّ في وقت غير مناسب على نافذة العالم.

٧

فراشةُ الحُبِّ تطيرُ بعيداً  
وعطلةٌ قصيرةٌ على كَفِّها  
لكنَّ يدي أضاعت مفاتيحَها.  
أُتدلى

فوق سور الأسماء  
وغيمةٌ تشبه اليد  
ترفع لي قميصَ الشتاء.

## VI

بعيدًا عن السقوف الحميمة  
جميعُ الأمطار لا تغسل مظلاتنا  
والنهاراتُ الناسية مظلتها في يد الليل  
تقذف بنفسها من مطلق نافذة  
لتستخرج خاتمَ نومها.

## VII

من كلِّ محطةٍ في الأرض  
العرباتُ مقبلة  
كأسماء واضحة في ملقّات التعاسة،  
والنهار  
سوق المرايا  
جدرانٌ مزهرة أكثر ممّا ينبغي  
والعيونُ غيوم  
سقطتْ.

## VIII

في يدك تنمو شرايينُ الذهول  
وتغترب  
يدك التي تلوح للمارة  
كالرسائل.

مع أنّ وعاء الصمتِ هو الوحيدُ يلمعُ بيننا  
 أعرفكَ أيّها العالم  
 أيّها العجوزِ القميءِ في صحنِ ذاكرتي.  
 وائتي، إذ أتقدّم بخطى مبعثرة  
 إلى أبوابِ مودّتكِ المقفلة،  
 لا أكون ناسياً أنّ المفاتيحِ  
 التي نعثرُ عليها في أشواقنا  
 هي المفاتيحِ الخطأ.  
 أعرفُ أيةَ مجارٍ من التأسفِ  
 أيامكَ  
 مع أنّ كلّ شيءٍ مضى الآن  
 ولم يعد يتدلّى بيننا  
 غيرُ عشبةِ الماضيِ الجافة.

X

إنَّها محاولةُ الدخولِ في عنقِ الحُبِّ  
الذي يندلقُ خارجَ فمي  
أو التقاطُ نجمةٍ  
كساعةٍ مخربَّةٍ في صندوقِ الأملِ  
ثم الوقوفُ  
والالتفاتُ نحو  
مزرعةٍ شحيحةٍ البصرِ  
تعبّرُ فيها الفصولُ  
بقليلٍ من التعاسة.

بينما كنتَ تعبرُ أمكنةً واسعة

كان ثَمَّةَ شيءٍ يشبه الحُبَّ

يتذكركَ

أما الآن

وقد قطعتَ شوارعَ غيرِ مدترةٍ

وودعتَ أرصفةً كثيرة

فالأمل

الذي أرادَ التحدّثَ إليكَ عندَ كلِّ خطوة

يكفّ عن النداء.

أنتَ

يا من حسبَ أنّه عبرَ كلَّ الاشياء

جلستَ وقتاً أطول

في مقهى الماضي.

## XII

ينبغي الإعرافُ بأنَّ الأيام  
ترسو كضفادعٍ ميّتةٍ  
وتجعلُ الابتساماتِ موجعةً  
أمام البحيرات،  
وأنَّ المحبّة  
ملحٌ أزرق  
ملحٌ يسقطُ الآن وحيدًا  
وأزرق.

## XIII

إِذْ  
رَأَيْتُ نَفْسِي  
كَمَعْطَفٍ مَثْقَلٍ بِأَوْحَالِ النَّهَارِ  
أَقْفُ أَمَامِ صَبَاغِ الْمَسَاءِ  
الْمَقْفَلِ.

## ليس للمساء إخوة - ٢

(١٩٧٣ - ١٩٨٠)

## مرحلة أولى

كيف يكون هذا الشوق  
كضفدعٍ خارجٍ بحيرته؟  
كيف هذا النهارُ رماداً في السماء؟  
وهذه العاصفة في الرأس كيف لا تحرك غصناً؟

ما فائدةُ الوثوبِ إلى الغابات  
 وإطعام الغزالة النحيلة  
 حين تسقط عصافيرُ الدهشة  
 كخشبةٍ من بناية قديمة؟  
 أنا النموُّ الاسودُّ تحت الأبراج  
 والحيواناتُ الكونيةُ ترعاني  
 لستُ الصبيُّ الذي يدخل  
 برجَ العائلةِ في المساء  
 أبحثُ عن نجمةٍ أقرأ تحتها حياتي  
 أرتقي سلّمَ الضوء  
 أهدبُ ورقةً نقدي الأخيرة  
 لليد المعروقة  
 فوق جسر القلب.

||

هؤلاء الذين يتوقون العودة  
وليس لهم قطار  
ولا نجمة  
ولا حتى صرصار في طريقهم يغني،  
الذين كرتُ كنزُهُ أحلامهم  
ولحياتهم صوتُ ارتطامِ المرأة على الحجر،  
مراتٍ كثيرة سيعرفون موتَ المسافات  
ويكتشفون أن العالم  
بلا طريق.

تغرقُ في بئرِ المحبّةِ اليابسةِ

سكران

ماذا تقول للمارة كي تخطفَ مرفأ؟

شربتَ نهاركَ دفعةً واحدة

رقصنا في الساحة ولم تقدّمِ نشوتك

رفعنا مياهنا إلى حدودها

وأنتَ تفكّر في صحراء يدك

بعها

قلنا لك بعها وارفع وجهك لا رايةَ الحرّيةِ

قل هذه شجرتي

وأنا أرغب في عريها

لكتّك حرّكتَ إبرةَ الألم

وأعدتَ حياكةَ بأسنا جميعًا.

## IV

الرغبة نقاءً مالح  
مرايا عاريةً الظهر  
عشبةً التجاويرف  
قريةً مَيِّتةً في فمي.

تقول القابلة القروية:  
 وُلدتَ في زاوية البيت  
 بين قمر النعاس والعيون المطفأة  
 كانت الأزهار صغيرة  
 الطريقُ عجوزاً  
 وشجرةُ الرحمة تهتزُّ في النهر  
 حيثُ الغصون والعصافير  
 ترى نفسها مكسورة.

## VI

العشقُ مرّةً أسقط الملاك

في وجهي

حمل أصابعه وخرج

إلى الموت

يربط عنقه بوردة

وخرج من العمر حصان

أنهى سباق الرغبة.

## VII

جلس المنظرّون والعشّاق والسكرارى والأموات  
يحيون ذكرى الأرض القديمة  
هيكُلهم على كلس الجدار  
حطامهم على المفارق  
ينتظرون زهرة الخدر  
من حجارة العيون.

## VIII

نَقَّبُوا عَنْ ظِلَالِ رُؤُوسِكُمْ  
وَتَقَيَّأُوا  
الزَّمَنَ جَفَّ الْقُلُوبَ  
وَلَا بئْرَ غَيْرَ عَيُونِنَا  
نَدْفِنُ فِيهَا وَجْهَ مَنْ نُحِبُّ.

## IX

أيُّ زمن سيأتي  
بقميص أبيض؟  
أيّ درب ستأتي  
ونلعب مع الأطفال؟  
أيّ خروف  
نطعمه أيدينا؟  
أيّ لحم  
وكلنا على قارعة الطريق  
نللم انهيّار الوجوه.

X

يُصعدُ الليلُ إلى الحلم  
ونحن نرسم غصنَ الشوق  
يُصعد النوم إلى الثمر  
ونحن نوقظ زهر النشوة.  
هكذا بخطوةٍ أولى  
يُستنزف الحُبَّ  
وأصابعه الحمراء تُلَوِّح  
ولا ترى القتلى.

## XI

ماذا على الذين مثلي أن يفعلوا  
وأصغرُ فراشة  
هي أكثرُ دهشة؟  
الدائرةُ نفسها  
المشهد، النافذة، الوجه.  
سأخرج فارغًا  
حتى من قميص قلبي  
وبرصاصةٍ وحيدة أطلُّ على الصمت  
هذا الهدف المتراقص أبدًا.

## XII

هناك مشروعُ قصيدة

ضفّة

أفرشُ عليها السمكَ الواجف في رأسي.

أذهبي

يا امرأةً سوداء على بابي يا مراكب

أذهبي

أحلامي كافية لأغلق هذا الباب

وأنام

مياهي كافية

لأغرق.

### XIII

يجب أن يكون هناك طريقٌ آخر  
إلى الغابة  
الوترُ المشدود بين عينيَّ و الأشجار  
على وشك الانقصاص.  
أيتها الكلمات يا غابتي  
يا شجرتي اليابسة في فمي  
على طول الطريق سواقٍ و أزهار  
حجارةً لمن تعبوا  
شمسٌ للنهار قمرٌ لليل  
وليس على حروفك عصفورٌ يسلي.  
يجب أن يكون هناك طريقٌ آخر  
الأصواتُ أقفاص.

## IVX

أودُّ أن أعلّق قلبي على جبيني  
كما تعلّق الأمُّ اسمَ طفلها على مريولها  
أودُّ أن أكتب رغبتني على الثلج  
وعلى رمل البحر محبّتي.  
في العيون في العيون  
الشمسُ تتلجج.

## مرحلة ثانية

ها هي الطريقُ تتكسر كعودٍ يابس  
وعلى أعلى جبال القلب  
تجمع الخرافُ البيضاءً نفسها  
وتعود إلى الحظيرة.

|

قبالة البحر أو الجدار  
أريدُ الدفاعَ عن نفسي  
بكلِّ الرعب  
لا بالصراخ  
لأنَّ الوقتَ مرَّ طويلاً  
ولا أعرف  
إذا الصراخُ لا يزال.

||

مهما بدا طاهرًا هذا الوجه

إنّه ملعب العائلة.

الذكرى تلج

لا يُضمن الوقوفُ فوقه طويلاً

إرحل.

III

سأذهبُ إلى الغابة أَعِدُّ مع الحطَّابِين

وبفأس دهشتهم

أَقْطَعُ أحلامي وأَلْقِيها في النار.

يقول الحطَّابون:

اليابسُ يُقْطَع.

## IV

إذا سقط نجم

علامةُ شؤم

إذا سقطتُ شجرة

موت

إذا سقطتَ في وجهي أيها النورس

فلأنتي

أدرتُ غروبي صوب الشرق

ومضيتُ في مياهي.

V

أزفة أيامي مليئةً بالزجاج  
ومثل صبيّ يركضُ عمري حافياً في عمري.

## VI

أحملُ ذهولي  
مخترقاً جنونَ الحلقات  
في وجهي تنزفُ حربةُ الأبدية.  
أنا نظيف  
البياضُ يكسوني  
أمشي على طريق أبيض  
أقعد على كرسي أبيض  
أحلامٌ ناصعة  
نسيانٌ ناصع.

## مرحلة ثالثة

نتسلق ضحكاتنا  
لأنّ صراخنا شاهقٌ جدًّا.

لم يَعُدْ في دمي غيرُ الكلمات واللون الأحمر  
 البسُ قناعَ الرحمة واطردني  
 يشتاقي صمتي غيرَ لهاتك.  
 ماذا جنّت تفعل ماذا جنّت تقول ماذا جنّت تقطف  
 يا زارع اليباس كي يكلم الفراغَ كالأبله؟  
 حديقتي أصغرُ من جنين  
 ليس فيها غيرُ ورقةٍ السهو  
 نبتتُ في غيابك.

أنتم قميص المجاعة.  
 دلقتم محابر وجوهكم على أول النهار فاسودَّ عمرنا القصير.  
 غرقت أقدامنا في الأسودِ وصارت سالحةً للكتابة. بها وقَّعنا  
 على الطرقات أحصنة جديدة.  
 أوقفوا نسلَ الأحلام. ما عاد العالم يسع.  
 أسمعُ ضجيجًا هائلًا، قرقعةَ عظام، الأحلام ترفس نفسها، تنهق،  
 تقترس، تروث.  
 أوقفوا نسلَ الأحلام. كثرَ الروث وانبرتْ زهرةُ الأزمنة.  
 على صدرِ كلِّ منكم زهرةُ الزمان. أحرار كيف أسميكم.

III

سَيِّدَتِي فِي الْفِضَاءِ الْكئِيبِ  
لَا تُرْجِعِي وَجْهِي إِلَيَّ  
لَا تَتَدَقَّقِي نَحْوِي كَالْأَنْهَارِ  
لَا تَتَدَلَّقِي كَالْبِرَامِيلِ  
الْحَرِيَّةُ نِصْفُ أَشْمُنْزَارِي  
وَالرَّهْبِينَةُ نِصْفِي الْآخِرِ  
وَكُلُّ أَوْلَادِي الْمَوْتِ.

يا قاطع الطرق يا شرسًا يا مجنونًا يا حُبِّي  
دعْ ممرًا لرحيلي  
دعني بعيدًا مع ورق الشجر أستلقي  
على حجر يمكنني أن أقعد  
مع صرصار أستطيع أن أغني  
لنملة أقرأ قصائدي  
في مِرْق ثوبي ابتسامة من الفجر وثغرٌ كاملٌ للغروب  
على رؤوس أصابعي قطعٌ غريب  
لا يعود من البراري.

V

أخرجُ إلى تسكّعي قاطعًا حدائق الوجوه  
رائحةُ الصمتِ برتقالة  
وشيخوخة الوعي قطارٌ سريع.

أيُّه لقاءُ الحزنِ أيُّه لقاءُ الحلمِ يا قطراتِ الطريقِ؟

## VI

مرَّ الوردُ ابني الحبيب ورجع و قال:  
خَلَّصْنِي يَا أَرْزَقَ الْأَرْضِ  
يَا أْبِيضَ الْفَرَّاشَةِ  
الْمَكَانِ يُوْنِثُ نَفْسَهُ.

## VII

اشتبكي معي يا حشائش الأيام الأولى في رقصة الأيام الأخيرة  
في كلا عنقينا أشعةً مترمّدة.

## VIII

تقفُ في آخر صفّ المسافرين إلى النهار  
وتُريدُ أن ترى نفسك العاشقَ الوحيد  
اعترفْ أنّ القطار انكسر  
وأنتك وحيدٌ على الرصيف  
شوقك الحمّى برودةً كئيبة  
وأسنائك حين تبتسم لا تضيء  
حتى فمك.

الأبراج المبلّلة بالضوء تطفو على كتفي  
إنّه شروق سخيف  
بدايةُ أوّل يوم في مصنع العالم  
وجهي يقتله ظلّه  
على الشرفة.

X

قولوا أيّ شيء للعصافير في شجرة التفاح كي ترحل  
خبزاً في أسواقها  
يأسر خطواتي.

إلى جاد وسيمون وغادة، وأنت  
 ما اسمك؟ لا أعرف  
 لكن ألم أر وجهك تحت شتاء آذار يذوب كحبة سكر وأنت  
 تسرع؟

ومرّة قعدنا؟

كان الزغبُ ينبت في وجوهنا  
 قالت أمنا تطيرون غداً. زقزقنا.  
 وها على الثلج نقعد نتأمل أقدامنا الصغيرة.

ما هذا الواقع من فم السماء كأنه لنا؟

قالوا جاء يزيحُ الصخرَ يفتحُ الباب. انخفضوا انخفضنا.  
 سمعنا ارتطامَ جسده. رأينا تفتّحَ جراحه.

وقلتُ: لن أمسّ جرحك أبداً لئلا يُقفل نبعُ الرغبة.

وضع جاد عينه في الماء صارت سمكة. سيمون عينه في  
 الفضاء غيمة. وعينُ غادة قطنٌ ينفشه الحزن.

كنا التقينا. دخل البوّابُ أعلن انتهاءَ الزيارة.

كيف تصيرين هكذا مطراً أحمر ينزل عليّ في الشوارع؟

أمي غزلت لي كنزةً بيضاء عملت لها جيوباً للزبيب وعبأتها

لبسثها وخطرُ أمامك.  
أبي مرّة زار المدينة. ضيقوه برتقالةً حملها إليّ من بيروت في  
جيبه. اقتسمنهاها وركضنا في البساتين.  
أبحثُ عن زبيبةٍ، حبةٍ قمحٍ، بذرةٍ برتقالٍ أضعُها في منقاركِ وأنت  
في العش لا أجد.  
كيف يصير أهل القرى من دون قمح هكذا؟  
جاء الشتاء يمزج البرد بالذكرى  
وها نحن لا نريد غيرَ غطاء.

# 2

المياه المياه

( 1983 )



أُرفِفُ  
لا لأنَّ هذا قفصٌ أو غابة  
بل لأنَّ الريحَ تضربني  
الهواءُ كثيرٌ والأجنحةُ مستجيبة  
ولكنَّ  
بقاعٌ كلُّها هذه البقاع.

منحنٍ على النهر  
لا أريد الجلوس  
منحنٍ  
لا أريد الوقوف  
ماءٌ وسقسقةٌ  
وماء  
للجدوع الهرمة  
جمعٌ سائر في الظلام  
وصمت.

في البدء كنتُ صيفاً ممدداً  
ورأسُ خَصْمي معلقٌ على الغصون  
كنتُ مائتاً جميلاً في سفينة  
ثلج نسيانٍ غريبٍ على أرخبيل  
وأرْمِي  
خواتمَ الوعود الآن  
أنتاعبُ من الزهر إلى الزهر  
أرْمِي الخواتم  
وأنام.

عندي فرسٌ لا اعرفُ ماذا أفعلُ بها  
أمتطبها  
لأتسلى.  
لا ماء هنا  
لا جذوع  
لا جمع  
بل مجرد وهم  
ولا وقت لتقول الوداع.

كلُّ الذينَ عرفُهمُ  
ماتوا  
وكلُّ منَ أعرُفهُ يموتُ  
هنا في جزيرةِ الفجرِ كنتُ سماءًا  
يرثُ القصبُ  
في الصباحِ سائسُ  
وفي المساءِ أقعدُ  
أراقبُ الغروبَ  
طيورٌ سودٌ تنقرُ الخبزَ عن رأسي  
محكومٌ بالإعدامِ  
وبذكرىِ يمامةٍ تُلجِيةٍ  
رَشَّشْتُ لها الحبَّ طيلةَ الشتاءِ.

كنا وحيدين في الغابة  
لم يكن هناك ما نقوله  
صممتنا ونظرنا في السماء  
هذه مدينة الموتى  
أنا بعيني المظلمتين أراهم  
يملاؤون الممرَّ

متهدّلاً  
عيناى مفقوءتان  
وأرى  
وأنتظرُ العالمَ السفليّ  
فى ظلِّ الجدار  
هذه عصاي  
حيّةٌ مستقيمة  
فتحت لي طريقاً  
وفى رحلتي الطويلة والرمحُ فى يدي  
سمعتُ الصوتَ  
(كمياهٍ كثيرةٍ ونحاسٍ نقيّ)  
وميتت...

كنتُ بيلساناً عاشقاً فى حقل أبي  
كنتُ قريةً فى وسط الرذاذ  
أطُلُّ عليها من مفرقٍ قديم  
السواقي اجتمعت الآن فى وجهي  
والأطفال عادوا إلى البيوت.  
ماذا فى هذه الجبال إذاً

غير أن يجري النهر  
أن أفسح الطريق للعابر الغريب  
أغسل الحصى  
أترك على الحفافي قصبًا  
وأمضي.

المياه المياه  
الجهات موحشة  
وكثيرة.

كيف أعودُ إلى أهلي مليئًا هكذا  
بالهبوب  
أنتظرُ الطيورَ المهاجرةَ  
لأعيدَ محبَّتي إلى الجبال  
سأغادر  
لكني أعود  
لألقي حطبي  
الغابة وهبنتي نهارًا آخر  
استضافني البطيء الزاحف على الأوراق

ومرَّ السَّمَنُ السَّرِي  
فوق رأسي  
كنتُ رِيَانًا مَلِيئًا بِالغِيومِ  
فانحنيتُ على نبعي  
ودلقتُ الدموع.

نامتُ أوروْرَ على حقلِ يباس  
ولم ترَ جسداً يصعدُ إلى السماء  
ولا ملحاً يمشي  
ما رأْتُ أوروْرَ غيرَ أقدامِ  
وملحٍ في البحرِ.

لو أنّ هذا البحرَ  
مبَلَّلٌ  
لو أنّ هذا الخشبَ اليابسَ يابسٌ حقاً  
بماذا  
يمسحُ الإنسانُ نفسه لينام؟

طوى النسرُ جناحيه على النبعِ القديمِ

عائداً إلى النعاس  
عصفورة حكيمة  
تعرفُ أنّ ما رآه  
كان حزنًا غابراً.

في الجبال  
عشبٌ كاسد.

ها أنا أمشي وحيداً تحت المطر  
أمشي وحيداً وأهتف:  
هذي هي الأرض، هذي هي الأرض  
مولود جديد  
يتعرّض الآن للهواء.

(يا حارسة البوّابة يا امرأة المزلاج يا صاحبة القفل المقدّس  
ماء سيّدك في داخلي إنّه في داخلي  
فليمنّص إلى الأرض  
وطأتُ المدينة الموفّورة  
غابة الظلّ الوارف

والمياه الأولى  
الخضراء المتباعدة الركبتين  
وعندما ارتفعتُ ارتفعتُ معي كلُّ الأسماك  
اضطربَ الغمرُ زال عن البحر وجهُ المرح  
واستبدَّ الهلع  
بالأنهار العالية).

قطرةً قطرة  
ينزل الموتى على بابي  
ومركبٌ يتوقَّف من أجلي تحت الشمس  
وجالية فقيرة من الرعشات  
تعودُ إلى الرمل.

أيها الماء الأبدِي  
أنا المغسُول في نهر الخلود  
(كنت جميلاً كغابة  
أبيض كالشمس في الماء  
أرعى غنمي على رأس الجبل  
وأمامَ الجميلة

كنهرٍ يبتعدُ عن النبع  
فارقتُ الحياة).

(أنا الآن الريشةُ الزرقاء  
يتركها العصفور للشوك).

رمىْتُ إبرةَ الرعبِ كطاووسٍ صغيرٍ  
أنا فطرٌ عاشقٌ  
تحتَ السَّهمِ.

لا شيءَ هنا  
لا شيءَ غيرُ عشبِ الصمتِ  
لماذا أنهرُ غزلانَ غفلتي  
على مهلٍ فلترعَ هذه الخرافُ  
على مهلٍ فلترعَ  
وتسئَلُ  
لستُ الراعي و لستُ الغنمُ لكني  
أحنو على المياهِ  
تركتُ جرّتي في العينِ

ورجعتُ  
الشمسُ أشرقت عليّ طويلاً  
وأرسلتُ ثغائي كلَّهُ  
خزفاً إلى الجبال.

الشبكة  
تصقيّ نفسها من الملح  
ماذا ينفعُ أن أرمي محبّتي على الماء  
أن أعرضَ ملائكتي للأحلام  
ليلي للملائكة  
أن أفتحَ إناءَ عشقي  
وأفسد سهوي؟

الزمنُ يشفي وجههُ  
ببطء  
ويمسحُ الشوقَ عن شواطئِي.

- 
- الجُمْل ما بين هلالين مستنقاة من: إليوت، رؤيا يوحنا، شكسبير، نصوص سومرية وفرنسية، وأوكتافيو باز.

# 3

**رجل في هواءٍ مستعملٍ  
يقعد ويفكر في الحيوانات  
( 1985 )**



إنَّهُ رملٌ مشبوه  
تحت سماءٍ حقيقية  
وشاعرٌ يقدّم برتقالةً رأسه  
بقليلٍ من الكلمات لأوّل بوهميِّ.

رجُلٌ آخر  
يحاول كتابةً القصائد  
وأمطارٌ غزيرةً.

## شيء من هذا القبيل

لم أحلم مطلقاً بأنّ ذلك قد يحدث:

مجموعة هائلة من السنوات

وعليّ أن أبيدها

بمطرقة!

كلُّ هذا وَصَلَ فجأة

كبركان يجب أن أعزل بلحظةٍ جميعَ رماده

ولستُ أسفأ

لكنني ضجران

وتعبتُ يدي.

سنوات!

سنوات!

سلام لا تنتهي لالتقاط ملاكٍ أو ذبابة

أيّامٍ وحيّتان

بشّرٍ غير مدعوّين ومطابخ ورؤوس نيئة أو مشويّة

وفروجٍ وآلاتٍ رجالٍ ومزابل

لا يمكن وضعها كلَّها الآن في طابور  
وهزّس أصابعها.

لذلك

الرؤيا باردة

وينبغي الصراخ بشيء آخر

الأرواح تافهة

يمكنك أن تثقل أجنحتها بالأسراب الانتحارية

أو تطلق عليها مصارعي السومو

وتتفرّج.

## على الجبال

على الجبال التي

لا يضحّي الثلجُ بنعله الجديد لهبوطها

يسلمُ بريدُ الحمامات اليومية، قسراً،

لقلوب مفتوحة كقعر سفينة -

(جان جيونو يتذكّر أكثر المساعي مهانّة

وتلقيح الناس ضد السموم بتسميمهم قليلاً كلَّ يوم،

إدوارد توماس يتفحص الجبهة تحت مطر بارد وناغم

حائراً هل يبقى قرب النافذة

أم على السلم حيث يأتي تحطّمه في الطبقة السفلى

بشكل أفضل،

وجوه روبرت موزيل تجمع بين رافائيل وأنثى الخنزير

وهو متأكد أنّ المرء يمشي

بعد سلاسل الحراس

كأيّ سائح) -

على الجبال إذن

حيث تُسلم جميع الرسائل لغير أصحابها،

مع خصياتٍ صغيرةٍ جائزةٍ ترضية،  
يلاحظُ أنّ الغوغاءَ تجمّعت  
بفعل اللواط  
وأنّ تشريح الحنان البشريّ والسلام المحشّش باستمرار  
يتمُّ بلا دم.

الشوارع تنام هكذا:  
ثلاثة مليارات نعل في خبطة واحدة  
تحركها جماجمٌ للاستعمال الخارجي،  
مراكزُ عبادة بُنيت مناصفة  
بين عرق الرجال والمومسات،  
فلوريساناتٌ أوتوماتيكية من أقدام العبيد  
فوق مكاتب الرؤساء،  
سماواتٌ بأعضاء تناسليّة  
وآلهة  
تننف شَعْرها بسكّر رخيص.

على الجبال؟  
أيّ جبال؟

## العمل اليومي

هاي أنت

تعال

لن نفعل شيئاً اليوم

الشمس مملّة والمطر رتيب

وليس لي جلدٌ حتى لارتداء قبّعتي.

هاي أنت

لا تقلّ إنك مستعجل

وصائب حتماً كالطليقة

لن تخسر شيئاً إذا ألغيت كلّ الرحلة

يمكنك أن تستغني عن الله

وتكلّمني

هل كان عليك أن تتعلّم كلّ الكلمات

لنقول فقط

وداعاً أيها الأصدقاء؟

ساعدني قليلاً

للاستقاء على هذا الرصيف

ومنع العبور إلى تلك البقعة  
ساعدني فقط  
لكي يمرّ الهواء.

## في شارع الكسليك

في شارع الكسليك. تحت غيمة. مع ريشٍ وحده في الفضاء.  
ريش، وحده.  
الأصدقاء رشوا الحمام. نظروا إلى الشتاء. وضعوا كتباً على  
المنضدة. وناموا.  
الشمس تتدلى أيضاً  
يجب إسعافها بالمخدرات، كفيرونيك الفرنسية  
ليل بكامله لامتناص شارع الكسليك من دمي  
ليل لفأر  
يقضم الحوانيت ويجعل قدموسَ مجذافاً يقطع السين بلحظةٍ بين  
فخذيها.  
في شارع الكسليك أربعة رجال يراقبونني  
وقمر غير مكتمل  
بنايات لا يزال عمالها يرفعون الأحجار  
والشوارع تتدلى

يجب إسعافها بالنظرات، كاليونانية الضائعة في ساحة سينداغما،  
مخدّرة وحزينة

وأنا أمتص أرسطو من دمها  
وأرسل سقراط ليلعب بالكونيا.

أربعة آلاف رجل وراء امرأة واحدة. أربعة آلاف مسلّح، لأنّ ذكراً  
وأنتى يقذفان من أحشائهما مدينة  
لأنّ مصرياً كان يرتجف، يتمدّد، يسيل فوق أربع خفّانات.

لبنان، لبنان، تظنّ أننا لا نرى.  
ملاحه دموية. سياحة جلود.

شفاه تلثم دولاراً على قفا أميركا.

الذي يرتجف يضع نفسه في الماء. يذوب كعشب حنون. ينحني  
ويذهب

يترك وراءه ساعة يد، وكمين.

لبنان، لبنان، وراءك ارتجافات مهجورة.

أرى خرطوم مدفع في أنفك، مستودع جثث في عينيك، وشحاذاً  
يتبعه كلب على

صلعتك.

لبنان، هذا دولار لك، انصرف.

أريد عطوساً. يجب أن أسحب لبنان من صدري.

في شارع الكسليك، أتناعب أحياناً.  
الليلة عيد القديس جاورجيوس، ذهبنا إليه في مرسيدس ١٨٠،  
وضعنا له ليرتين، وعدنا لنطعم القطط.  
مريولُ طفلي على الحبل. وشاحنات جنود.  
أجسادٌ تعرق وتتبخَّر، بلا صوت.

## رأيت رفاقي

رأيتُ رفاقي متعبين يمشون كأبطأ السواقي  
يستعيرون قصباً نحيلاً ويغنُّون لإلهاء خبياتهم  
يصرخون أحياناً  
لإعادة دمهم الذي يتنزّه في الشوارع  
ويحفرون ثقوباً  
لنوم المتأخرين من عروقهم.  
رأيت رفاقي يجلسون أياماً على الكراسي ليسلُّوا أرواحهم الضجرة  
على الطاولات  
يوصلون بصعوبةٍ تنفُّسهم بسلك الهواء ويرسلون  
شيفرة حياةٍ غير مسموعة  
المتجولون مع الفجر قطعةً قطعة  
مغسولين كيفما كان بأيدي السجناء  
الذين ضربوا حارس المحطة وسافروا بلا حقيبة  
استلقوا صامتين  
في ارتعاشات منحرفة  
نخزوا شرايينهم وفرشوا السجائر في طريقهم

من الباب إلى الدَرَج ومن الدَرَج إلى الباب  
غير واجدين ما يبِرّر خطوة إضافية.

عرفتُهم من عيونهم

من وقوفها الطويل في الشتاء البطيء

رأيتُ خصلات شعرهم حمائم

وجبينهم كزقاق جانبيّ

هاديء.

سمعتهم ينادون أصواتهم لتعود من الهواء

ورأيت ظلالهم تغفو

على حائط بسيط.

مخنثون

قدّيسون

غرقى وسكارى

جاؤوا من السهول والغابات لنسف القطار

التقوا حكماء وأحجاراً ونباتات مضحكة

تحسّسوا لحم بعضهم بعضاً

ارتطموا بأضلاعهم

وتفكّكوا.

## محاولة للوصول إلى بيروت من بيروت

( قصيدة إلى سركون بولص )

هل كان عليّ أن أخرج اليوم لأمسّد  
بأصابعي الصغيرة قذيفة الأعداء  
أن أذهب في طريق يذوب إسفلتها مستعيداً  
عمّال منجمه الذين تناثروا  
بديناميت  
مستعيداً عميانه، وبوهميّن قدامي  
يراقبون انسلاخ الأرض عن جلدها  
كقرصان محروق  
هل كان عليّ أن أخرج لأذهب إليك  
بعد موت آخر أرساعي، وقدمي، وبديّ المتعانقتين  
كعريسين أُطلقَ عليهما الرصاصُ قبل المساء  
بعد أن جُرِدْتُ من أسلحتي جميعها في وادٍ  
يلعب فيه المغول،  
وأذهب إليك الآن، أحاول أن أذهب إليك  
بما بقي لي:

فكُّ مدروزة بالرصاص  
نُصبتُ علامةً للجنود في وقت فراغهم  
رأسٌ يوضع عادةً فوق كتفين كفلينة تقاوم حوتاً في رأس صنارة  
ذراعٌ لا تستطيع التلويح  
قريةٌ بعيدة، بعيدة جداً  
انبثقت ذات يوم من دخان السطوح  
وشجرة  
ترتبتها ابتساماتُ الغربان.

أحاول أن أذهب إليك  
وذلك لا يستدعي سوى رحلة بسيطة:  
نزهة رصاصة  
بين التباريس وشارع الحمراء  
لكنَّ ضفتيك مفصولتان ببحر لامع من المتفجرات  
وحرّاس بابك يركلونني، فأتدحرج  
أتدحرج  
بلا قرار.

## فريس على الباب

هل يجب أن يطول هذا إلى ما لا نهاية؟

الهواء

الإشارة الأبدية

واليد التي فلتت خلسةً مني؟

في البدء،

ماذا كنت أريد في البدء

حين أخذت على حين غرةً بحياةٍ

لا تزال تلطم حوافرها على بابي

حين رأيتُ، أو ظننت أنني أرى

رملاً

سيكون في آخر المطاف لؤلؤةً قلتُ

ونمتُ من التعب أخيراً

على ظهر باخرة

تتنقل حمولةً عظامي.

جُننتُ

وَجُنُنْتُ ثُمَّ

جُنُنْتُ

كواحد دَوَّرَه التدرج

في تفسُّخات الأرض

كجمجمةٍ في أطلسٍ مهملٍ

وسحريٍّ كمنيِّ مقدوفٍ

وفيه جمجمة!

هل كان يجب أن يطول هذا إلى ما لا نهاية؟

## على بعد خطوة

بضربةٍ سَكَّينِ حادٍ  
ربما ينشطر الغشاء هذه المرّة  
وتخرج الخيولُ من دمي  
العروقُ مستلقيةٌ كجريمةٍ مهملةٍ  
وعلى بُعد خطوة  
انزلاقٌ بسيطٌ يمكن أن يُحدثَ المعجزات  
فالمعجزات  
زلةٌ قدم.  
على بُعد خطوة  
المعمل فوق القناة  
فيه إصلاحات بلا نهاية  
وسكارى تحت الرذاذ  
يعبثون بأصابعهم  
على بعد خطوة  
عاهرة الميناء  
حيث تغتسل ثيابُ التاريخ

وتُنشر على الحافة  
وجميعُ الرجال يرفعون البنادق  
لوضع نقطة.

## المشهد

هذا هو المشهد  
مع شيء من الإثارة لامرأة  
تحبل في وسط الشارع  
ورأس على الرصيف لا يتسلّمه أحد  
وبين وقت وآخر  
يد  
فارغة  
وسائق يحاول  
تحريك فمه.

## صدفة

هكذا صدفة  
رجلٌ مبلول يقف على الساحل  
رجل عاد أخيراً  
من محاولة يائسة لشفاء النмор  
من داء الغابات  
قرصان  
أراد الاستيلاء على النحاس  
ومداواة حيواناتٍ منقرضة  
هنديٍّ أحمر  
يتذكّر صيحات  
وريشاً ملوّناً،  
هكذا ببساطة  
رجل يعوّض خسارته  
بالوقوف قليلاً  
أمام دكّان مقفل.

## البحث عن عميل

وأيضاً قطارٌ عائد من الحرب  
بجثثٍ أُجالسها  
ونحتسي القهوة.  
هناك عميل بين المسافرين  
يجب أن أجده في الحال  
عميل يأخذني فوراً إلى رأس العالم  
في هذه اللحظة يجب أن يتمَّ كلُّ شيء  
انفجارٌ يودي بالعجلات  
أو يوقف سلحفاةَ الدماغ  
العنيدة  
وهذا الجنديُّ إلى يميني  
وامرأةٌ تسحب نفسها  
وتدخل المرحاض  
والبصّارة ثانياً

والخطوط و الحلازين.

الآن فوراً

مع الجئث

والقهقهمات.

## مهّما شرحوا

مهّما شرحوا لي  
هناك مجموعة أخيرة من الأصدقاء تتدلى فوق السور  
شحاذ يمشي  
تحت شمسٍ بارزة العظام  
يدٌ نحيلة  
في يومٍ معزول.  
الفضاء ملقى تحت سطحٍ خشبيّ  
وعشرُ بطّاتٍ تنام منذ الأمس  
في ضوءٍ ضعيفٍ  
وقطّة سوداء تتأمل الأجساد  
المربوطة بالشجر.

## محطة الشمال

مهريون بياقات بيضاء  
تحت ثلج ناعم  
ومعطلة الآن قشرة الأرض ومحطة الشمال  
حيث كان يجب أن نذهب.

أمام صقارة القطار  
محيطات منشورة لتجف،  
بالكاد أسمع هذا.

## قليل من الأرواح

لا شيء يوجب الذهاب الى الغابة  
ربما الأفضل أن أتوقَّف كالحيوان اللطيف  
لأشمَّ رائحةَ الهواء،  
ولا شيء يوجب الذهاب الى البحر  
إذا أردتَ أن تطعم العائلة أو  
ترسلَ التحيات،  
الصنوجُ كانت كافية  
مع قليل من النار  
والأرواح.

## كان همّي

كان همّي أن أصطاد  
بفكي السفلى  
هرّة الألوهة  
وأوقف ضربات المنجم فوق رأسي  
حيث تعرق ملائكة مهجرة  
كعمالٍ مضحكين،  
عوض ذلك  
أفيض بالجثث  
باحثاً عن دواءٍ لهرموناتٍ  
مزودةٍ برماح  
وجزءٍ من ذاكرتي  
أُسقفُ يتمخّطُ  
يفتحني كجمجمةٍ تنخرها ذبابة

جمجمة فتى مائل  
إلى شجرة الإعدام  
طويلاً غائماً ميللاً  
بكسلٍ  
بدعٍ  
أكثر بطناً من السهول  
وكلُّ نبضة من جسده  
تعانق المنتزهين في الحديقة.

## دخان أبيض

ماءٌ يسقط على الجسر  
ولبوءات  
في دفن الشتاء  
والهواء يتابع السير إلى المقهى.

الحمام يأتي اليوم  
وسنذهب لرؤية المداخن  
الدمُّ نقيٌّ بحيث تُمكن رؤية العظام:  
كائنات مالحة في وعاء  
ودخان أبيض.

## صداع بسيط

بعد الخطوات الخفيفة والابتسامه  
التي أرسلتها على كلِّ حال  
في هواءٍ مستعملٍ  
يومٍ آخر،  
القميص على يدي طوال الوقت  
وعظامُ النهار  
هذه.

إنه يومٌ عاديٌّ  
زجاجةٌ مكسورة في حديقةٍ عامَّة  
فقط يومٌ مهملٍ  
كصداعٍ بسيطٍ.

**جيد**

أجلسُ بِنِيَّةٍ واضحةٍ ومشروعةٍ  
إلى فنجان قهوة  
الأمور الشخصية تتمشَّى  
وما تبقى يجلب اليأس،  
البنُّ البرازيليُّ في النهاية  
جيدٌ.

## نهار طيب

السكرتيرة الألوقة  
تترجّل من قميصها  
العامل النشيط  
يصبُّ مصنعاً  
في كأسه،  
إنه نهارٌ طيب  
خالة امرأتي ذهبتُ إلى مصر  
وعادت!

## وصل الحديد

اطمأننتُ أخيراً،  
حياتي تأخذ اتجاهها الصحيح  
وقبولي في معمل الصلب  
شهادة على حسن سلوكي،  
رافعة السيكسويالات تُثبت لي هذا بإصبعها  
ومطارقها تؤكد  
عدم خيانتني.  
إفعل شيئاً أرجوك  
وَصَلِّ الحديد،  
حديدٌ يُصهر ثانيةً  
لتحويله إلى سكاكين  
فالشوارع ستُفرم كخسٍ طازج.

## الليلة

الليلة

ثيابٌ نظيفة تأخذُ وجهةً مخطئةً  
وبحرٌ يتواری  
كسبَّاح.

هذه الليلة

الشبيهة بجبلٍ يفرُّ من الأرض  
كم من الحيوانات كانت ستنتسب إلى رائحتي  
وكم كنتُ  
سأعضُّ الفجر.

## واضح ومختصر

كنتُ صبوراً جداً  
لأتقبَّل تلك الحركات  
بحذاءٍ نظيف  
ورأسٍ مليءٍ بالقناني.

في الأدغال  
بندقية مسنَّة  
وثعلبٍ واضحٍ ومختصر.

## الطريق إلى الحيوان

أعرف على الأقل من حذائي  
أنَّ المطاردة لا تزال طويلة  
لكني لن أكفَّ عن رشق هذا الحيوان بالماء والحجارة  
وربما سأبحث عن سلاحٍ آخر  
كالتظاهر بالموت  
أو التلويح بجثةٍ ثورٍ برِّي يرعى في عظامي  
أو أية حيلةٍ أخرى  
كمعاودة الهبوط إلى الغابة  
والتغلغل في النمر والشرابين  
أو النوم  
قرب أحمال القصب  
وافتراس الوقت بالغناء.

## التحدث إلى الخيول

كان عبثاً أن أفهم الأحصنة  
أنَّ السباق مخجل في هذه المنحدرات  
وأني أفلست تماماً من القمح اليوميِّ  
والماء  
للذكرى

وعبثاً أرمي علفَ الصداقة  
وأدعُ رأسي خفيفاً كنسمة تذهب إلى الشاطئ  
فيما الطرقاتُ سنوناتُ مهاجرة  
ويجب أن ألقمَ البنادق لاصطياد المهاجرين،  
ولم يكن عليَّ أن أنام أو أنهض  
لأعرف أن الشمس  
لا تتعثر بالدلافين.

## هذا ما يحدث

السريزُ مرَّةً أخرى  
قبل أن أنتشرَ في النهار كالشظايا،  
يحدث دائماً:  
نشيحٌ متقطعٌ  
قنواتٌ من المصل على الظهر  
قبالةً دگان التبغ حيث يمكن  
تأمل الأضلاع الناجمة  
عن تداخل الشوارع.

## غراب الأبدية

يوم قررتُ اصطيادَ غراب الأبدية  
أفهمتهم جيداً أنّ هذه الغاية ليست من عاداتي  
وأنّ في فمي طيوراً  
تتقد النمل الأصفر والكآبة،  
ورميتُ خطواتي في النهر  
لأغسل عني الفضاء.

## السفر إلى أثينا

كانت تمطر ومنتظر البواشق  
قبل أن نقرر متابعة الطريق  
إلى صديقين في أثينا:  
جاد وسركون.

أحدهم يصرخ في وجهي  
مطلوب قَدَمٌ شاغرة  
للحدائق العامة،

عملٌ كاملٌ بلا معاش  
أخذتُ فرصةً وها أنا ذاهب إلى أصدقائي  
يقال هناك أكروبول  
يَنسَعُ لثلاثة سَكَّيرين.

## تحية لقدمي

جالس

أتأمل قدمي:

أدغال خربتها قميصٌ مستعجلة

أظافرٌ ملساء في منتجٍ روحي

تستقبل ذئاباً تخرج تباعاً

من أفواه الماشية:

إنها خدعة للتودد

ليتحمل اثنان أنهما شببيان

يتجهان معاً وفي الوقت نفسه

إلى طريدة الغد،

إلى الحافة التي لا يمكن هبوطها على مهل،

الغد المرفوس في أي لحظة

بمؤخرة الماضي

بأذنانٍ ضربه طويلاً

وهي تلوح في الهواء

وبقدمين  
تستعدّان لجولة  
في دماء الطريق.

ألا يمكنني أن أزهو  
لأنّ قديميّ هنا، أمامي  
وصديقتان!

## الحفلة

بما أني أصبحت جاهزاً للأعراس  
مثل إورة على طبق  
فلتبدأ الحفلة الآن  
ليرقص القتلة واللواطيون  
مع الملوك و القديسين  
ولتبارك العاهراتُ هذا العرس بدلاً من الكهنة  
ليكون لهذه الليلة نسل جميل.

لتبدأ الحفلة  
فأنا جاهز تماماً  
كالصناديق.

## الحيّ الغامض

على عجلٍ  
وبفتّاحة العلب في يدي  
يخرُجُ المزيد من الرغوة:  
رجالٌ يمشون  
كتمريرٍ ضعيفٍ على البيانو  
أنهارٌ تنتظر عند البوّابة  
وضلوع  
تفتح كمِظَلَّة.  
في الشارع نهار غائم  
وبقعٌ من الأسبوع الماضي،  
إنهم ذاهبون في جنازة  
هذا الأحد.

## كان يمكن

كان يمكن أن يحدث شيء ما  
كالظلّ، مثلاً  
أو ضربة ثوب  
في فضاءٍ قلق

كان يمكن للنهار أن يذهب في كلّ اتجاه  
كمدفع رشاش  
وأن نقف  
كرداء  
يلقي نظرةً على الميناء

بعد حمّامٍ ساخن  
نهار رائع يا سيّد شارل.

## بينكم

في هذه الأيام  
أحاول أن أجد لصاً  
يأخذ كلَّ شيء دون أن يوقظني  
أبحثُ عن ضمانٍ أكيدٍ للآخرة  
كأتونٍ جديدٍ مثلاً  
يبدد فحمَ ماضيٍّ أو  
امرأة

أرشو بها من يعاند تدلّي جسدي،  
في هذه الأيام

الخالية من مشنقةٍ عشيقية

أريد أن أعرف فقط

كيف ألوك ألسنة الساعات كلّها

لحظةً لحظةً

ومع ذلك تفتح فمي في الصباح كلمةً لطيفة

ورمح

يدأب في تشطيب هوائي.  
لصّ  
أليس بينكم لصّ محترم  
يا سادة؟

## السهر مع شارل شهوان

بعد محاولات كثيرة  
وسقوط ريفٍ بكامل سكَّانه  
العالمُ مجدِّداً  
وصديق  
أربط معه بقية النهار بشرفة  
صديقٍ يضع عادة ساحلاً  
في جيبه  
بين مجموعة من الآلام  
والقصائد.

لكننا

ونحن نعبّر الجسر  
عثرنا على فكّ ديناصور  
وحذاءٍ متسكّعٍ يتابع السير  
بعد توقُّف صاحبه.

## مهمة محدّدة

إنها عربةُ زوج  
تنقل كسيحاً من "الإنكا" إلى نيويورك،  
عربة تغصُّ بالطبول وسط شارعٍ  
يغصُّ بالمتسولين  
وأضواء تكشف بهدوء  
أحذية المارة.

مهمّة محدّدة:

جنرال بقديم  
يتعقّب آثار قدم واحدة  
في ليلٍ مخصّصٍ أصلاً  
للزواحف.

## البحيرة الأيروتيكية

سقطتُ من السماء  
مع أنّ هذه الحركة ليست موسيقية  
سأمضي الليلة في الخارج  
مع نجوم جديدة  
ربما.  
أنا، وديع،  
أجلسُ كسلطعون على الرصيف  
منتظراً أصدقائي،  
اجتزتُ بحيرةَ الله  
الإيروتيكية  
واستلقيت.

## الإقامة

في الغرفة الوحيدة التي لا تتكلم اليونانية في أثينا  
أمام بحر  
يأتي زبده من لهات غريق  
أنتظرُ باخرة كُريت  
المحملة بفتى  
يتحوّل إلى برميل راكي  
أو نملة  
ذهبت بتذكرة مجانية  
إلى سان فرانسيسكو في رأس صديقي.  
في الرقم ٧٥ من شارع إيبيرو اليوناني -  
المؤجر مع ابتسامة شهرية  
من المرأة المسماة أريتي تسيتزاس  
المولودة خصيصاً لنصب الكمان على باب جيبي -  
أكملتُ تدريبات الانتظار  
كحصانٍ يقف حائراً بعد معركةٍ مات فيها جميع الجنود

يتأمل حبرَ معاهدة السلام  
ولا يفهم،  
أقف كسائق صهريج ضخم  
يرى فرساً تحت الدواليب  
تحاول أن تتذكَّر، بَعْدَ، سطرين من أشعار الفروسية.  
هل هي الإقامة اذاً؟  
إذا كانت الإقامة  
حسناً تكون:  
الإقامة  
في الاسم الموسيقيّ لإبييرو  
المحشوّ كمصرانٍ بالمهاجرين  
والذي تعبّره مع الفلاسفة  
شاحنات البطيخ.

## أفهم أحياناً

أفهمُ أحياناً

ماذا يحدث بعد الصلاة:

ملاك يذهب طيراناً

إذا سبقه الباص

ومؤمنون مصابون بالغرغرينة

يرتاحون على الصخور.

إذا كان الشرفاء وحدهم يدخلون الجنّة

ماذا لو تهيجوا؟

ليس ممنوعاً طبعاً ارتجاف قضيب على نفقته الخاصة

أم أنكم تريدون

أن يتحمل الله النفقات؟

## بلاسما

افترض أوصدتُ النوافذ والأبواب، هراء. الحياة تنشُّ أيضاً من الجدران.

يجدر بي أن أنزل لمسح جلد الطاولات وإيجاد دعامة لعمودي الفقريّ. عروق يجب أن تتنزه. سماسرةُ بلاسما. تقريباً دمٌ بشريّ. كريّات مسروقة في الليل وموضوعة في قساطل. سواء كان الوقت يوم الشكر أو يوم السعال، العالم هادئ كآلة حلاقة أمام المرأة.

الولادات مقذوفة بتهذيب كالتبؤل على التنك. وفي الخارج، مجموعة من مصارعي الثيران تُفرغ مثنائتها.

## دعوة إلى الرقص

أرغبُ أن يخرج من هذه القصيدة كلب  
أتملّقه بعظم، بحلمة راقصة  
أغريه بحرف ناعم، بواو كذنب كلبة تستعدُّ للمضاجعة، بصور  
أكثر الكلبات شبهاً في التاريخ  
كلب أو أية تسلية أخرى حتى نهاية القصيدة  
ماذا يمكن أن أفعل غير هذا؟  
أجذب الربَّ من رقبتَه وأدعوه إلى الرقص؟  
أحيك زوجاتِ السفراءِ ملابسٍ داخلية؟  
أبني مصنعاً لدعم الاقتصاد الوطني؟  
مطبعةً مستندات سرية لخدمة الحكومة؟  
أم أطلق زوجتي؟  
اسمع، أيمن أن يطلق الرجل امرأته إذا كتب قصيدة وخرج منها  
كلب؟

أرغب إذن أن يخرج كلب  
ففي قصيدة سابقة خرج العالم  
أقنّته بالعودة إلى المصحّ  
وَعَدَنِي، ولم يذهب  
واستعملتُ كلَّ الكلمات البحرية ولم تعلق سمكة  
بماذا يفيد الورق  
فليخرج الكلب.

## كـمـين أخـير

لن أتوقَّع شيئاً

فليذهبِ القطار

كلُّ شيءٍ باقٍ

حتى صراخُ طفلي بين الجدران،

هناك جارٌّ يزورني

لشرب القهوة أو

لإبادة النهار

وبعد ذلك جميلٌ

أن أذهب إلى النوم.

## خاتمة

هذا كلُّ ما أردتُ أن أرسله في يومٍ محتشد:

قنينة وقبَّعة

لرجل

مات قبل لحظة.



# 4

**مقعد راكب غادر الباص**  
( 1987 )



## حياة

تمتدُّ إليَّ يدها  
باحثةً في أحشائي  
عن مدينة  
وأنا ولدٌ أرعن، راكبٌ درّاجة  
يهربُ زناناته في الليل  
يمشي مخموراً  
حاملاً رجلاً مجنوناً منذ الصباح على ذراعه  
ذاهباً نحو مصحّ  
محتفظاً من كل ماضيه ب: أحشاء  
ومفتاح  
لا يجد له بيتاً،  
الرحلةُ وضعته هنا  
لينظر إلى الشجر  
ولتسقطَ منها ورقتان  
على كتفه.

## البواخر راسية في الميناء

البواخر راسية في الميناء  
لاعبو ورق، نشارة خشب، أمواج  
وقططٌ صغيرة تنظر إلى الحمّالين

نوعٌ نادر من الارتعاشات يقف في هذا الشارع  
في الصباح مثلاً، حين تمرّ الصنارات في اتجاه البحر، تبدأ  
المعامل في العواء  
ترتدي النساء ثيابهنّ  
ورجال الأعمال  
الذين تركوا الشارع محمراً وراءهم  
يبتسمون لسمة كبيرة نائمة على الفرش

الهواء يهبُ الآن  
أمرٌ غريب!  
ربما في الملجأ السريّ، هنا، حيث يستلقي كلبٌ على الباب  
رأينا ذلك الرجل يلعب دور التلّة

التي تنظر إلى البحر

أمام البواخر

أمام البستان الجميل.

## أعتقد أن المروحة تدور يا ألن غينسبرغ

إسمع يا ألن  
أنا على الرصيف وقد نفذ تبغي  
أفتحُ عينيَّ وأغمضهما  
وأحياناً أستعيد تلك الليلة حين مسحنا اللعاب عن أفواه الأموات  
ثم نزلنا السلمَ معاً  
وتمشينا على البحر

المروحة تدور الآن  
وأحبُّ أن أعتقد الهواء سنونوة لطيفة وأنا أسند نفسي على الزواية  
مراقباً تتملُّ ركبتيَّ  
المروحة تدور الآن في رأسي يا ألن  
وفمي الذي يشبه كشك جرائد  
يتحلَّى بالصمت  
بضعُ أسنانٍ ماتت فيه كما يموت الحيوان  
وحدثُ أنني في أحد الأيام  
اكتشفتُ الصبر تحت شجرة  
وتحدّثتُ عن الروح في عربة بسيطة

ونحن نسير بمحاذاة النهر

الدخانُ يا ألن

الدخان، ورنَّاتٌ جميلة!

وفي الجهة الأخرى، على الشاطئ

الرمْلُ يقف وحده

وأحياناً تُخرج له الأسماكُ حجراً

ليجلس عليه،

هل هذا منظرٌ لائق؟

في يدي يومٌ قتيل

وأريد أن أدفنه بهدوء.

## نقطة بعيدة

ملحٌ قليل ينام  
في يدي التي أستمتع بصمتها الدائم  
ملح  
كأنَّ يدي كانت في الماضي بحرًا  
ورأسي  
الموجود معي الآن  
يمشِّط شعره في قارَّة بعيدة

أحلام  
بعد منتصف الليل  
في قرية

عابرٌ في شارع بسيط  
فيه دكَّان  
ونقطة بعيدة  
أعتقد أنها مقعد.

## ظله

ينحدر ظلُّه مع سيل طويل  
متدفقاً من قرى بعيدة  
يفكر في جذع شجرة ربما  
أو صياد سمكٍ نهريّ  
يوقف تقدّمه المجنون نحو محبة فقدت رأسها  
اليومَ أيضاً،

يتدفق بعيداً  
ناظراً صوب حياته مثل حريق  
شبّ فجأةً في نزهة،  
وينحدر ظلُّه  
يوقظ بضع نساءً على التلّة  
وينحدر  
في قرية مجهولة  
قرية مجهولة تماماً  
لا يشعر بها سكّانها حتى باللمس.

## أذهبُ هادئاً إلى المرآة

عملٌ ناعمٌ أن تنتظر إليَّ  
وتبتسمَ إذا ابتسمتُ  
وأرجوك لا تفرع الباب  
إني واقف على النافذة أتأمل الجسر

العملُ الشريف، أنا فعلته اليوم:  
نظرتُ إلى البحر.  
رأيتُ في الشارع ناسًا معطلين  
ثم دخلتُ الحانة  
شربتُ قنينة بيرة، وخرجتُ برأسٍ سكير  
متصورًا أن الله كان في الأصل عصفورًا  
يزقزق للشعوب  
إذا كانت الأمكنة ترقص في الخارج  
لماذا لا تذهب وترقص معها  
ألا تحبّ الموسيقى؟

صفوفٌ من البط  
أريد أن أراها  
وأنا مدعوٌ  
مدعوٌ اليوم  
كي أمشي كالدمية  
ومن فتحات ثوبي يخرج لحم  
يمكنك أن ترى مثله عند الجزّار  
ألوحُ به وأفكرُ أنّ العالم  
ربما تنقصه عظمةٌ ليمشي  
ثم أذهبُ هادئاً إلى المرأة  
وأمشطُ شعري.

## أمتعة رخيصة

في هذه اللحظة  
وأنا أتحدث مع المساء كعاملين خارجين من مصنع  
يظهر أمامي مستقبل غريب  
يكفي أن أنظر إليه حتى  
يتدلّى في الوديان،

في هذه اللحظة مستقبل يتدلّى  
أرسم له شبكةً في الوادي ليصل سليماً  
أو على الأقل حقيقته التي أنا فيها  
وهكذا أصل  
عظمةً ساخنةً تخرج من ثكنة و تنتزّه  
تخبرني عن حياتها  
عن جلدها النادر  
وأطفالها المولودين في الغربة مني  
ترسل لي كل مساء كلماتها حافية من بلد بعيد  
لتسألني: ماذا ستفعل الليلة

ماذا ستفعل الليلة يا وديع  
بحياتي!

ومن فمي الذي تستلقي فيه صرخات  
الذي تستلقي فيه أمتعة رخيصة  
تخرج كلمة وداع صغيرة  
لا يسمعا حتى الجالسون في أذني.

## نزهة المساء

غالبًا

وأنا أسير على إسفلت من فحَم العابرين  
تأخذني نجمةٌ بيدي في نزهة المساء  
الوقت الذي يجرفون فيه النهار

نجمةٌ بين جبلين مطفأين:

فقيرين في حانة يريدان أن يؤوياني، وذهبتُ  
وها أنا

في مصحِّ فوقه نجمة!

هل كان عليّ أن أمشي كل هذا الوقت لأصل إلى هنا؟  
ولماذا؟

ألم يكن أبي يتبع العمّال مسوقًا بسوط؟  
لماذا إذن خرجتُ لأنزّه الكلاب غير المروّضة في رأسي  
بينما حياتي تموت من الجوع  
وأطفالي ينظرون صامتين

إنني، بالكاد، أقود عمياني إلى البحر .  
سنواتٌ كثيرة، ومكان  
يرقص فيه المجانين مع الغرقى على ضوء سيكارة  
الصمت كنزي الوحيد  
ويده المرتجفة وراء الباب تقودني بلمسها .

## العودة

الباب وحده في الليل  
والليل في العاصفة  
والعاصفة نحلةً تحوم حول ذراعي  
وذراعي مستندة  
على سطح سفينة  
ذراعٌ بدأت زحفها منذ أول ريح حتى وصلت إليَّ  
وبما أني وصلتُ أخيراً  
بما أني وصلتُ إلى قريتي  
في صندوق كان قلباً  
أشكرُ الحمّال الذي رافقني كرصاصة  
تخاوت الآن مع الجرح  
وأتملُّ درفتين خشبيتين  
تنزلان إلى الوادي.

## الريح تعبت بشعري

الريح تعبت بشعري  
وأنا بين ضفتين أرسل للأولى يدي اليمنى وللثانية يدي اليسرى  
لكنهما تخرجان من كتفيّ - هكذا ببساطة  
وتخنفان!

رأس  
(ليس غريباً تماماً)  
وفي الوقت نفسه غريق تماماً)  
تعبتُ الريح بشعره الأسود  
جالبةً من الجبال ربما، أو من السواحل  
سمكاً غريباً يحدّق بي  
وأكتشفُ أنه رأسي!  
ولكن المهمّ الآن  
أين ذراعي؟  
هل رأى أحدكم  
أو أصطاد بالصدفة  
شيئاً يسبح كالذراع؟

## صحراء

مع ذلك فعلتُ يدي واجباتها  
وكدحتُ كالحقَّار في صحراء  
وبينما أهرَّب الرمال التي كانت في الماضي أمواتاً  
تغرز أظافرها في كتفي وتعيدني إلى صوابي  
إلى تاريخها المصنوع من طحن اللحوم  
وإلى ذراع الهدنة  
في جزيرة تهبُّ عليها رياح الجرحى  
حاملةً الطعامَ للجنود

جمعتُ ثروتني بالغزو والحيلة  
ودحرجتُ عقداً طويلاً من اللالئِ  
حتى وصلَ إلى عنق الحياة  
أقول لها تعالي، تقدّمي يا حياة هذا لكِ  
لؤلؤ نادراً من خليج بعيد لا تعرفينه، وهو لكِ أنتِ تعالي  
وتهرب مني  
حياةً ألمعُ لها لؤلؤاً وتهرب مني!

صحراء شاسعة  
ليس فيها أحياء ولا أموات  
وعليَّ أن أتابع الحفر حتى يأتي ميت!

## النهار في رحلته الوحيدة

قبل أن تأخذني الرحلةُ بصبرها الطويل لأمشي معها  
على خيطٍ بين جبلين شاهقين  
كانت الحياة لا تزال في كهف  
تنتظرنني لأفكَّ أزرارها  
وأمتصَّ حلمتها اللتين يجري فيهما نهرُ الجنون،

وبينما المنارة تختارني وحدي  
وتجنّد لي أضواءها منذ ملايين السنين  
اكتشفتُ أنّ الفندق الذي فجّرتَه قذيفةٌ هذا الصباح  
كنتُ نائمًا فيه!  
ريشةٌ شاردة في الفضاء، أركضُ وراءها  
قبل أن تتحوّل إلى طير!

وفي ساعةٍ هَجَرَهَا سَكَائُهَا  
وَنُقِلْتُ أَمْتَعْتُهَا فِي سَفِينَةٍ مَعَ الْفَجْرِ  
حَمَلْتُ الْحَقِيبَةَ وَخَرَجْتُ  
إِلَى الْإِبْرَةِ  
الَّتِي تَخِيطُ جِلْدَ عَمِيَانِهَا بِالطَّرِيقِ.

## بلدان غريبة

هناك بلدان غريبة تنبت خلسةً في رأسي  
بلدانٌ تستيقظ من ليل طويل وتفرك عيونها  
بدهشة أعمى وحيد من سنوات  
وصل فجأةً غريقٌ إلى ساحله  
وأُتخيلُ أنني رأيتُ علامتي  
في الحُفَر التي تركتها البلدان بعد رحيلها، وهناك  
أيامٌ أصل إليها على حمالة  
ومقاهي المدن جميعها تقريباً في فمي  
وفيها رعاة بقر  
ورغم أنني نسيْتُ معطفي على كرسيّ المقهى  
فإنني مع ذلك أرتديه الآن في الشارع  
والمطرُ كلمة خرافية  
والأمكنةُ تعني: مغول ورائي  
ولأنني طردت نفسي من جنّة الكلمات  
إلى صمت يقف في منتصف الطريق كيدٍ مبتورة  
أحاول أن أتملّق بالإشارة عودَ كبريت  
مترددًا بين أن يضيء أو يبقى في علبته

وبينما يصل إليّ إيقاعُ الحياة من بعيد  
كأصوات طبول في أفريقيا  
أتأملُ المدن التي مات جميع سكَّانها بالصبر  
وأتابع الطريق  
عابثاً بزّر قميصي.

## أحاول

أحاول

باليد التي خرجت مني إلى ذراعٍ أخرى  
أن أوقف سيارة تأخذني في هذا الليل  
إلى بيتي.

## ضمير الغائب

بعدهما قال وداعاً وخرج  
بقي منه ظلٌ صغير تصنعه لمبةُ البيت  
فمشى وراءه.  
اجتاز البوابة ثم، فجأة، أطفأوا الضوء  
ففقد طريقه.  
في الصباح  
حين فتحت الخادمة النافذة  
رأت ظلاً ينام  
وحده على الإسفلت.

## النظرة

كان يقعد على الدرجة السفلى، ينظر إلى الثلج ينزل أمام رواقه  
ينظر إلى الطريق  
متبنيًا سيارات سريعة  
أملًا أن يلوّح له راكبٌ ما  
أن تتوقف سيارة، ينزل واحدٌ منها وينظر إليه.  
تذكّر فجأةً ثلجَ ماضيه، حين كانت حياته في ذاك الليل  
تجلس في الوسط، بين المقعد والكرات الصغيرة على الزجاج  
تذكّر هواءً قارصًا، وهمٌّ أن يُحضر بطّانيته  
لكنّ قلبه كان يقول له  
إنّ راكبًا سينزل الآن، ويتّجه إليه.  
في الصباح، لعب الأولاد طويلاً بكرات الثلج أمامه  
وكان ناصعًا  
وبعينين مفتوحتين، تمثاله.

## الهجرة

حين ذهبوا لم يفتلوا أبوابهم بالمفاتيح  
تركوا أيضًا ماءً في الجن، للبلبل والكلب الغريب الذي تعود أن  
يزورهم  
وبقي على طاولاتهم خبز، وإبريق، وعلبة سردين.

لم يقولوا شيئًا قبل أن يذهبوا  
لكن صمتهم كان كعقد زواج مقدس  
مع الباب، مع الكرسي، مع البلبل والإبريق والخبز المتروك على  
الطاولة.  
الطريق التي شعرت وحدها بأقدامهم لا تذكر أنها رأتهم بعد ذلك  
لكنها تتذكر ذات نهار  
أن جسدها تنمّل من الصباح إلى المساء بقمح يتدحرج عليه  
ورأت في يومٍ آخر أبوابًا تخرج من حيطانها وتساقر،  
ويذكر البحر  
أن قافلة من السردين كانت تتخبّط فيه وتمضي  
إلى جهة مجهولة.

ويقول الذين بقوا في القرية  
إنَّ كلبًا غريبًا كان يأتي كل مساء  
ويعوي أمام بيوتهم.

## ذاك المساء، على حجر

كان كلُّ شيء في منتهى الرقة. العمَّالُ المتعبون، ظلال الحمائم،  
الملابس على الحبال البعيدة.  
شعَرَ أن حياته أيضًا كانت رقيقة معه ذاك المساء. مشى معها إلى  
أقرب حجر، وقعد.  
تذكَّر آخر أغنية تعلَّمها في المدرسة، ورقص مع الشارع مع حديد  
المحلات المقلَّعة، وبلاطات الرصيف، التي كانت تخرج من طينها  
القديم وتبتسم.  
مشى مع القيثارات  
التي رقصت معه كلَّ الليل حتى  
أصبحتْ ضلوعه.  
على شعره نسمة هواء.  
في عينيه نجوم في عنقه عقد.  
همَّ أن يقول لأحد قربه: هذا العقد هدية من عيد ميلادي.  
لكنه التفت إلى الحجر الوحيد  
لمسه بلطف  
وأغمض عينيه.

## رفقة

كان لا يخرج إلا في الأيام المشمسة ليكون له رفيق:  
ظله الذي يتبعه دائماً.

ينظر وراه ليتحدث إليه، ليبثم له.

يلتفت بخفة لئلا يغافله على درج ويتسلل إلى بيت

يخبره حكايات مشوقة لئلا يضجر منه هذا

الظل ويهرب،

في الصباح يُعدُّ كوبين من الحليب، على الغداء يُعدُّ صحنين،

وكان يعود إلى بيته عند غياب الشمس

يقعد على حجر

ويبكي حتى الصباح.

## الحشد

تلمّس قماش المقعد وعرف أنه ليس وحده  
أحسّ بفرحٍ غريبٍ وهمّ أن يغنّي،  
لأوّل مرة يشعر بجسد هذا المقعد،  
بالأيدي التي صنّعتة وربما هي معه الآن،  
بالمدينة التي جاء منها، بالحمّالين الذين أوصلوه إلى الغرفة،  
بالذين جلسوا عليه من عهد بعيد،  
وها هم جميعهم، واحدًا بعد واحد،  
يدخلون.

نظر إلى يديه، ثم إلى الحشد  
فإلى المقعد بلومٍ شديدٍ وخرج  
صافقًا الباب وراءه.

## المتعبون

المتعبون يجلسون في الساحة  
ينصتون إلى عبور النسمات، التي كانت في الأرجح بائعين  
متجولين  
أو متسكعين، فقدوا أقدامهم

للمتعبين ساحة  
بلاطاتها، مع الأيام، اكتسبت صفات إنسانية  
حتى أنها إذا غاب واحدٌ منهم  
تبكي.

المتعبون في الساحة، وجوههم ترقُّ يوماً بعد يوم  
وشعرهم يلين  
في هواء الليل والأضواء الخفيفة،  
وحين ينظرون إلى بعضهم ترقُّ عيونهم أيضاً  
إلى درجة أنهم يظنون أنفسهم زجاجاً  
وينكسرون.

## الربيع أخضر، السماء زرقاء

لا يمكنه فعل شيء  
الهرة وحدها تجلس قربه  
يدغدغها، يداعب صوفها الناعم، يقول لها كلمة  
لا تعني شيئاً ولكن فقط كي يسمع صوته.  
شعاع ضعيف يدخل غرفته ويقعد على الكنبه  
يبقى لحظة قرب ساقه، ثم يرحل  
وبين وقت وآخر تنتابه هبات هواء  
لا يعرف إن كان عليه أن يستعملها لقول شيء ما  
أو للتنفّس  
العلامة الوحيدة للحياة في الخارج بقعة رطوبة صغيرة على الحائط  
لكن، معه تبغ لهذا النهار  
أيضاً صورة في محفظته يدخن غليوناً  
يمكنه أن يستعويض عن الحياة بالصور، وراح يغتني:  
الربيع أخضر، السماء زرقاء  
في الصباح تطلع الشمس في الليل يطلع القمر  
الجهات أربع والفصول أربعة

ومن الجهات والفصول تأتي الأرناب والرياح والغناء  
وعلى النلّة حجر، على النلّة حجر.  
ثم لمس هرتّه بحنان  
داعب صوفها الناعم  
وعاد إلى النوم.

## خطوة ناقصة

المقهى في الزاوية. يكفي أن يحرك قدميه قليلاً حتى يصل.  
تقدّم خطوة ووقف. السماء صافية والنجوم  
عذبة إلى درجة أنها لا تنظر إليه،  
وفي الساحة لا شيء، فقط عشبة صغيرة في شقّ حجر  
وقف يتأمل ورقها الخجول  
ومشى، متأكداً أنها لا تعرف حتى اسمه.

شيء كالصراخ يدخل أذنيه  
ورغم أنه يعرف أن الإسفلت ليس ضلعاً بشرياً  
رفع قدمه.  
ثم ضحك  
ضحك كثيراً حتى جرت أنهارٌ من عينيه  
فيها ظلال أشجار وأسماك وبيوت  
وعجائز ينقلون كراسيهم إلى الشمس أمام الباب،

ضحك حتى غابت قدمه وغاب الإسفلت  
وصدى "صباح الخير"  
من آخر الخارجين من المقهى.

## مقعد راكب غادر الباص

وداعاً أيها الله، إنني أمشي ناظرًا إلى قدمي، ذاهبًا إلى المقهى للقاء  
الأصدقاء

وداعاً، إنني أشيخ، المقهى في الساحة، أصدعُ درجتين وأجلس  
سمعتُ كارمينا بورانا ومشيت، المسجّلة تغني الآن وحدها،  
قرب الشبّاك المغلق

مطر خفيف على الزجاج، مطر خفيف على الميناء المقابل  
وداعاً، الساعة الرابعة، معي موعد مع أصدقائي  
أصدعُ درجتين، وأجلس

نضحك فاتحين فمًا على فم، ورديين خارجين من البراد  
من الأسكيمو مع الدببة، من الأسكيمو مع زحافات تجرّها الكلاب،  
مع جلود الماعز

فمًا على فم، كمتناكحين  
متزوجين الضحكات الإلهية، الكلمات غير المفهومة، الأجنحة  
التي لبستها الملائكة، وطارت

متزوجين خمسة سنتمرات من الهواء  
تسبح فيها أفواهنا، ملائكةً جديدة، طيارين ساقطين بمضادات

اوراقاً روحية ممزّقة، قطعاً من الأشباح، آلهة متروكة على الأدرج  
نتحدّث ساحبين من أفواهنا إبيرَ الكلمات، الخيوط من عروقنا  
المنسوجة بقياسات غير دقيقة  
ونذهب في الشوارع منشرحين اننا تحدّثنا، ورمينا برتقالاً من النوافذ،  
وسمعنا الصمت المرتجف للطرقات  
أننا تعاركنا مع صاحب المقهى، تعاركنا مع سائق الصهريج،  
تعاركنا مع الله، وخرجنا  
شارل بلحيته الشقراء ككوز تين، بينظلونه المصنوع ليُتسع لناس  
آخرين لا يجدهم  
عباس برأسه المصبوب في المعتقلات  
ماري بجسدها النازل من جبال الثلج، وعلى وشك أن يذوب  
عبده بغرفته الجديدة، هارباً من حميدة العجوز، ليستمني بحريّة  
عقل بحبه الضائع، بإيزادورا، بوجع ظهره، بالـ "آر. بي. جي" التي  
سقطت أمامه  
ضاحكين ضاحكين ضاحكين  
نرفع أيدينا في الفضاء، نخفضها إلى الأرض، نعيدها إلى جيوبنا  
نصبُّ على أنفسنا الماء لنستفيد من أجسادنا  
سجّاداتٌ تحت الشتاء، وبرٌّ ناعم يتحدّث مع المازّة،  
قاطرات منبثقة من العورات

ونصرخ معاً: وصلّ الباص الإلهي، وصلت حقائقنا  
حقائب حقائب حقائب، حقائقنا ضائعة بينها فلندخل المقهى  
نُجلس معنا على الطاولة وير أجسادنا، نجلس لحانا،  
معاركنا استمناءاتنا غلّة نهارنا من بيع قطع مغشوشة من التخيّلات  
ممالك بيضاء تغني على النوافذ  
أبديةً في الممشى، أبديةً مربوطةً بخيط  
ونُرجع الكرسيّ قليلاً ليمرّ الهواء،  
وداعاً  
وداعاً أيها الله  
بالهواء الذي يمرُّ بيننا، بالماء الذي دلقتَه عليّ، وداعاً بعينيك  
اللتين تترصدانني من وراء الباب، بفمك الأزرق، بنظّارتك  
المصنوعتين عند "نظّارات الحكيم الطبية"،  
ويديك اللتين تقولان لي: هذا هو الطريق  
وداعاً بمعصميك الجميلين، بساعتك التي تشير إلى وقت مجهول،  
الساعة الرابعة الآن، وداعاً  
شبطين، ٦ كانون الأول ١٩٦٢، أبي -هيكلٌ عظميٌّ محروقٌ يُسند  
ركبتيه بيديه، وكنبةٌ يخرج منها الدخان  
شعاع قمر يدخل من الكوة

وعلى المائدة سمكة غير ملموسة، قنينة عرق فارغة، ورقة لوز  
أمام الباب

كنت أزن ٤٠ كيلو مع الورقة التي أكتب عليها الشعر  
٤٠ كيلو مع ابتسامتك، مع نظرتك، مع يدك على كتفي،  
مع سمكتك على الطاولة، مع لحمك المحروق  
٤٠ كيلو مع دخانك

جواد الجنة ينطلق، نقطة عرق على جبهته  
"صان بوت" تبحر إلى لارنكا، تمشي على البحر قرب السمك،  
"صان بوت" الشمس الخشبية المسافرة

تودّعها يدٌ يتحرك خنصرها قليلاً، ويعود إلى مكانه  
نتحرّك في مقاعدنا، نمرّر أصابعنا على شعرنا، نضرب دماغ  
الوقت قبالتنا على الحائط

مرتدين قمصاناً مفتوحة على الصدر، ننظر إلى بعضنا ونبتسم  
ننظر إلى العابرين الذين يشبهوننا

جالسين وسط دخان السكائر، جالسين أو واقفين أو عابرين، آكلين  
حجارة الشارع، آكلين الشرفات من أمام السيارات، من أمام عربة  
التوقّعات التي توقفت عندنا

حاملين رأس المحبة عالياً وصارخين  
شرايين محطّمة، أمعاء أرض طويلة مرمية على حوافي الطرقات

حاملين سواحل، أبراجًا، قطعًا هوائية، هياكل سفن، أيدياً وأرجلاً  
وصدورًا تلبس القمصان  
وقدمك يا أمي التي تقيس ٢٠ سنتمترًا  
حذاؤك الذي صنعه لك شقيق أبي سنة ١٩٥٧، ولا تزالين ترتدينه  
الآن  
أظافرك الطويلة وأنت تنتظرين أن يبتسم وديع لتسأليه: هل تقصّها  
لي؟

ركبتاك الزاحفتان على الشوك والحجارة نحو ضريح قديسة  
ليتوقف أبي عن السكر  
فستانك الوحيد كأنه لاصق بجسدك، جسدك المترهل الذي خرجتُ  
منه ذات يوم حاملاً عينين صغيرتين وأصابع بالكاد تحتل الهواء  
مادًا يدي تحت نقاط المطر لسيارات سريعة  
ذاهبًا إلى باريس بالأوتوستوب  
أقنعُ صاحب المقهى بلغة فرنسية ركيكة  
Une bouteille d'Arak extra

لقاء ترويقة مجانية  
نائماً تحت مواقف الباصات في ثلج كانون الثاني  
نائماً في مأوى العجزة، مع مئة وخمسين عجوزاً يسعلون طوال  
الليل ويذهبون بالدقائق إلى المراحيض

على نهر السين، مع ورق الشجر على المقاهد  
على الطريق مع حقيبة كبيرة، رامياً أغراضها قطعة وراء قطعة،  
وقارئاً على جذوع الشجر: "الصيد ممنوع"  
في هندايا، بيدين فارغتين أخيراً على الحدود الإسبانية  
وتنقضي عشرون بيزيتا للوصول إلى مدريد  
وداعاً

الكنبة قرب الباب، القنينة على الطاولة، الله في السماء، أبي في  
القبر، الثلج على الجبل  
الوقت مغمى عليه في الشارع، الحياة جالسة مع صديقها وراء  
الصخرة، غناءً يصل إليّ من مكان بعيد  
نمشي حاملين أجسادنا، ملفوفين بضمادات عتيقة من الضلوع،  
ملفوفين بعروق مسروقة، بجلود ناعمة ناجية من الحروب  
نضع جسداً أمام جسد ونحدّق في الحيطان  
هاي، لويس، أعطنا كأساً أخرى  
سركون سيكتب الليلة مئة قصيدة، جاد سيكتب رواية كاملة عن  
الحرب اللبنانية ويهاجر غداً صباحاً إلى ملبورن  
أعطنا كأساً يا لويس

الدماغ سيتحوّل بعد قليل إلى قطة لطيفة، العميان سيبصرون،  
الأبدية ستدلي أذناءها ونقول خذوا، الله أخيراً سيقدم شفتيه، هذه  
الكرة الأرضية ستصبح من مسروقاتنا الخاصة  
سأصبح ملكاً يا لويس اعطني كأساً  
برجي هو برج السرطان، عندما أستيقظ أجد نفسي في العالم من  
جديد وأنظر ملياً في عورتي  
أمشط شعري وأخسر منه عشر شعرات تقريباً  
برجي هو برج السرطان، برج بلا شعر، بيد صغيرة بالكاد تزحف  
على الأرض، بعينين شبه مرئيتين تؤديان خدمتهما الإجبارية على  
الصخور  
أحتفظ بمنظر سفينة تبتعد، بأصداف ابتسامات غريقة،  
بعيون عميان منسية على الرمل  
أحتفظ بليالٍ فقيرة تأتي إليها الرياح بالصدفة  
ولكن يا لويس أنت لا تفهم كل هذا  
فقط قل لي: لماذا لا تدع صديقي يسند قدميه المتعبتين على زجاج  
مقهاك وهو بعد قليل سيتابع المشي كل حياته  
اسمعي يا أمي مريم العذراء اسمعي يا أمي فرنجيته، أنا لا أحب  
لويس  
الياس صديقي، شعياً صديقي، لكني لا أحب لويس

المطر ينزل على النافذة  
في الخارج أواني زهور، كنبهةً أعتقد أنها تبلّلت  
على المقعد كتلة صغيرة، أعتقد أنّها هرة  
واقف في شارع صغير، أمدُّ يدي للمارة  
أنت تعرف يا جاد، كان ينقصنا ربع ليرة للوصول إلى ساحة البرج  
مبسّطٌ في شارع الحمراء، مبسّطٌ أمام كلية الآداب، قرب بائع فستق  
سوداني، أبيع "ليس للمساء إخوة"  
وبعد ذلك المصانع في أستراليا، النهوض في الرابعة صباحاً  
وانتظار الباص، والوقوف تسعة أشهر أمام آلة في مصنع هولدن  
لجمع تذكرة العودة إلى بيروت  
ثم ١٩٧٥  
وحقيبة أمشي بها بين قرية وقرية بائعاً الاسعافات الأولية للمسنّين  
قوموا نبحث عن مقهى آخر  
"داون تاون" بناء حجريّ جميل، فيه كراسٍ تطلُّ على البحر  
نجلس  
ونضع إصبعين على البار،  
وداعاً إني أشيخ  
معي في صدري ضلوع ضعيفة، كانت ترغب يوماً أن تلعب  
الجمباز

معي رأس بكامل تجاوبفه  
معي يدان صامتتان أرافقهما كل النهار، ثم نتصافح ونذهب إلى  
النوم  
ماذا يفعل كسولٌ على مدى أربعين عامًا بهذه الأعضاء؟  
وداعًا  
القمر على الماء، رَجُلٌ على الطريق، وشاحنة مسرعة  
نمشي كنفًا على كتف، مصطدمين بأنفاس عمياء  
راكضون راكضون راكضون  
حاملين الحقائق، حاملين الأولاد والنساء، الطاولات والكراسي  
والمزهريات، وراكضون  
متسابقون بأقدام نحيلة، بجذوع أشجار مكسورة، وما الداعي؟  
مناسبة متواضعة: الحياة  
وداعًا، النافذة أمامي تطلُّ على الميناء، ومغلقة منذ البارحة  
المطر خفيف وجميل، الكنبية في الخارج، الأبدية في الممشى،  
يدي على الطاولة  
قَدَمُ أُمِّي تقيس ٢٠ سننتمترًا  
وداعًا.



# 5

**بسبب غيمة على الأرجح**

( 1992 )



## ظلال

زحلوا نحوَ الماءِ  
منحدرين من جبالهم ظللاً ناعمةً  
لئلاً يوقظوا العُشبَ.  
خيالاتهم حينَ مرَّتْ على الحقولِ  
فارقَهُم بعضُها ونامَ هناك  
وخيالاتٌ تشبَّنتُ بالصخورِ وانمغطتْ  
وأعادتهم إليها.

زحلوا حتَّى وصلوا  
إلى الماءِ مُنهكينِ  
وفوقهم كانت الشمسُ تبحثُ عن إبرة  
لُعيدٍ وصلَّهم بالظلالِ.

## نظرة

يتركون عيونَهُمْ و يمشون  
متكئينَ على نظراتٍ قديمة  
مُسجىً على أجسادهم صمتٌ  
مُسجاةً نساءً موتى  
أرواحُ أمكنةٍ أُبِيدَتْ  
وفي بالهم إذا مرَّ غيمٌ  
ينزلُ المطرُ على حقولهم البعيدة.

يمشونَ  
وحيثَ يتعبون يفرشون نظراً  
وينامون.

## زنابق

لم يكن الموتُ يرقصُ في الساعاتِ وَحَدَّهَا  
بل قُرْبَ الزهورِ  
قرب عُرْفِ الديكِ وفم السمكِ والحَبَقِ  
ويمشي مع ماءِ العَيْنِ  
إلى طاولاتهم.  
كان الموتُ يرقصُ  
وفي الساعاتِ كانوا  
يمنتزجونَ بالأسفلتِ  
والمُنْحَنُونَ على الزهورِ تحمِلُهُمْ  
الطَلَقَاتُ إلى فوقِ  
ويصيرونَ في الفضاءِ  
زنابقَ.

## الموتى نيام

كانوا عرأةً  
ولهم أولاد  
يدغدغون شَعْرَهُمْ فِي الْمَسَاءِ  
وينامون  
كانوا عرأةً و بسطاء  
يعزقون طوالَ النهارِ مبتسمين  
وفي عودتهم يقفون أمامَ الواجِهاتِ  
يقيسونَ بأنظارهم ثيابًا لأولادهم  
ويمشون.

كانوا يتقدّمون خطوتينِ ويلمِسونَ  
قبلَ نسمةِ الفجرِ جذوعَ الشجرِ  
وتحتَ نظراتهم تُثمرُ غصون  
في تلجِ كانونَ الثاني  
وكانت مناجلُهم تحنُّ إلى الحقولِ

والهواء بينَ القُرى متأهباً دائماً لندائهم  
حينَ فجأةً تحوّلَ قمحُهم إلى ضلوع  
وصارَ النسيمُ عُشباً ينمو على أجسادهم.

كانوا عراً  
وكانت الشمسُ كُلَّ مساء  
ترُدُّ غطاءها الحريريَّ الخفيف  
على أرواحهم.

## الموت، فجرًا

يفتحون أبوابهم قبل أن تطلع الشمس  
يفتحون الدرفنتين  
لتدخل الشمس كؤها.  
النسيم في الفجر  
سقي الزهور في الفجر  
حُب الحياة فجرًا،  
وفجرًا  
دخل شعاع  
من بين خشب الباب  
وصنع زيحًا أبيض  
على رموشٍ مغلقة.

## زيارة ليلية

كانوا يُخبرون أطفالهم حكايات  
عن الملاك الحارس والزرع  
والبلبل الذي جاء هذا الصباح  
وغنى في شجرة التوت، على شباكهم  
يُخبرونهم عن عنبٍ  
سيبيعونه و يشترون  
لهم ثياباً جديدة  
عن كنزٍ  
يكون غداً تحت و سادتهم إذا ناموا،  
لكنهم وصلوا  
قطعوا الحكايات  
تركوا بقعاً حمراء على الجدار  
وخرجوا.

## صيادون

قَبْلَ أَنْ يُسْقِطُوا بَعْضَهُمْ بَعْضًا تَدْرِبُوا  
سِنَوَاتٍ طَوِيلَةً  
عَلَى صَيْدِ الْجِبَالِ  
عَلَى رَمَى الْحَصَى فِي الْفِضَاءِ  
وَنَقْشِهَا بِالرِّصَاصِ  
تَدْرِبُوا عَلَى نَتْفِ الْجَوَانِحِ  
وَجَعَلَهَا مَكَانَسَ  
وَحَاوَلُوا فِي سَوَاعِدِهِمْ  
زَرْعَ رِيَشِ  
لِيَصِيرُوا طَيُورًا  
وَتَسَاقَطُوا  
مِثْلَ الطَّيُورِ .

## سماء سرية

وَجَدُوهُ  
يَدُهُ زَرْقَاءُ وَمُنْبَسِطَةٌ  
كجناحِ زُرُورٍ  
وَفَمُّهُ مَفْتُوحٌ قَلِيلًا  
كَأَنَّهُ كَانَ يَرِيدُ  
أَنْ يَغْنِي.

## شيء على العتبة

كان مَيِّتًا لَكِنَّهُ كَانَ  
يُحِسُّ أَنَامَلَهُمْ عَلَى جِبْهَتِهِ  
أَسْبَلُوهُ وَسَطَ الدَّارِ  
عَلَى فَرَاشٍ اسْتَأْجَرُوهُ وَكَانَ  
يُحِبُّ أَنْ يَشْتَرِيَ مِثْلَهُ،  
أَسْبَلُوهُ وَالْبَسُوهُ ثِيَابًا  
رَأَى مِثْلَهَا فِي وَاجِهَاتِ الْمَدِينَةِ  
وَحِينَ حَمَلُوهُ  
تَرَكَ وَهُوَ يَغَادِرُ الْبَيْتَ  
شَيْئًا غَرِيبًا عَلَى الْعَتَبَةِ  
وَكَانُوا كُلُّمَا دَخَلُوا  
يَرْتَجِفُونَ وَلَا يَعْرِفُونَ السَّبَبَ.

## ورقة

حَمَلُوهُ صَامِتِينَ  
وَتَرْكُوهُ هُنَاكَ، فِي السَّاحَةِ  
فِي حَقْلِ الصُّلْبَانِ وَالشُّوَاهِدِ  
فِي السَّاحَةِ الْفَسِيحَةِ مَعَ رِفَاقِهِ  
النَّائِمِينَ.

قال: "سأعود،  
المفتاحُ تحتَ أصيصِ الزهور"  
وورقةٌ منها كانت  
لا تزال في يده.

## عائد

استلقَى

نصفُهُ تحتَ السقف

ونصفُهُ تحتَ السماء.

تحلَّقَ حولَهُ كثيرون

اليومَ عاد

جاؤوا به مُلَوَّنًا بالدم والتراب

أُسْبِلُوهُ على الشرفة

وكانت نقاتُ ماء

تنزلُ من غيمةٍ

على قدميه.

## كلمات

الكلماتُ التي قالها  
على المقاعدِ، في الخزانةِ، على الأَسِرَّةِ، والجدارِ  
جلبُوا خادمةً نظَّفتِ البيتَ  
نظَّفتِ الأثاثَ والأواني والحجارةَ  
جلبُوا طِلاءً  
جلبُوا أصواتاً جديدةً  
وظلُّوا يسمعونها.

## فياب

ذاكَ النهار  
تحتَ سنديانةِ الساحة  
ظلَّ فقط مقعدانِ حجريَّانِ فارغينِ،  
كانا صامتينِ  
ينظرانِ إلى بعضهما  
ويَدْمَعانِ.

## شجرة

مَشَى خطوتين ولمس  
نبته زرعها البارحة  
خرج نَسُغٌ من يديه إلى عروقها  
خرجت من عينيه أوراقٌ إلى غصونها  
وحين أراد العودة  
لم يَبْرَحْ مكانه،  
كانت قدماه تحوّلتا  
جذورًا.

## رحيل

لمسَ بابَ البيتِ وخرج  
تاركًا على القفلِ بعضَ أنفاسِهِ  
رأهُما ينظرانِ إليه:  
القفلُ الذي كان يحبسُ وراءه عُواءَ الليلِ  
والبابُ الذي كان الصبأُ  
يطلعُ من شقوقه،  
رأهُما يتحلَّانِ ويعودانِ  
يباسًا على الطريقِ وكتلةً صدئةً  
ورأى الحيطانِ ترجعُ إلى الجبالِ  
أحجارًا وحيدةً وحزينةً  
والمخدَّلةَ على السطحِ تعودُ  
صخرةً في غابةٍ بعيدةٍ  
والسقفَ الذي يدمعُ دمعينِ في الشتاءِ

يهطلُ مثلُ جُزْفٍ يائسٍ.

لمسَ بابَ البيتِ ورجلَ  
تاركًا زهرةً في فتحة القفل  
وفوقَ السطحِ غيمةً  
من نظراته.

إذا

آخِرُ مَا رَأَى  
هَرَّةٌ وَدَعَتْهُ عَلَى الْبَابِ  
الَّذِي أَقْفَلَهُ ثُمَّ عَادَ  
وَفَتَحَهُ  
لِيَدْخَلَ الْجَبْرَانُ كَالْعَادَةِ  
إِذَا جَاؤُوا.

## ذاك النهار

حينَ كانوا يَجْرُفُونَ حجارةَ بيته  
لم يكن له أن يَنْقُلَ حَتَّى أَعْضَاءَهُ وَذَكْرِيَاتِهِ مِنْ رُكَامِهَا  
الركامُ ذاك، كان حَيَاتُهُ  
وارتطمتْ حَيَاتُهُ بِهِ  
في جُرْفِ ذاك النهار  
مراراً.

كانوا يجرفون أَيَّامَهُ كما يجرفون الثلج  
وناسٌ وحقولٌ تذوبُ  
في عينيهِ ويدمعها  
نقطةً نقطةً  
على أغراض البيت، على المِعْوَل، على خابية الزيت  
وعلى جرّة الماءِ التي ملأها هذا الصباحَ وكانَ  
سيسقيهم ماءً بارداً.

## رفاق

جلسَ على الشرفَةِ  
مُحاولاً أن يصابِحَ رِيحٍ  
تُلهُو بِشَعْرِهِ،  
قالَ: يَدُّ  
حينَ هَزَّتْ الرِيحُ الوردَةَ  
حينَ ابرقتِ السماءُ قالَ: نظرة  
وقالَ لا بُدَّ بسمة  
افلنتت من ثغرِ ذاتِ يومٍ في الهواءِ  
وقد تَصِلُ الآنَ  
وتجلسُ معي.

جلسَ على الشرفَةِ  
مُحاولاً أن يستعيدَ وجوهاً  
ليملاً حوالياً  
المقاعدَ الفارغة.

## قال

قالَ كانتا شبيهتَينِ: الحَبَقَةُ في الركنِ  
وأُمَّهُ

ما كانَ الناسُ يُمَيِّزُونَ بينهما  
يقولونَ صباحَ الخيرِ لأُمَّه  
تردُّ الحَبَقَةُ  
يقولونَ للحَبَقَةُ  
تردُّ أُمَّهُ

وقال: ما كلُّ الذي كانَ في يديها عروقٌ  
بل سُروشٌ من نباتِها  
وكانت راحتاها ورقَتَينِ  
عيناها زهرتَينِ  
وحيثَ تمرُّ في الحيِّ تفوحُ  
كلُّ الحقولِ من ثيابِها.

وقال كانا توأمينِ: والدُهُ و الشجرة

يُلقي ذراعَهُ عليها  
وتُلقي غصنَهَا عليه  
تخضُرُ حينَ تراهُ  
وتصفُرُ حينَ يمرضُ  
وإذا ضربتَهَا الرِيحُ  
تُصيِبُهُ رجفةٌ.

قالَ ومشى  
صَوَّبَ البابَ  
لفَّ سيكارةً  
ومضى.

## حياة

كان، تقريباً، يبِدُّ الوقتَ

رسمَ إناءً

رسمَ زهرةً في الإناء

وظلعَ عطرٌ من الورقة،

رسمَ كوبَ ماء

شربَ رشفةً

وسقى الزهرة،

رسمَ غرفةً

وضعَ في الغرفةِ سريرًا

ونام

... وحينَ استفاقَ

رسمَ بحرًا

بحرًا عميقًا

وعرقَ.

## وجهه

رسمَ وجهَهُ ورآه  
يشبهُ وجهًا آخرَ  
أضافَ خطوطاً وملامحَ  
أضافَ تعرُّجاتٍ  
ساحاتٍ  
طُرُقَاتٍ  
... مَرَّقَ الورقةَ  
واختفى.

## أسماء الموتى

أسبلَ أصابعَ يده وعدَّ أسماءَ موتاه  
وعدَّ أصابعَ يده الأخرى  
أضافَ عددَ الألوانِ حوَالِيهِ  
غصونَ الشجرةِ أمامَ البيتِ  
نباتَ الدربِ  
أوراقَ الغابةِ

... وقبِلَ أن ينامَ  
أضافَ اسمَه.

## غريق

رَفَعَ يَدَهُ  
كَأَنَّهُ كَانَ يَرِيدُ  
أَنْ يَقُولَ كَلِمَةً.

## معهم

تركوا في الساحة ندىً من قُرَاهُم  
واختفوا وراءَ الجبلِ،  
ورقَ حَسِّ، نقاطَ زيتِ، ريشَ دجاجِ  
ونسائمَ تباطأتْ  
من ظلالِهِمْ.  
حملوا غلالَهُم من الجبالِ  
فلشوها على الأسفلتِ  
باعوها  
وعادوا،  
والريشُ الذي تركوه في الساحة طار  
وعادَ معهم.

## أمي

وضَعْتُ آخَرَ نَقْطَةِ مَاءٍ فِي دَلْوِهَا عَلَى الْحَبَقَةِ  
وَنَامَتْ قُرْبَهَا  
عَبَّرَ الْقَمْرُ وَجَاءَتْ الشَّمْسُ  
وِظَلَّتْ نَائِمَةً  
الَّذِينَ كَانُوا يَسْمَعُونَ صَوْتَهَا كُلَّ صَبَاحٍ  
لِفَنجَانِ قَهْوَةٍ  
لَمْ يَسْمَعُوا صَوْتَهَا  
نَادَوْهَا مِنْ سَطِيحَاتِهِمْ، نَادَوْهَا مِنَ الْحَقُولِ  
لَمْ يَسْمَعُوا صَوْتَهَا  
وَحِينَ جَاؤُوا  
كَانَتْ نَقْطَةُ مَاءٍ لَا تَزَالُ  
تَرْتَشُّ مِنْ يَدَيْهَا وَتَرْحَفُ  
إِلَى الْحَبَقَةِ.

## أبي

قَبْلَ أَنْ يَصِيرَ وَجْهَهُ غَابَةً  
مَرَّ شَجْرٌ كَثِيرٌ عَلَى يَدَيْهِ،  
كَانَ كَالدُرُوبِ الَّتِي  
يَقْعُدُ عَلَى سُلْمِهِ وَيَنْظُرُ إِلَيْهَا  
كَحَجَارَةِ بَيْتِهِ الَّتِي ظَنُّوا أَنَّهَا سَتَمِيلُ  
وَرَقِيقًا كَعُشْبٍ وَأَيْضًا  
كَالْبِوَاشِقِ الْمَهَاجِرَةِ.

لَمْ يُقُلْ شَيْئًا قَبْلَ أَنْ تَحْوَلَ  
وَجْهَهُ غَابَةً  
فَقَطَّ شَجَرَاتٌ قَلِيلَةٌ مِنْهَا صَارَتْ بِيضَاءَ  
حِينَ التَّلَجُّ عَلَى الْجَبَلِ الْمُقَابِلِ كَانَ يِرْحَلُ  
وَشَجَرَاتٌ مَدَّتْ جُذُورَهَا وَطَلَعُ  
دَعَلٌ صَغِيرٌ مِنْ تَرَابِهِ.

## بيننا

نجلِسُ صامتينَ حالمينَ طافحينَ  
بأفكارٍ تُصَفِّقُ كأوراقِ اللُّوزِ بيننا  
نفكِّكُ أعضاءنا ونصفُها واحداً واحداً على الطاولة  
العيونَ في الوَسَطِ  
الأصابعَ على الحافَّةِ  
القلوبَ خَدَمًا يتجوَّلونَ بيننا  
ونستضيفُ أحلامًا تدخلُ من الأبوابِ  
وأحلامًا من ثقوبِ الجدارِ  
ونُعِدُّ مَأدبَةً لضيوفِ  
يتدفَّقونَ عائدينَ  
من الموتِ إلينا.

كانَ بيننا، ذاتَ يومٍ، قَسَمٌ ألا نفترقَ  
شَرَعْنَا الأبوابَ والنوافذَ  
دَعَوْنَا الجيرانَ والمارةَ والنسيمَ  
ورطوبةَ العُشْبِ كي تدخلَ  
وتتدفَّقاً عندنا،

كَانَ بَيْنَنَا قَلْبٌ لَوْز  
اِقْتَسَمْنَاهُ عَلَى الطَّرِيقِ  
وَدَخَلْنَا.

## ذكري صياد سمك

وَصَلْنَا إِلَى الْبَحْرِ سُكَّارِي  
مُرَوِّدِينَ بِخَيَالَاتِ سُفُنٍ وَسَمَكٍ  
وَارْتَمِينَا عَلَى الصَّخْرَةِ الَّتِي  
قَبْلَ يَوْمَيْنِ  
صَرَعُوا رَفِيقَنَا عَلَيْهَا.

كُنَّا صَامِتِينَ  
ثُمَّ فَلَّشْنَا أَكْيَاسَنَا  
وَرَمِينَا الصَّنَانِيرَ  
رَمِينَاهَا عَلَى عَجَلٍ حَتَّى أَنْ بَعْضُهَا  
نَسِينَاهُ بِلَا طَعْمٍ وَأَخْرَجْنَا سَمَكًا  
اِخْتَلَطَتْ دِمَاؤُهُ بِخَيْطِ دَمٍ  
مُسْبَلٍ مِنْذُ تِلْكَ اللَّيْلَةِ بَيْنَ الصَّخْرَةِ وَالْبَحْرِ  
يَصْطَادُ السَّمَكِ.

كُنَّا سُكَّارِي

وقفنا على الصخرة التي صرَعوا رفقنا عليها  
اصطدنا سمًا  
وغنينا.

## مكان الوردة

تقريباً مع الليلِ وصلُّنا  
وأُنزِلنا أغراضنا أمامَ البابِ،  
تقريباً أمامَ بيتنا  
أمامَ ذكري حجارةٍ  
وماء،

أُنزِلنا أغراضنا  
شَمَمنا مكانَ الوردة  
ونمنا.

## وجهة

تَبِعْتُنَا الحِبَالُ فِي اتِّجَاهِ البَحْرِ ، مع غَسِيلِ نَسِينَاهُ  
منشورًا عليها  
وَكَبَا مِنَّا رَفَاقٌ  
بَيْنَ شَجَرِ التَّيْنِ  
كَبَا رَفَاقٌ بَيْنَ العَتَبَةِ والبَابِ ، وتحتَ الرفوفِ  
مَشِينَا وَتَرَكَنَا  
على الحِبَالِ ثِيَابًا  
وعلى الجدرانِ قِطْعًا كَانَتْ لِأجسادنا  
وَحِينَ دَخَلْنَا البَحْرَ  
نَبَيْتُ لِبَعْضِنَا حِرَاشِفُ  
وَبَعْضُنَا تَشَبَّهَ بالصخورِ  
وصَارَ صَدَقًا .

## بقع زيت

لم نُوقِظِ النَّسَائِمَ النَّائِمَةَ  
فقط مشيناً  
يُرَاقِفُنَا مِلْحُ الْفَجْرِ  
وأصواتُ الكلابِ،  
تركُّنَا جُزْراً بِكاملِهَا هناكِ  
وَفَحَمَ مِلَانِكَةَ فِي الْأَقْبِيَةِ وَجذوعاً مكسورةً لآلهةِ  
وأبديَّةً تكلَى،  
بُقَعُ زَيْتٍ مَشَتْ مَعَنَا عَلَى ثيابِنَا  
وَشَحْمُ أَحْلَامِ  
وكانَ فِي قلوبِ بعضِنَا عرباتٌ مُخَلَّعةٌ  
ومواشٍ نافقةٌ،  
رافقتنا أصواتُ الكلابِ حتَّى غَبْنَا  
وعلى الدروبِ، تحتَ أقدامِنَا  
اكتشفنا نوعاً نادراً

من الأنين.  
هَآئِ، أَنْتَ  
هآ أَنَا الْآنَ وَصَلْتُ  
جَدِيدًا طَازِجًا مِثْلَ فَاكِهَةٍ لَمْ تَسْمَعْ بِهَا  
اعْطِنِي سِيكَارَةَ،  
مَعِي حِكَايَاتٌ غَرِيبَةٌ  
عَنْ مَلُوكٍ وَمَعَارِكٍ وَمَزْهَرِيَّاتٍ  
عَنْ شُعُوبٍ اِكْتَشَفْنَاهَا الرِّيَاحُ بِالصُّدْفَةِ  
وَأَسْمَاكِ أُرُوحٍ  
عَلَى الرَّمَالِ  
حِكَايَاتٌ لَكَ أَنْتَ وَحَدَّكَ  
اعْطِنِي سِيكَارَةَ،  
وَمَعِي أَيْضًا تَلَالٌ مِنَ السَّنَوَاتِ  
أُرِيدُ أَنْ أُبَيِّعَهَا  
تَلَالٌ مُشْرِفَةٌ عَلَى مَحِيطَاتٍ  
يُرْقِصُ فِيهَا الْحَيْتَانُ  
مَعَ الْعَرَقِيِّ  
مُشْرِفَةٌ عَلَى خُلْجَانٍ يُمْكِنُ فِيهَا بِنَاءُ مَنْتَجَعَاتٍ  
لْأَعْمَارِ أُخْرَى، جَمِيلَةٍ

تلالاً، تلالاً  
إذْفَعْ ما سَنَتْ  
وَحُدُّها.

لم نُوقِظِ النَّائِمِينَ ولم نُقُلْ كلمة  
فقط سَمِعْنَا الكَلِمَاتِ الأَخِيرَةَ للأَبوابِ  
التي كانت تَنْزُّ عند دُخولنا وخروجنا  
ومشِينا  
ترَكْنَا صُورًا على الحائِطِ  
رائحةَ زَيْتُونٍ في الزاويةِ  
أَعْضاءَ حكاياتٍ على المِناشِرِ مَشْكُوكَةً مع التَّبغِ  
ورَأْسَكَ يا رِياضَ الذي صارَ  
نِيازَكَ.

مُقَطَّعِينَ مُخْلَعِينَ واثْبِينَ  
على عُكَّازاتِ في الشوارعِ  
نَصِلُ بأَعْضاءٍ ناقِصَةٍ حيثُ نَذهَبُ وحينَ نَغادِرُ  
نَتَرَكُ بَعْضَ أَعْضاءِ  
لنا عِيونَ وأَقْدامَ  
لا تَزالُ هَناكَ

لذلك، حينَ نمشي، لا تشعُرُ الدروبُ بنا  
وإذا انهمرَ مطرٌ تكونُ في مكانٍ آخر  
تَدْمَعُ عيون  
اعطني سيكارة  
من الدُّخانِ تُولَدُ الآلهة  
تُولَدُ الكنوزُ والسمواتُ والبهاءُ،  
شوقي صديقي  
لكنَّهُ بعدَ قليلٍ سيصيرُ سِكَّةَ حديد  
أريدُ فقط قبلَ ذلك أن أشربَ سيكارةً معه  
كلُّ قطاراتِ سيذني تمرُّ في رأسِهِ عَيْرَ "سيدنهام"  
وهو على وشك أن ينفجرَ اعطني سيكارة،  
وخضرُ الذي رمى بندقيَّتَهُ في الجبالِ ونَزَلَ  
صارَ رسالةً بلا عنوان  
ينقلونَهُ من بريدٍ إلى بريد  
ولا يَصِلُ،  
من الدُّخانِ تُولَدُ الطريقُ  
تُولَدُ العناوينُ و البيوتُ  
وأصحابُها  
من الدُّخانِ يُولَدُ اللهُ هاتِ

سيكارة

سَأُرْسِلُ لَكَ حِينَ أَعُودُ هِضَابًا مِنَ التَّبِغِ عَنْ مَنَاشِرِنَا

سَلَالٍ فَاكِهَةٍ وَبَيْضٍ

مِنَ دَجَاجَاتٍ تُرَبِّبُهَا عَلَى حُبُوبِ أَحْلَامِ

وَتَبْيِضُ كَنُوزًا سَأُرْسِلُ لَكَ بَعْضَهَا أَيْضًا

وَذَاتَ يَوْمٍ اخْتَرَعْنَا

عَرُوقًا لِلصَّمْتِ

مَشِينًا نَشْكُهَا فِي أَجْسَادِ الدَّرُوبِ

مَشِينًا فِي هَوَاءِ قَارِصٍ لِنُبْكَلَ أَرْزَارَ الطُّرُقِ

وَكَانَ لَحْمُ صَدُورِهَا يَرْتَجِفُ

أَمَامَ عَيُونِنَا

رَأَيْنَا تَحْتَ الْجَسُورِ أَحْشَاءَ حَيَاةٍ

وَشَطَايَا عَيُونِ

تَبْحَثُ عَنْ نَظَرَاتِهَا

إِسْمَعْ، رَأَيْنَا الْحَيَاةَ

تَرْتَجِفُ تَحْتَ شَجَرَةٍ

وَهَمَّ بَعْضُنَا أَنْ يَخْلَعَ قَمِيصَهُ

وَيُعْطِيَهَا،

مَشِينًا بِصَدُورٍ عَارِيَةٍ وَكَانَ الْهَوَاءُ

صديقنا  
يأتينا بزهورٍ  
ويلعبُ بشعرنا  
كانَ الهواءُ يحملُ لنا نظراتٍ  
ضِيَعَهَا أصحابُها  
وَهُمْ يَحِدِّقُونَ فِي الشَّفَقِ.

معنا أساورُ معنا شوارعُ معنا ظلال  
معنا هواءٌ و قَصَب  
وفي حقائبنا حفيفُ صُورٍ وضماداتُ حنين  
وعُكَّازاتُ أصواتٍ تركضُ من جبلٍ إلى جبلٍ،  
مَشِينَا  
وكانت ورقةُ لوزٍ أمامَ الباب  
نظرنا إليها  
وتابعنا.

أنيسُ بعينيه الغَيَمَتَيْنِ فوقَ سهلٍ يرتقال  
بعروقِ أصابعِهِ المَاضِيَةِ نَحْوَ أن تصيرَ  
أقلامًا ناشفة  
وبقمحِ أحلام

يَفْقُدُهَا طَيْرٌ عَنِ فَمِهِ،  
وَعَسَّانُ بَعُودٍ عَزَفَ عَلَيْهِ كُلُّ الطَّرِيقِ  
حَتَّى صَارَتِ الشَّوَارِعُ أَوْتَارَهُ.

لم يكن عندنا غيرُ  
رائحةِ تبغٍ وزيتونٍ  
حملناها على ثيابنا ومضينا  
مَشِينًا خَفِيفِينَ  
لنلاً نَزَعَجَ ندى الطريق  
ولم نَحْنِ عُصْنًا  
لم نُوقِظِ النسيمَ  
لم نُودِّعِ الأصدقاءَ لم نُقُلْ كلمةً

فقط

مَشِينًا.

## لحظات مَيِّتة

إخفتي الشعاع فجأةً. أعتقدُ أنّ غيمةً تعبرُ فوقَ البيتِ. أشعُّهُ الشمسِ تخفتي فقط لسببين: إمّا يحجُبُها الغيمُ أو يكونُ الوقتُ ليلاً. وبما أنّ الآنَ صباح، الأرجحُ أنّ غيمةً تعبرُ.

رُبّما قريباً ستمطِرُ. حينئذٍ أستطيعُ من نافذتي أن أتأمّلَ المطرَ. الحياةُ جميلةٌ إلى درجةٍ أنّ الواحدَ يستطيعُ، إذا ساعدتهُ الظروفُ، أن يتأمّلَ المطرَ. بُرجي مائيٌّ، وأظنُّ أنّ كوكبًا في الفضاءِ يذوبُ أحيانًا ويسيلُ هنا أمامي. وهُمّ لطيفٌ حملُهُ وأتقدّمُ إلى النافذة. أفتحُ الزجاجَ وأنظرُ إلى السيّاراتِ والاسفلتِ الجافِّ والعَمالِ المُتعبين. لماذا يتعبُ هؤلاء العَمالُ؟ أنا نفسي كنتُ أتعبُ أحيانًا وينضجُ منّي العرقُ، لكنني كنتُ أندمُ بعدَ ذلكَ واستريحُ سنوات. عرقُ الجباهِ مقيتٌ، لا بل مُخجلٌ. وشيءٌ مقرّرٌ أنّ تنهضَ من النومِ لتعريقِ نفسك. تمرُّ سيّارةٌ وتتركُ وراءها غبارًا خفيفًا. هرةٌ نائمةٌ في الزاويةِ تفتحُ عينيها ثمّ تُغمضُهما. أغلقُ النافذةَ وأعودُ ببطء.

اليومَ أيضًا سأستريح. يمكنني أن أعيشَ كُلَّ شيءٍ بيهاةٍ كُلِّي وأنا  
أجلسُ هنا على الكنبَةِ أو أتمشَى على البلاطِ وأنظرَ إلى الجدران.  
أربعُ أو خمسُ ساعاتٍ من الحياةِ في اليوم تكفي. بعدَ ذلك قد  
أخرجُ، أتمشَى قليلاً في المدينة، ألتقي أصدقاءَ بالصدفةِ، أشتري  
قَبِينَةَ عَرَقٍ وأعود.

قد يحدثُ أيُّ شيءٍ بغتةً. زيارةٌ غريبٍ، موتٌ صديقٍ، شعيرةٌ  
مفاجئةٌ لرجلٍ يمشي في الشارع. هكذا بمحض الصدفة. وحينئذٍ لن  
يتغيَّرَ شيءٌ. قد أخرجُ إلى الشرفةِ، أُلقي نظرةً على حوضِ الزهور  
وأدخلُ من جديد. قد أبتسمُ وقد لا يتبدَّلُ ملمحٌ في وجهي. وجهي  
مستديرٌ وجامدٌ كشيءٍ أخذ شكله نهائياً، وأنفي مُستدِقٌ قليلاً كمنقادٍ  
طيرٍ مقصوص. عيناَيَ سوداوان. وحينَ أفتَحُ فمي يخرجُ منه لهاتٌ  
بسيطة. ربَّما أيضًا كلماتٌ قليلة. قليلةٌ وخافتةٌ حتَّى أنني أحياناً لا  
أسمَعُها أنا نفسي. في الواقع ليس عندي أبداً ما أقوله.

مع ذلك أجدُ نفسي مراراً مُضطرباً للكلام. لا أعرفُ لماذا عليهم أن  
ينتظروا كلاماً في كُلِّ مرَّةٍ يجلسون معي، وبعد ذلك أمرضُ. يُخيَّلُ  
إليَّ أن الحياةَ صديقٌ صامتٌ، وإذا تكَلَّمْتُ يُصابُ أحدٌ بالسرطان.  
أعرفُ صديقاً ماتَ لهذا السبب.

هل الحياةُ مريضةٌ هكذا بسبب الأصوات؟ تمرضُ وتموتُ لأنَّ  
البشرَ يتكلمون؟

بين غرفة النوم وغرفة الجلوس ترتفع يدي لترتّب شعري. مسافة قصيرة، مع ذلك يُخيلُ إليّ أنّ ساحناتٍ سريعةً وأصواتًا غريبةً تقطعُها، ويجبُ فعلُ أيّ شيءٍ للوصول إلى مقعد. أمّرُ يدي على شعري، وهي التي لا تحملُ شيئًا يمكنُها بسهولةٍ أن ترتفعَ إليه. شعري طويلٌ، وككّلَ الذين ينامونَ ينشعثُ في الليل، غيرَ أيّ أمرٍ يدي عليه دائماً ليبقى صديقي. يصبحُ العالمُ أجملَ هكذا، حين يكونُ الشّعْرُ صديقاً. العالمُ قريبٌ من القلبِ مع الأعضاء الصديقة. حين تُحبُّك أعضاءكَ ينقصُ عددُ الأعداء. حتّى أظافرك التي تجمعُ الغبارَ، تكونُ تجمعُ شيئاً محبوباً. أتقدّمُ خطوتين وأصلُ إلى النافذة. لا يزالُ العمالُ أنفسهمُ والأسفلتُ والسياراتُ، والقطعةُ تنامُ في الزاوية. أصواتُ تصلُ إليّ من وراء الزجاج وأشعرُ أنّها أصواتٌ جميلة. حتّى الناسُ يبدونَ رقيقين من بعيد.

ماذا سأفعلُ اليوم؟ ليس في نيّتي فعلُ شيءٍ ولستُ مضطراً لفعل شيء. يمكنني على الأرجح أن أعقدَ صداقةً، من هنا من وراء الزجاج، مع هؤلاء الناسِ في الشارع. لا يزالُ النهارُ في أولِهِ وبضعُ دقائقَ من الصداقة تكفي اليوم. بعد ذلك يجبُ أن أخرجَ إلى الشرفةِ وأسقي الزهورَ، ويجبُ، ربما، أن أتمشّي قليلاً في المدينةِ وأجلبَ قنينةَ عرق.

النافذة مُقْفَلَةٌ وأنا رجلٌ قصيرٌ وراءها، طولُهُ ١٦٥ سنتيمترًا ويعقدُ صداقةً مع شارعٍ طويلٍ. يُمرُّ يدهُ بينَ وقتٍ وآخرٍ على شعرِهِ، وما يسقطُ منه يحملُهُ ببطءٍ ويرميه في القمامة. رجلٌ هادئٌ، حتَّى أَنَّهُ بينَ غرفةِ النومِ والمطبخِ يتوقَّفُ مرارًا ليسهوَ أو ليستريح. يلفُّ سيكارتَهُ على مهلٍ، يشيلُ التبغَ الزائدَ من طرفيها، ينظرُ إلى الولاةِ لحظةً، ثمَّ يخفضُ رأسَهُ ويُشعلُها.

العمارةُ أمامي أصبحت في طبقتها السابعة. عاملٌ هنديٌّ فوقُ يبدو لي كملكٍ. الناسُ أيضًا يُشبهونَ الملائكةَ من بعيد، لا سيَّما المهاجرون. لا أعرفُ لماذا لا يُمكنني تحيُّلُ هجرةٍ من دونِ ملاك، خصوصًا هجرةَ العُمال. الذين يحملونَ أمتعتَهُم ويمشون. وأحيانًا يتوقَّفونَ على بُعدِ خطواتٍ من الباب، يلقونَ سيكارتَهُ، ويعودون إلى بيوتِهِم.

أمرُّ إصبعي على البخارِ العالقِ على الزجاجِ من فمي وأترجعُ خطوةً. أنظرُ إلى الكنبَةِ على يميني. لا تزالُ ذاتها. الأصدقاءُ الذين كانوا يزورونني جلسوا عليها. اليومَ أنا وحدي وبُمكنني أن أكونَ جمهورها الوحيد. بيني وبينها صداقةٌ قديمة، مُدَّ لمحتها في زاويةِ صالةِ العرْضِ وقلْتُ للبائعِ لا أستطيعُ أن أدفعَ أكثرَ، فحملها بلُطفٍ وجاءَ بها إليَّ. لا تزالُ هنا في مكانها. ربُّما انزاحت قليلاً حين ارتمى عليها الأصدقاء، لكنَّها في المكانِ ذاتهٍ تقريبًا،

وصديقتي مع هؤلاء العُمال، ومع هذا الخطِّ المُبهم الذي رَسَمتهُ  
يدي على بُخارِ الزجاج.  
أقتربُ وأرسمُ خطأً آخرَ: خطُّ آخرُ صديقٍ آخرُ... أنظرُ إليه،  
وأرتمي على المقعد.

على رُجاجِ نافذتي أصدقاء، لكنَّهُم يتموهونَ بسرعةٍ كَمَنْ يركضُ  
في الضباب، ثم يتلاشون. أرفعُ قدمي. أضعُها على الأريكةِ  
أمامي، وأتأملُ أصابعها المُلتوية. تبدو كشجرةِ صنوبرٍ ضربتُها  
الريخُ سنواتٍ، حتَّى تبيَّستْ مُحدودةً. جمودُها الآنَ وصممتُها  
يذكرُني بعمرٍ طويلٍ من الركضِ والصخبِ وراءَ مجهولٍ مُخيف.  
كانت رفيقتي الوحيدة. ولم أكافئها بشيءٍ غيرَ أن أحملها في آخرِ  
الليلِ وأضعها كيفما كانَ في الفراشِ، وغالبًا ما حرمتُها من هذه  
اللذةِ البائسة. قدَّم غريبةً الإخلاصِ، إلى درجةٍ أنَّها لم تفارقني ولا  
يوم. أعرفُ أقدامًا كثيرةً ملَّتْ وغادرتْ أصحابها. انقطعتْ عنهم  
بحجةِ المرضِ، أو انفصلتْ فجأةً على الطريق. كانت تلكَ الأقدامُ  
تستريح، سوى قدمي ظلَّتْ وفيَّةً ومُنهكةً. وهي المُتبيِّسةُ تقريبًا الآنَ،  
لا تزالُ معي، وهذه علامةٌ من علاماتِ القداسة.  
أمرُّ يدي على هذه القدمِ وأدغدغُ وبرها الناعم. أربتُ عليها  
وألطفُها وأتأملُها طويلاً. لم أكن صديقها في أيِّ يومٍ. كنتُ دائماً  
مُستعجلاً وكثيرَ الازدراء. الآنَ كأنني أشعرُ بها لأولِ مرَّة. ماذا

يفعلُ واحدٌ حين يكتشفُ فجأةً أنَّ عاشقتهُ تبعتهُ أربعينَ عامًا دونَ أن يدرى؟ وقفتُ، مشيتُ برفقٍ على قدميَّ، وجلبتُ تبغي.

في تلكَ القريةِ البعيدةِ، على أرضِ بيتٍ من تُرابٍ، مشيتُ أولى خطواتي وكانت قدمايَ حافيتَيْنِ. لم يكن أبي من المؤمنين بأنَّ على الواصلينَ لتوهِّمِ إلى الأرضِ أن يتعرَّفوا إليها بلحمهم، لكنَّهُ كانَ عاجزًا عن شراءِ حذاء. كنتُ أعرِفُ أنَّ الأحذيةَ التي أرديها هي أحذيةُ إخوتي، بعدما لُمعتُ وأضيفتُ إليها مسامير. كنتُ أبتسمُ، لكنني لم أكن سعيدًا. أعتقدُ أنَّ هناكَ شرطًا للسعادة: أن يكونَ الحذاءُ الذي ترتديهَ جديدًا. لا أعرِفُ أناسًا سعداءَ بأحذيةٍ عتيقة. كيفَ يمكنُ أن يفرحَ واحدٌ وحذاؤه قديمٌ؟ هناكَ مثلًا ناسٌ يشيخونَ باكراً بسببِ أحذيتهم. وناسٌ يموتونَ بسببِ أحذيتهم. ولا شكَّ أنَّ في التاريخِ شعوبًا انقرضتْ أو أُبيدتْ بسببِ أحذيتها أيضًا. وأنا لا أستطيعُ أن أنكرَ أنَّ أحذيةَ إخوتي كان لها تأثيرٌ كبيرٌ في حياتي: في حزني الباكرِ، وحزني اليومَ، وخجلي، وضعفي، وفشلي في الحبِّ والحياة. ولا شكَّ كانت سببًا في هجري المدرسة، وتشردِّي، ونومي على الطرقات. حتَّى في نحولِ جسدي وتوقُّفِ نُموِّ طولي، وفي جلوسي الآنَ وحيدًا في هذه الغرفةِ التي غابَ عنها الشعاعُ، بسببِ غيمةٍ على الأرجح، غيمةٍ قد تُمطرُ، وحينئذٍ أستطيعُ أن أقفَ على النافذةِ وأتأمَّلَ المطرَ.

مُدُّ سَكَنتُ هذه الغرفة لم يدخل شعاعٌ إلاَّ ومَرَّرتُ يدي عليه. كانت لكلِّ تلك الأشعة أجساداً ناعمةً ونحيلةً، لكنني كنتُ أعرفُ كلَّ شعاعٍ من ملمسِهِ. مرَّةً كانَ ضوءَ سفينةٍ في الميناءِ المقابلِ، وحينَ اختفى شعرتُ بوحدةٍ غريبة. هل لأنها سفينةٌ فيها مهاجرون؟ ناسٌ يرحلونَ إلى بلادٍ بعيدةٍ، يجلسونَ على المقاعدِ الخلفيةِ أو يصعدونَ إلى السطحِ ليُرسلوا آخرَ نظرةٍ إلى البيوتِ؟ ناسٌ كَنَسُوا البيتَ وسَقَوْا الحوضَ، ثمَّ انتزعوا عشبَةً من شقِّ قَرَبِ البابِ ورحلوا؟

أشعلتُ سيكارةً ولَهَوْتُ بِدُخَانِهَا، كُلُّ شَيْءٍ هَادِيٌّ، حَتَّى الهَرَّةُ الصغيرةُ في زاويةِ الشارعِ لا تنظرُ إليَّ. كُلُّ شَيْءٍ هَادِيٌّ في هذه الغرفةِ منذُ سنواتٍ، وبتُّ أعتقدُ نفسي جِدَارًا وإذا خرجتُ ستهبطُ. أحياناً أفكِّرُ أَنَّ حديدَ الغرفةِ من عظامي. لكنَّ عظامي رقيقةٌ وهشَّةٌ و لا رَيَّبَ أَنَّ هذا الجسدَ محمولٌ بدعائمٍ أخرى. كيفَ مَشَّتْ معي هذه العظامُ سنواتٍ دونَ أَنْ أسمعَ أزيزها أو أرى انهيارها المفاجئَ على الطُرقاتِ؟ غيرَ آتِيٍّ وحيدٌ تمامًا، ولذلك يَخْفُ زني.

لماذا أتذكَّرُ أبي الآنَ؟ كنتُ طفلًا حينَ أوصلتُهُ إلى القبرِ. لكنَّهُم كانوا ينظرونَ إليَّ وكان من اللياقةِ أَنْ أشيخَ أمامهم. هؤلاء الذين اعتقدتُ أَنَّهُم يُحبُّونني لم يفعلوا شيئًا من أجلي. لم يقولوا لي أن

أذهب وألعب مع الأولاد. ظلُّوا يحدِّقون بي حتَّى طالت قامتي  
وحَمَلْتُ معهم الجثمانَ إلى القبر. كان مُقْفَلًا بمسامير. أليس أكثر  
لُطْفًا أَنْ يردُّوا الغطاءَ على الموتى بهدوءٍ كلحافٍ ناعمٍ اعتادوه في  
بيوتهم؟

علبة التبغ على الطاولة أمامي ويكفي أَنْ أُحرِّكَ يدي قليلاً. لكن  
يُخَيِّلُ إِلَيَّ أَنَّهَا يَدٌ فرغت من الدم، وإذ تتحرَّك أحياناً فبزخم حركةٍ  
قديمة. العَمَّالُ أمامي لا يكفُّونَ عن الحركةِ بخفَّةٍ من تأكَّد له أَنَّهُ  
يسنأثرُ بدم الحياة. حاولتُ أَنْ أفنِّعَ نفسي بأنَّ الأعضاء المتحرِّكة  
شيءٌ جميل، وأنَّ للرجلِ عادةً عروفاً صغيرةً يجري فيها دمٌ نقيٌّ.  
لكنَّهُ شيءٌ مقبوتٌ أَنْ تكونَ مثلَ آلهِ ضَحِّحٍ، هكذا مع سائلٍ رتيبٍ كُلِّ  
العمر، كمن ليسَ عندهُ شيءٌ ليفعلهُ.

أنظرُ إلى أثاثِ الغرفةِ من غيرِ أَنْ أتحركَ من مكاني. نظرةٌ صغيرةٌ  
قد تجعلُ هذا الأثاثَ صديقي. لا أعرفُ لماذا أهجسُ اليومَ  
بالأصدقاء. كانوا يجلسونَ هنا، على الكنبَةِ، وينظرونَ إلى  
الحيطان. نظراتُهُمْ لا تزالُ عالقةً على الطِّلاء، ويُخَيِّلُ إِلَيَّ أَنِّي أرى  
وجوهَهُمْ كذلك، كأنَّهُمْ حينَ رحلوا تركوا نظراتِهِمْ، وأرسلوا وجوهَهُمْ  
لنتفقِّدَها فعلقَتْ هي أيضاً على الحيطان.

عَرَفْتُ فِي حَيَاتِي نَاسًا رَحَلُوا وَبَقِيَتْ عَيُونُهُمْ سِنَوَاتٍ جَالِسَةً بِهَدْوٍ فِي آخِرِ مَكَانٍ نَظَرُوا إِلَيْهِ. عَرَفْتُ نَاسًا تَعَامَلُوا مَعَ أَعْضَائِهِمْ مِثْلَ جَمَهْرَةِ التَّقَاتِ مُصَادِفَةً فِي احْتِقَالٍ، ثُمَّ ذَهَبَ كُلُّ وَاحِدٍ فِي طَرِيقٍ. عَلَى الْأَدْرَاجِ وَفِي الشُّوَارِعِ وَالسَّاحَاتِ تَتَوَرَّعُ أَعْضَاءٌ كَثِيرَةٌ، كَانَتْ تَجْلِسُ يَوْمًا مَعَ أَصْحَابِهَا ثُمَّ كَبُرَتْ وَغَادَرْتُهُمْ. رَأَيْتُ أَعْضَاءً ضَائِعَةً وَأَعْضَاءً غَافِيَةً وَأَعْضَاءً تَبْتَسِمُ. بَعْضُهَا كَأَنَّهَا وُلِدَتْ لِلتَّوْبِ وَبَعْضُهَا يَمُوتُ. التَّقِيْتُ عَيُونًا تَسْهَرُ مِنْ دُونِ أَصْحَابِهَا وَأَرْجُلًا تَمْشِي وَحْدَهَا عَلَى الطَّرِيقَاتِ وَشِفَاهَا تَتَكَلَّمُ وَحْدَهَا مَعَ الْعَابِرِينَ. التَّقِيْتُ كَلِمَاتٍ وَأَنْفَاسًا وَنَظَرَاتٍ غَادَرَتْ أَصْحَابَهَا وَتَحَوَّلَتْ كَانِتَاتٍ جَدِيدَةٍ.

إِنِّي مَعَ هَذِهِ الْكَانِتَاتِ جَالِسٌ الْآنَ. مَعَ أَشْيَاءٍ انْسَحَبَتْ مِنْ مَاضِيهَا وَبَدَأَتْ حَيَاتَهَا الْخَاصَّةَ، وَأَشْعُرُ كَأَنَّ أَعْضَائِي عَلَى وَشَكِّ الْانْسِحَابِ مَنِي لَتَبْدَأُ هِيَ أَيْضًا حَيَاتَهَا. فِي أَيَّةِ حَالٍ، لَمْ أَنْظُرْ يَوْمًا إِلَى أَعْضَائِي كَشَيْءٍ لَصِيقٍ بِي بَلْ كَانَتْ دَائِمًا تَتَمَتَّعُ بِاسْتِقْلَالِهَا. يَخْرُجُ بَعْضُهَا مَنِي وَأَنَا نَائِمٌ لِيَجْلِسَ عَلَى الشَّرْفَةِ. يَخْرُجُ بَعْضُهَا وَيَتَمَشَّى فِي الشَّارِعِ. وَمَرَّاتٍ، حِينَ اسْتَيْقِظُ فِي الصَّبَاحِ، أَقْضِي نَهَارِي فِي الْبَحْثِ عَنْ عَضْوٍ مَفْقُودٍ، وَأَحْيَانًا لَا أَجِدُهُ.

تَتَحَرَّكُ يَدِي وَتَكْبِسُ زِرَّ الرَّادِيُو. الْخَارِجُ لَا يَزَالُ نَفْسَهُ: الْحَرْبُ. إِنِّي مَحَاطٌ بِقَتْلِ فُطَيْعٍ. سِنَوَاتٌ مَلِيئَةٌ بِالْجَنِّثِ وَلَا أَعْرِفُ كَيْفَ لَا أَزَالُ

هنا، بين الجدران، جسداً سوياً. ناسٌ كثيرون يمشون الآن في الخارج بأعضاءٍ ناقصةٍ، باحثين ليس عن أعضائهم المفقودة لأنَّهم على الأرجح نسوها، بل عن لقمة خبز. وناسٌ كثيرون لم يعودوا بحاجةٍ إلى تلك الأعضاء لأنَّهم تناثروا معها في أمكنةٍ لا يعرفونها هم ولا أحبَّاءهم.

انتشروا في أكثر من مكانٍ، نثرةً نثرةً، مُتَّجدين بالغبار الذي لا يرى وبإسمنتِ البناياتِ والنسيانِ الرهيب... أتلمَّسُ أعضائي عضواً عضواً. إنَّني، في الواقع، لا أزالُ جسداً كاملاً، وما حَسِبْتُ أنَّي فقدتُهُ مع الأيامِ لم أفقدهُ إلا في الأحلام.

حينَ بدأتِ الحربُ لم أكن أسكنُ هنا. كنتُ في الشمال. في قريةٍ على الساحلِ أعملُ في معملٍ للسماد، وأعودُ في المساء بينَ شجرِ الليمونِ إلى البيت.

تلكَ القريةُ على التلَّةِ الصغيرةِ كانت تبدو لي مثلَ نورسٍ على وشكِ أن يحطَّ في الماءِ ويعدُّل. سطوحها القرميدُ لم تكن تجدُ وقتاً للتحدُّثِ إلى أصحابها من كثرةِ ما هي مأخوذةٌ بالبحرِ والسماء. أحجارُ الجدرانِ وأشجارُ الحدائقِ استأثرتْ وحدها بالنظراتِ والأصابعِ المدلَّلة. أعتقدُ أنَّ الشجرَ كانَ ينمو ويثمرُ، هناك، بفعلِ نظراتهم، والمطرُ ينزلُ استجابةً لهم. كنتُ أراهم يحدِّقونَ في السماءِ ويعرفونَ نوايا الغيوم. والرياحُ تمرُّ بهم أليفةً وواضحةً كأنَّهم

أصدقاؤها. كأنَّهم كانوا ذاتَ يومٍ مع الرياحِ رفاقَ طريقٍ، وتبادلوا على الدربِ أسرارَ حياتهم.

صوتُ المذيعه يُنقلُ أسماءَ قتلى وجرحى. إنَّهم يحصدونَ بعضهم في الشمال، ويحصدونَ بعضهم في الجنوب، ويحصدونَ بعضهم في الجبال، ويحصدونَ بعضهم في المُن. قبلَ أيَّامِ كانوا رفاقاً. زاروا بعضهم بعضاً وشربوا القهوةَ وتواعدوا للقاءِ الأحدِ المقبلِ وفجأةً يتلاقونَ مدجَّجينَ بالسلاح. يتقابلونَ أعداءَ وجُنثًا. المذيعه تنقلُ أسماءَ جنثهم، وتُنهي بأغنية.

إني مُحاطٌ بجدرانٍ تقيني منظرَ الخارج. أخبروني أنَّ ناسًا هناك ماتوا سحلاً على الطُّرقاتِ. ربطوهم بسيَّاراتٍ وجرَّوهم في الشوارعِ وسطَ بكاءٍ نساءٍ وزغاريدِ أخريات، ثُمَّ رَمَوْهُم تحتَ الجسرِ بعدَ أن تركوا خيطَ دمٍ منهم على الأسفلت. أخبروني أنَّ موتًا كثيرًا وبكاءً كثيرًا جرى على الطُّرقاتِ، حتَّى تفتَحَ الأسفلتُ عن زهورٍ بشريةٍ يستطيعُ كُلُّ العابرينَ أن يروها، لكنَّ المفجوعينَ وحدَهُم يشمونَ فيها رائحةَ الزهور.

أشُم أحياناً مثلَ هذه الرائحةِ. هؤلاءِ الذينَ غادروني من دونَ أن يطلبوا دمعَةً أو كلمةَ وداع. الذينَ انسحبوا بخفّةٍ من حياتي، كأنّ ورقةً صغيرةً سقطت في الماء.

كنتُ طفلاً حينَ كانَ أبي يُحدِّثني عن الحروب. أخبرني عن ضحايا رصاصٍ وضحايا جوعٍ وضحايا مَرَض. عن موتى لم يجدوا أحبّاءً لدفنهم، وعن مُشرّدي جوعٍ يجوبونَ القرى والمدنَ ولا يحظّونَ بلقمةٍ. قال لي إنّه كانَ واحداً منهم، ووجدَ نفسه في عُمرِ الخامسةِ متسوِّلاً خائباً من بيتٍ إلى بيتٍ، وباحثاً في الغاباتِ عن عظمةٍ يطحنها بالحجرِ ليستطيعَ التهامها. كانَ أبي يخبرني عن الحروب. و لم أكنَ افعلُ غيرَ أن انظرَ إليه.

الساعةُ العاشرةُ والنصفُ تقريباً. أطفئُ الراديو وألقي نظرةً إلى الخارج. الشارعُ نفسه والعُمالُ أنفسهمُ وبضعُ غيوم. أظنّها ستُمطِر. طالَ انحباسُ المطرِ ولا شكَّ في القريةِ الشماليّةِ، هناك، ينتظرونَ هطولَهُ. لكنّ، كمَ بقيَ منهم هؤلاءِ الذينَ أخذوا أسرارَ الرياحِ وكانوا يعرفونَ نوايا الغيوم؟ عشراتُ الآلافِ هاجروا مُدُّ بدأتْ تلكَ المذيعَةُ تنقلُ أسماءَ الجثث. ولا ريبَ آلافٌ من الذينَ كانت أصابعهم تُدلُّ الأشجارَ لمسوا جلدَ الحقائقِ لأوّلِ مرّةٍ وحملوها بحسرةٍ إلى بلدانٍ قاسيةٍ ومجهولة. وضعوا فيها صُورَهُم مُبتَسِمِينَ بجانبِ البابِ وقُربِ

حوضِ الحَبِيقِ، وحمَلوها بعضَ أنفاسِ الغُرْفِ، وأرسلوا نظرةً أخيرةً  
ومَضَوْا.

أخبروني أنّ ناسًا لم يجدوا الوقتَ لارتداءِ أحذيتهم قبلَ الرحيلِ.  
وصلوا حُفَاةً وعرَاةً إلى مُدُنٍ وقرىٍّ وصادفُوا العراءَ للنومِ معه. قالوا  
إنَّ الموتَ وصلَ فجأةً وهم نيام، وإنَّ الموتَ وصلَ فجأةً بثيابِ  
أصدقاء، وإنَّ الموتَ وصلَ فجأةً من سماءٍ كانت قبلَ يومٍ تمطرُ  
عليهم وعلى حقولهم. وقالوا إنّ ناسًا كثيرين سقطوا بعدَ خطوةٍ،  
وناسًا كثيرين سقطوا من دونِ خطوةٍ، ودروبًا كثيرةً لا تزالُ تسمعُ  
أنيبًا هناك، وأمّهاتٍ نسينَ أطفالهنَّ على الأسيِّرة من شدَّةِ الرعبِ  
ورحلنَ بدونهم.

أظنُّها ستمَطِرُ. الغيومُ تأتي من بعيد. على الأرجح من سماءِ بلدانٍ  
فيها مهاجرون، وربّما سنَدْرِفُ هنا بعضَ دموعهم. تلبُّدُها يشبهُ  
أنفاسَ المهاجرين، وفي تباطؤها فوقَ البيوتِ شيءٌ من أشواقهم.  
أظنُّها ستمَطِرُ.

حينَ كُنَّا صغارًا كانَ المطرُ لعبتِنَا المفضَّلة. أبي، الفلاحُ الفقيرُ، لم  
يكن معه ثمنُ ألعابٍ، فكُنَّا نلعبُ بأغراضِ الطبيعة. الماءُ والتلجُ

والفراشات والغصون كانت أغراضنا. ولم تكن بين الأرض و بيننا  
قسمة.

لم أكن أعرف لماذا كان أبي ينهزني عن عدّ النجوم. الآن أعرف  
أنّ ذلك كان خوفاً من غياب أحد رفاقي. كان يعلم أن ليس كل  
الرفاق دائماً سيحضرون، وأنّ عدداً كبيراً منهم لا بدّ يوماً سيغيب،  
وأنتي سأنام، في تلك الخيمة العالية المفتوحة للعراء، مرّات عديدة  
من دون رفيق. كان أبي بالتأكيد يعرف أعماق مشاعري، ويحبّني  
فوق النّصوّر.

حين افترقنا، كان ذلك قُرب شاطئ. بيتنا الذي استأجرناه مَعَمَّر  
فوق قناطر، على صخرٍ بحريّ، والبحرُ كان واحداً من أهل البيت.  
أبي ظلّ فوق، في الضيّعة، مع بيته وشجره، ومع سلّمه الخشبيّ  
يقعدُ على درجته السفلى كلّ مساءً، مُنْتَظِراً بوسطه القرية الآتية من  
المدينة علّها تقفُ على المفرق وينزلُ منها أحدُ أولاده. لكنّ ذلك  
السلّم ظلّ، لسنواتٍ، لا يرى غير رجلٍ منتظرٍ، ودخانٍ سيكاره.  
حين ودّعته لآخر مرّة، كان ذلك على الشاطئ. ثمّ تصاعدَ من  
بيتنا دخانٌ كثيفٌ. و الدخانُ كانت له رائحةٌ لحمٍ محروق.  
وصارَ أبي هيكلاً عظيماً أسود... صعدتُ و ألقيتُ نظرةً أخيرةً  
على فحمه، ومضيتُ حاملاً وحدي حطبَ الحياة.

حطب الحياة؟ لا، أعتقد أنني كنتُ أحمَلُ براعمَ أيضًا. وكنتُ، أنا و بعضُ الأصدقاء، نظنُّ أنَّ شجرةً وارفَةً ستخرجُ من تلكِ البراعمِ وتظللُّ مكانًا جميلًا. كان لنا أهلٌ آخرون: الأحلام. وفي حين كُنَّا نمشي مع أحلامنا، كانَ هناك، في مكانٍ خفيٍّ، من يصطادُها، وكانت هي تسقطُ، مثلَ أهلنا جميعًا.

كان مصنعُ الأسمدةِ يضحُّ في ذلكِ الوقتِ سماءًا من المفترض أن يحمله الفلاحونَ ويرشونهُ على حقولِ الزيتون. وكانت الأشجارُ، ككلِّ سنةٍ، تنتظرُ غذاءها، وغصونها مائلةٌ نحو البيوتِ تترقبُ وصولَ أصحابها. لكن فيما كان أملُ المواسمِ ينزلُ حبةً حبةً في الإهراءاتِ، كانتِ الحقولُ تُهجرُ حقلًا حقلًا، والأشجارُ تسقطُ مع سقوطِ أصحابها في الهجرانِ وفي الحربِ وفي الموت. تمدُّ رؤوسها نحوَ بيوتِ حضنتها مُدًّا كانت صغيرةً، وتنحني رويدًا رويدًا ، وتبيسُ.

في تلكِ الحقولِ كانَ ثمةَ نبضٍ آخرُ يجري في عروقِ النَّباتِ، نبضٌ بشريٌّ جنبًا إلى جنبٍ مع النَّسغِ وروحِ الشمسِ والترابِ. حتَّى العشبُ والأشواكُ كانَ بينها وبين الناسِ تفاهمٌ، حينَ ينظرُ أحدهمُ إلى السماءِ ترتفعُ معه عيونُ نبتةٍ. وعلى الأرجحِ كانتِ الأشجارُ تنامُ حينَ يغمضُ الناسُ عيونهم. وزهرةُ اللزَّانِ، الوحيدةُ

في البراري، سعادتها تأتي من لمس أيديهم. كانت حياتهم تعني  
فرح نبتة وشبَع خروف، وتختلط حالاتهم بحالات أرزاقهم، تتكرر  
ولاداتهم مع ولادات المواشي وانعقاد الزهر وتُمَو الحَصار، واللبن  
والنعناع بعض من أجسادهم.

كان مصنعُ السمادِ يضخُّ حبوبًا كأنه يضحُّ ذكري من الماضي.  
وكان هناك شجرٌ يجوعُ، وشجرٌ يبئسُ، وشجرٌ يحرقُ، وشجرٌ  
يُدبِّحُ، وشجرٌ يقاومُ منتظرًا ناسًا لا يستطيعون الوصولَ، وناسًا  
سقطوا على الطريق، وناسًا رحلوا إلى بلدانٍ بعيدة.

على بؤابة المصنعِ عُشبةٌ تكبرُ يومًا بعد يوم، كأنها تتمتعٌ وحدها  
بحياة السماد. وكانت تلك العُشبةُ آخرَ ما نظرتُ إليه وأنا أغادر.  
ولكن لماذا أتذكرُ تلك اللحظاتِ من أيّامٍ تبدو لي صدنةً مثل  
لافتة طريقٍ مدروزةٍ بالرصاص؟ إنني هنا الآن، في هذه الغرفةِ  
الصغيرةِ على كنيةٍ. وما عدا ذلك نوعٌ من أنواع الوهم. الماضي؟  
كمن يحاولُ إيقافَ عابرينَ بالوطءِ على ظلالهم.

النافذةُ نفسها، العمالُ أنفسهم، وبعضُ غيوم. لا شيءٌ تغيرَ منذُ  
الصباح، فقط عقاربُ الساعةِ تقدّمتْ بضعَ دقائق. أتمشى قليلاً  
في الغرفةِ. أقتربُ من المرأةِ. أمشيّ شعري. اسحبُ من المشطِ  
شعرتينِ وألقيهما في القمامة.

أظافري طويلةً وكانَ يجبَ أنَ أفصَّها. كانَ يجبُ أنَ أفعلَ شيئاً  
مُفيداً. أينَ الشعاع؟ قبلَ قليلٍ كانَ يتقدَّمُ نحوي ويكادُ يلمسُ  
جسدي. نظرتُ بشوقٍ إلى حَبْوه، إلى طفولتِه الأولى في بيتي.  
أنظرُ من النافذة. في السماءِ غيومٌ. أظنُّها ستُمطِرُ.



# 6

محاولة وصل ضفتين بصوت  
( 1997 )



وعاءٌ في يديّ

ينتظر

حين تمطر السماء

أظنُّ يخرج الموتى

ليشربوا.

## أعشاش عالية

الذين أَلْفَنَاهُمْ شَجَرًا بَاسِقًا  
صَارُوا قَشًّا حِينَ حَزَنُوا

وَنَزَلَتِ الْعَصَافِيرُ وَرَفَعْتَهُمْ  
بِمَنَاقِيدِهَا .

## فيوم

الذين جرفتهم المياه إلى الوادي  
ارتفعوا غيومًا،  
لم يمطروا  
وقفوا فوق  
نظروا إلى الأرض  
وتبددوا.

## أقدام

هناك أيضاً  
موتى تفجروا  
ونزلوا أشعةً بيضاء على أشجارهم

حدث ذلك فجأةً يومَ كانوا نائمين  
مطمئنين في ترابهم،  
يوم فتحوا عيونهم ورأوا  
أشياءً غريبةً تمشي في حقولهم  
على قدمين مثل ناس  
من عصور غابرة

يومَ فتحوا عيونهم  
وأخرجوها من الظلام  
وتفجروا.

## إرث الموتى

طلعوا من تحت التراب  
وعادوا

فقط ليرسموا ابتسامة  
نسوا أن يتركوها لنا.

## فضاء

عَلَّتْ يَدَاهُ رَاسْمَتَيْنِ  
قَمَرًا مَشْطُورًا:  
لَمْ يَكْمَلْ دَائِرَتَهُ  
تَرَكَ فَرَاغًا فَوْقَ  
لِيَنْفِذَ مِنْهُ الْقَلْبَ  
إِلَى فِضَائِهِ.

## تكوين

بالفضاء النحيل الباقي بين يديه  
حاول أن يعيد كوناً،  
رسمَ بدمعة نجمة  
بنظرة قمرًا  
شمسًا بلمسة

وحين أغمض عينه مشى الناس  
إلى أعمالهم  
على رصيف جفنه.

## بَلَل

رَحَلَ هَا زُنًا  
كَمَن يَتَبَلَّلُ فِي شَتَاءِ  
وَيَخْلَعُ نَفْسَهُ  
عَوْضَ أَنْ يَخْلَعَ قَمِيصَهُ.

## أحلامٌ أخرى

أعطيَ روحُه أن يبقى أربعين يوماً فوق جسده  
كي يحقّق في فضائه الأخير  
أحلاماً خابت على أرضه

لكنه  
رُفِرَ لحظةً  
ومضى.

## ظِل

نسمتُهُ الأَخيرة  
جَرَتْ وراءه على الدَّج  
ونامت معه قرب عَشبة  
بين حَجْرين

وغيمةٌ عابرة  
تركت ظلاً خفيفاً  
على وجهه.

## حديقة

قتلوه مرّات عديدة  
حتى توزّع  
جنثاً.

لم يكن يحصي شواهده  
كان فقط يتنزّه  
في حديقته الخلفية.

## نزهة ذاك اليوم

يومَ غَادَرَ ظَلَّتْ على قفل الباب أصابعُ يديه  
على الرصيفِ قدماه  
فوق الإسفلت طبقة من جلده.

هل هذه نزهة أم موت؟  
سألوا،

وحين رفع ذراعيه قالوا  
يريد الطيران  
لكنه كان يلوّح  
لوجهه.

## جنازة إهية

اليد التي أخذت طفلها إلى القبر  
عروفتها أمطرت  
عمياناً على الحجر

وعينان فوق  
ررفتاً قليلاً  
وانضمتا إلى الماء.

## الحياة هناك

دفنتُ طفلها هناك وانتظرت سنوات  
لتنام قربه  
وحين وضعوها في ذاك التراب  
صار عمرها يوماً  
وكان هو صار  
عجوزاً.

## زهور

وضعتُ زهرةً في وسط الدار  
وزهرةً في الزاوية  
وأخريات على الجدران  
في الممشى في غرفة الطعام في المطبخ في غرف النوم

وذات يوم على السرير  
نبتت زهرة غريبة  
لها عيانان مغمضتان  
وفمٌ نصف مفتوح  
ينتظر قطرة.

## زهرة سرية

قبل أن يأخذها النوم  
إلى ساحاته الصامتة  
قلمت اظافرها  
ورمت نثراتها في حوض الزهور

وفي الصباح  
نبتت في الحوض  
يدٌ صغيرة.

## مكانهم

ليس للنسيان محطات على هذه الطريق  
اليد التي لمست عابرين منذ أجيال  
تلمسهم الآن مرةً أخرى  
وغبائرهم ينزل من جديد  
تحت أقدامهم.

كانوا يريدون فارساً وجاء  
عبرَ سريعاً تاركاً  
نسيماً على قمصانهم،  
من ظلّه سقط شيء على الطريق  
ومذاك  
يدور الماشون في مكانهم على الإسفلت  
والجالسون مسمرّون  
في مقاعدهم.

## بلاد

أخذت اسمها من الماء  
وسالت  
والزبدُ الذي رأيناه على الموج  
كان ناسها  
والعشبُ على الكتبان  
ضلوَعهم

بلادٌ  
كلُّ رجالها يغادرون  
لذلك كانت نساؤها يقترنُ  
بالأشجار.

## انتظار

سحبنا ظلالنا عن الطرقات  
ونصبنا كماننا:

الآن ننتظر  
كي نصطاد رؤى  
تصعد لتصطاف في الأرواح.

## الطريق

سَلَّمْتَنَا المِيَاهُ أَسْرَارَهَا أَحْيِرًا  
لَكُنَّا كُنَّا عَلَى حَافَةِ الشَّلَالِ  
فَانحَدَرْنَا رِذَاءًا  
مَرْسَلِينَ لِلنَّبَاتَاتِ نَعُومَةَ سَقُوطِنَا

كُنَّا فِي الحَقْلِ  
نَكْمُنُ لِعَصَافِيرِ تَطِيرِ وَتَحَطُّ  
فِي غَابَاتِ رُؤُوسِنَا  
وَحِينَ رَفَعْنَا الغَيُومَ كُنَّا أَطْلَقْنَا رِصَاصَاتِنَا  
فَأُصْبِنَا  
وَانحَدَرْنَا  
نِقَاطًا

كُنَّا تَقْرِبًا نَغْنَى

نصلي دَبِقَ أصواتنا ربما تعلقُ  
رقصاتٌ عليها  
ربما غابرون مقيمون في الهواء يأتون  
وبرافقوننا .

أخذنا سرَّ الماء  
سقوطه  
نثارَ مراهيه  
حيث كانت تعبر مسرعةً  
كسورُ بيوتنا  
رأينا أيضًا دروبًا كالأمعاء  
يمرُّ فيها الناس كالفاكهة  
وحينَ وصلنا  
كنا فقدنا الرؤية  
وسمعنا تنفُّس العشب  
في أجسادنا .

## رغبة

كانت فقط مجرد رغبة  
أن نحمل مظلاتنا ونبتسم تحت المطر  
أن نلعب قليلاً في الشوارع  
ونترك على الرصيف نثاراً  
من زجاجة العالم.

## إعادة الإرث

الآن  
نعيد صمتنا وأصواتنا  
إلى مكانها الأول  
حيث لا يسمع أحدٌ  
حتى لهائته.

## استعادة شخص ذائب

هذه البحيرة ليست ماء. كانت شخصًا تحدثتُ إليه طويلًا، ثم ذاب! ولا أحاول الآن النظرَ إلى ماء بل استعادة شخص ذائب. كيف يصير الناس هكذا بحيرات، يعلوها ورق الشجر والطحلب؟! قطرةً قطرةً ينزل الموتى على بابي ومركبٌ يتوقف من أجلي تحت الشمس وجالية فقيرة من الرعشات تعود إلى الرمل. لم أرتجف. لكني جُننت. الماء بارد لكني لم أرتجف. فقط ارتعشتُ قليلاً. ثم جُننت. على سطح البحيرة ورقة، كانت عينًا. على الضقة غصن، كان ضلعًا بشريًا.

أحاول الآن جَمْع الأوراق والغصون. أحاول جمع شخص كنت أحبُّه.

لكن مرَّ كثيرون من هنا، جمعوا ورقًا وحبطًا ليشعلوا مواقدهم. لن يتمَّ أبدًا جَمْعُ شخص. لن يتمَّ جمع أعضاء كاملة. كثير منها احترق.

مع ذلك لا بدَّ من أن أعيد شخصًا كنت أحبُّه. على الأحياء أن يعودوا إذا ناديتهم. عليهم أن يعودوا ولو كانوا ماء. لو كانوا أمواتًا. لو كانوا طحلبًا... على الطحلب أن يصير إنسانًا حين تستدعيه. ويأتي لو مبللًا، لو مترهلًا، لو عفاً. عليه أن يعود صديقًا ولو مات منذ ألف عام.

يجب أن تكون هناك طريقة ما لجمع الناس عن الضفاف. طريقة لإعادة الأوراق والأغصان الطافية على البحيرات، بشرًا. لم أرتجف. الأعضاء ارتجفت. وكان عليَّ أن أسدَّ الفراغ بين مفاصلها كي أوقف ارتجافاتها وتهدأ. ولكن، كم طويلة المسافة بين مفصلين! وكم أحتاجُ إلى ردم لسدَّ الفراغ بينهما!

كم هي طويلة المسافة بين ضلع وضلع!

أجري بطيئًا، مثل آخر نقطة ماء نزلت، وتأخرت عن السيل. أجري بطيئًا زاحفًا للالتحاق بالجريان، وأتبخَّر رويدًا رويدًا.

لن أصل. بعضي سيصير في الفضاء. وبعضي سيغرق في الأرض.

تأخرتُ عن رفاقي ولن أصل. أزحف لكني لن أصل.  
قطعَ مني أفقدها، وقطعَ ترافقني منهكةً، وقطعَ تصير هباء.  
حتى إذا وصلتُ، أيُّ شيء مني سيصل؟!  
حولي عشب وحصى وتراب. طيرٌ ينفدُ بعضي. ونملٌ يأكل بعضي.  
وبعضي للعشب والحصى والتراب.  
أجري بطيئاً وفوقي يصعد خيطٌ مني، وتحتي ينزل خيط مني.  
أجري بطيئاً بين إبرتين، تخيطان عدمي.  
نزلتُ آخرَ نقطة. كنتُ في غيمة ونزلتُ. هل أنا الباحث عن شخص ذائب أم أنا الذائب؟ أم أني، من كثرة البحث عن ذوبانه، ذبتُ مثله؟

وصرتُ، عوض أن أبحث عنه، أبحث عني!  
أرى على الطريق أشخاصاً عابرين. بعضٌ ما بقي مني يرى أشخاصاً. هؤلاء، على الأرجح، لم يفقدوا شخصاً أحبوه. أم أنهم فقدوه، ومع ذلك يكملون الطريق؟!  
لا أعرف كيف لا تتوقف أرجلنا عن المشي حين نفقد شخصاً نحبه. ألم نكن نمشي لا على قدمينا بل على قدميه؟ ألم تكن النظرة كلها من أجله؟ ألم يكن هو النظرة؟

كيف يمشي واحدٌ إذا فقد شخصًا! أنا، حين فقدت شخصًا، توقفت.  
كان هو الماشي وأنا تابعه. كنت الماشي فيه. وحين توقفت، لم تعدُ  
لي قدمان.

تأخرتُ وزاحفتُ وأتبخّر. كيف إذن سأعيد شخصًا ذاب؟ أليس عليّ  
بالأحرى أن أعيد أولاً نفسي؟ أن أعود على الأقل قطرة ماء كاملة،  
تنزل على ورقة، على عين، على ضلعٍ على ضفة؟  
أليس عليّ، لكي أخرج من الطحلب شخصًا، أن أكون على الأقل  
من ماء البحيرة؟

تأخرتُ ولن أصل. كلُّ ما أفعله أني أرى، أرى من بعيد. رؤيةٌ  
مشوشة من عين شيء لا هو غيمة، ولا هو ماء، ولا جماد ولا  
بخار.

إني، إذن، لا أرى.  
كلُّ هذا مجرد خيال. عتمةٌ تستجدي عتمة. ولن أرى ولن أصل  
ولن أستعيد شخصًا ولن أعيده...  
إني، فقط، أحاول أن أزحف. أحاول أن ألحق برفاقي.  
لكنهم صاروا بعيدين، بعيدين جدًا.

ربما كنتُ في الماضي شخصًا يبحث عن شخص ذاب أو ربما  
كنت أنا الذائب. الآن، حتى ولا قطرة. وفي تماهيّ المرعب بين

الماء والبخار والشخص، أبحثُ عن إسمٍ أعرفُ به نفسي حين  
ألتقي النمل والعشب والطيور. أنت الزاحف مثلي، ستوقّف حتمًا  
على نتوء. أرسلُ لي من هناك نداء، وبه سأسمّي نفسي.  
متماه بين ماء وجماد وبخار. مع ذلك لي مفاصل!  
ومفاصلي بينها فراغات. ترتطم المياهُ بها، ترتطم الرياحُ بها،  
ويرتطم الناس.

ناسٌ كثيرون يعبرون الآن بين مفاصلي. لا أعرف من أين يأتون  
ولا إلى أين يذهبون. لكنهم يرتطمون بعظامي.  
ناسٌ التقيتهم مرّة، ناسٌ التقيتهم مرات، وناس لم ألتقيهم... لكنهم  
يتدفّقون الآن، ويدفّقون على عظامي.  
عليّ أن أفتح هذه العظام لكي يدخلوا.  
لو كانت هذه العظام بابًا!  
من أين جاؤوا؟!

أظنُّ أن الذين ننظر إليهم يدخلون في أجسادنا عبْرَ عيوننا  
ويصيرون دمًا و لحمًا.  
وبعضهم يصير من المارة التائهين بين مفاصلنا.  
... ونستمرُّ، هكذا، نسمع طرقات على عظامنا.

إني أسمع الآن دقات ماء  
وعليّ أن أفتح.

## في النفق... في العظمة

قريباً ينتهي الوقت.

الرياح تقترب من الجدار الهائل. وهناك ستكبو.  
عبرت سريعاً وانتهى السباق. الرياح أخيراً سترتاح.  
تفتق الوقت. لم يعد معلقاً إلا بقطبة. أنتظرُ تدليّه، سقوطه ارتطاماً  
على الأرض!

تبدأ الحياة في اليوم الأخير.

الأيام كثيرة، لكن الحياة قليلة. تتأجل من يوم إلى يوم. وحين لا  
يبقى غيرُ يوم تتدفق كلها إليه علّها تحيا فيه... وهكذا تبدأ الحياة،  
فقط حين انتهائها.

ولذلك، لن تعاش الحياة أبداً!

لديّ نهارٌ واحد بعد، ماذا أفعل؟ أبدأ الحياة؟ وبأيّ شيء أبدأها هذه  
الحياة؟ مع مَنْ؟ كيف؟ بأيّ فعل و بأيّ كلام؟  
وإذا صدّف أن التقيتُ أحداً ماذا أقول له؟

الآن أبدأ بك حياتي؟ وإذا قلتُ و استجاب، كيف أعيش حياةً  
أودّعها؟ كيف أحيا موت الحياة؟!  
استيقظتُ باكراً جداً. على الراحلين أن يستيقظوا باكراً جداً ليملأوا  
نهاراتهم. عليهم، على الأقل، أن يروا الفجر قبل أن يذهبوا.  
في فضاء هذه الغرفة نثارُ بشرٍ عاشوا قبل آلاف السنين، أودّعهم،  
وأصير مثلهم نثاراً.

أودّع نبضَ الكواكب الذي وصل إليَّ عبر التيه الفضائي، من  
مجرات بعيدة. الوشوشات الكونيّة، غبارَ النجوم، الهواء المولود من  
ملايين السنين، القاطع بصمت فضاءً هائلاً ليصل إليَّ.  
أودّع شهقات البراكين، رذاذَ المستنقعات البعيدة. الصور الكراسي  
المرايا الساعات، عيونَ أطفالٍ، أحذيتهم المرميّة كيفما كان على  
البلاط.

أودّع الأمواج التي تخترق جسدي، الذبذبات الآتية من أقدم مكان،  
من الارتظام العظيم!

هل كان عليّ أن أرتطم بنفسي كلّ هذا الوقت، ويرتطم كلّ شيء  
بي، لكي أصير في النهاية فريسة صامتة؟ ألم يكن في وسعي، من  
زمان، أن أخفّف عن هذا العالم الضاحّ، صوتاً؟  
الكون، يجب أن يرتاح. على الأصوات كلّها أن تصمت.  
آه، الهدوء!

لن أستطيع وصف نهار، لن أستطيع وصف شيء. الكلام خيانة.  
في النهار الأخير لا يتكلمون. فقط يصمتون و يغادرون.  
تلك السهوب كانت صامتة أيضاً. وكنا، مع تملل ترابها تحت  
الشمس و الرياح، الصوت الوحيد.  
غير أننا، بتلك الحركة الرتيبة في هدأة الموت، اقتنصنا أسراراً من  
العظام.

كيف كان لنا، نحن البسطاء المرميين في أشداق المتاهات، أن  
نخترع أماكن تحميناً؟ كيف كان لنا أن نستمر إلى اليوم!  
لم نكن من جنس الخلود. لكن عظام ماشية وأعواداً يابسة أنقذتنا.  
ليست الحياة من كان يحميناً، بل الموت.  
مزجنا ولاداتنا بالعشب. وتحت تلك السنابل النحيلة تقيأت أرضنا.  
لم نرتد ملابس وحلى وقلادات. لكن أنفاسنا كانت ثيابنا وزينتنا.  
كنا عراة. والحطب المنبتق من لهائنا أدفأنا... كان لهائنا يابساً،  
لذلك كان قابلاً للاشتعال.  
وتحت النار كانت لنا احتفالات. نفرد لها، في مسامنا، مقاعد  
للضيوف.

الحياة كانت تحت جلودنا، لا في الخارج. وهكذا عشنا الحياة في  
مكمنها السري، في العتمة، في الرحم قبل أن تولد.

احتفالاتنا كانت تقام في العروق لا في الساحات. بيوتنا في خيال  
المكان. قوافلنا في الرأس لا على الدروب...  
عشنا عدم الولادة: طفولتنا كانت هناك، وشبابنا وشيخوختنا.  
وتقابلنا مع الحياة مرةً واحدة، أمام باب الموت.

كان أبي في الحرب يبحث في البراري عن عظمة، ليطحنها بحجر  
ويسدّ جوعه. من نسل تلك العظام المطحونة خرج أطفال، كنتُ  
واحدًا منهم. كنتُ ابن عظمة مطحونة.  
في العظمة، يفتح الآن نَفَق، فيه برارٍ وحيوانات، وفيه أبي يمشي  
من جديد، في البراري.

يمشي، وأنا معه يدًا بيد، نبحث عن عظمة.  
نمشي في قلب عظمة، ونبحث عن عظمة. وحين رأيناها أخيرًا،  
كنا صرنا بعيدين.

... كنا صرنا عظمتين، فيهما نَفَق، وناسٌ يبحثون عن عظام.  
مشيتُ في نفق العظمة. وضعني أبي في النقطة التي لا تُرى في  
التلافيف، في غبرة الفراغ، الأمّ الأولى لحياة العظام.  
أدير رأسي الآن وأنظر: إلى الضائعين في نخاع العظام، إلى  
الواقفين على أرصفتها، إلى المادّين أيديهم لاستعطاء مخرج، إلى  
الموتى بكهرباء الروح، إلى الباحثين عن حجر ليطحنوا عظمتهم  
ويأكلوها، إلى الداخلين لتوهم... ولا يعرفون ماذا يفعلون.

أدير رأسي و أنظر: حين رميتُ نخاعَ العظام فتحتُ معبري. كان الفراغ هو الطريق. كان الفراغ هو الحجر.

طفلتي تنام قربي. لن أودّعها. سأذهب إلى الموت كأني خارجٌ لأجلب لها حلوى. سأذهب إلى الموت كأني ذاهب إلى دكان. كنت صغيراً حين وصلتُ على ذراعي أبي إلى حانوت. دخل وقال: هذا ابني اعطوه حلوى... ولعبتُ كلَّ ذاك النهار، في قلبِ قطعة سكر.

لكن لماذا أستعيد طفولتي كالداخل إلى الحياة وأنا الخارج منها؟ وما جدوى استدعائها ولا مكان حتى لطيف؟ كل الشعوب، حتى التي انقرضت، تقيم هنا. أحتقُ في النافذة، علّهم يمشون على نظرتي ويخرجون... شرايين الغرفة يجب أن تستريح! الذين خرجوا، على الجدران كسورُ عيونهم. والذين بقوا، يعلّقون خرافَ أنفاسهم ويأكلون... سأمشي على نظرتي، إلى النافذة، وأختفي.

تلك الأيام، التي ذهبت الآن، لم تكن غيرَ تمرينٍ على دخول الحياة. الحياة ليست سوى تمرينٍ دخولٍ إليها. غير أنها تنتهي هناك، ولا ندخل.

لا نعيش إلا التمرن على العيش. نحيا، فقط، في قَبْل الولادة. في الشرايين التي لم تتشكّل بعد. في الوجه الذي بلا ملامح. داخل هلامية الأمعاء وظلامها. نعيش على الحدّ، بين التكوّن والعدم. على الباب. وحين نهْمُ بالخروج ننتشّط، كجرم، في المتاهة. لذلك لا أتحدّث الآن عن حياة. لا أصف ولادةً بل عدمها. لا أكتب عن ضوء بل عن عتمة. لا أتذكّر ما كان، بل ما كان يُفترض أن يكون ... الافتراض، هذا ربما، على الأرجح، ما نسّميه حياتنا. ... واليقين الوحيد، على الأرجح، وداعها. لحظات قليلة، ويكون لي اليقين الأول! سأقيم احتفال العروق. أستقبل المنبثقين فجأة في التيه، وأرقص معهم. ثم أعود إلى العظمة. إلى سرّ أبي. إلى النفق. أرمي الأحشاء. أبنتسم... وأمضي.

## محاولة وصل ضفتين بصوت

كنتَ تريد شيئاً يطير، طلبتَ تبغاً وأضفتَ أخواتٍ إلى الحمامات في فضاء الغرفة. كنتَ تريد شيئاً يطير شيئاً يخرج من النافذة، فرميتَ نفسك عبر الزجاج. لكنَّ نقطة الدم التي خرجت منك، ظلَّت في الداخل.

أنت الذي الآن في مكان آخر وثلاثُ بطَّات تنام أمام بيتك، كنتَ تحدِّق طويلاً في الجدران كي تسمع أصوات آبائك المعلِّقين. دعني إذن أتحدِّث إليك، اسمع صوتي، صوتي من هذا المكان، الذي هو صوتك من المكان الآخر.

ساعةً عرفوا ناحَ بعضهم وبعضهم ظلَّ صامتاً وهم يرافقوننا إلى مكاننا الأخير. أخذونا في صندوق، محمولين بثماني أيدٍ وبنظرات كثيرة. كنتَ تنتظر إليَّ أنا الحيُّ فيك، وأنظر إليك أنت الميت فيَّ. تريد أن تبتسم لي، وأريد أن أبكيك. لكننا صمتنا، وتركناهم يدفنوننا هناك.

نحن اللذين يتكلمان مع نفسيهما الآن، أنت من هناك وأنا من هنا،  
نحن الواحد: الحي المتحدّث مع ذاته الميئة، ماذا لدينا بعد غير  
الذكرى؟

لم يكن عند أهلنا بطّ. غير أننا، من كثرة ما حلمنا به، جاء أخيراً  
ونام على بابنا.

لكنك كنت تغادر.

وصلوا ولم يروا دمًا. الدم ظلّ في الداخل. ليس في الداخل تمامًا  
وليس في الخارج تمامًا. على حافظتهما. على الزجاج. على الحافة  
التي ما كانت في الخارج ولا كانت في الداخل.

أنت النائم الآن ولا تهتمّ بدم. النائم بعيدًا وثلاث بطّات تنام أمام  
بيتك. لا تجزّع ساطعها. في الخزانة حبوب. اشتريتها أنت ذات  
مساء، حين كنت تمشي وحيدًا في المدينة حالمًا بها.

وجاءت.

لكنها، هي أيضًا، لم تر دمك.

وجاء غيرها. الناس والأشجار والطيور، ولم يروا دمك. أوصلوك  
إلى قبرك، وعادوا.

حملوك لأنك لا تستطيع أن تصل وحدك.

وأهلوا فوقك التراب لتختفي.

بين هذه الجدران أمضيت حياتك. وُلدتَ في الزاوية، وأقصى رحلة  
كانت من الجدار إلى الجدار.

كنتَ تريد شيئاً آخر. صراخك لم يكن إلا نداء لهذا الشيء في  
الخارج. لكي تخرج، ولو نقطة دم واحدة، من النافذة.  
لم تكن تتادي منذ ولادتك غير الموت!  
اعطني كأس ماء. ظمآن أريد ان أشرب. اعطني فقط شيئاً دليلاً  
على أنك لا تزال تراني.

عيناك مغمضتان. فوقهما تراب. عيناك فراغان.  
تراني بفراغين وتسمعني بفراغين. فراغك سامعي ورائي. المليء لا  
يعبره صوت ولا ضوء. اسمعني إذن وانظر إليّ.  
تراني بفراغين وتسمعني بفراغين. فراغان ظلاً داخل جدران فارغة.  
وخروجهما الأول كان إلى الموت.

الموت؟ عرفنا إذن: الخارج، هذا هو الموت!  
أين الملائكة؟ قولوا للملائكة أن تأتي ها نحن وصلنا. لا نحبُّ  
موتاً بلا ملائكة. معنا رماد، نتسلّى به كلُّ الأبدية. يخفق جناح  
ملاك فتطير نثرات، تطير أرواح حمامات، شقيقات حمامات كانت  
في تلك الغرفة. ويحطُّ ملاكٌ فنطعمه همسات، نطعمه نظرات،  
ونتسلّى... فلتأت الملائكة نحن وصلنا.  
معنا رماد، نتسلّى كلُّ الأبدية.

وصَلْنَا... لَكِنَّ الْمَلَائِكَةَ أَيْضًا كَانَتْ مَوْتَى!

ثمانية وأربعون عامًا، كان هذا إذاً هو الزمن!  
كان هذا عنقَ الأبدية، الذي حسبناه عناقًا طويلًا. الفم الذي قَبَّلناه  
تحت غيمة سريرة.

حينَ وُلدنا، انهمر مطرٌ من جلد أمتنا. مطر بقي في الزاوية، قرب  
العتبة، بقي هو أيضًا في الداخل. لم يره الذين كانوا في الخارج،  
ولا الذين دخلوا. كان مطرًا يخصُّها وحدها، يروي حقلها الداخلي،  
الذي لا يراه أحد.

وحين كنا نغادر، انهمر مطرٌ أيضًا. على الناس، على الخشب،  
على الشجر... لكنه كان مطرًا بعيدًا، بعيدًا جدًا.

كان ينهمر هناك، في البعيد، في المكان الذي يسمونه حياة.  
هذا هو الزمن إذاً، هذه هي الأبدية: ثمانية وأربعون عامًا!  
وقبل ذلك عدم، وبعد ذلك عدم.

ها نحن الآن عدمان يتحدثان. فراغان يحاولان أن يمتلئا بأصوات.  
ضُمَّ صوتك إلى صوتي. ضُمَّ صمتك إلى صمتي علَّهما يصيران  
صوتًا.

العدم هو نحن الآن. إنه نحن. لا شيء آخر.

حدّثني عن صوتك الأول، عن لعبتك الأولى، عن ذراعك الصغيرة حول عنق أمك، عن حذائك في الحقول... تحدّث، اصنع أصواتًا، املاً هذا العدم.

تقول أمنا كان صوتنا الأول صراخًا. ألقنت حملَ الحطب عن ظهرها أمام باب الفرن، وبعد دقائق سمعتُ أوّل صوت من أصواتنا.

قال الذين حواليتها: مبروك. ووصل إليها كلامهم، من بين رذاذ جسدها، مثل قوس قزح كانت تراه في الشتاء.

وُلدنا في تموز، في عزّ الصيف، ومع ذلك كانت تمطر! لكنه كان مطرًا يخصّها وحدها. وكان يَعدّها بزهور وثمار... أما نحن، فكُنّا نبكي.

وحينذاك نظرتُ إليكَ نظرتي الأولى، كمن ينظر في الصباح إلى مرآة و يمشي.

ليس عندي ما أقوله. فقط أريد أن أتكلّم، أن أصنع جسرًا من الأصوات يوصلني بنفسِي. ضفّتان متباعدتان أحاول وصلهما بصوت.

الكلمات أصوات. أصواتٌ لا غير. هكذا هي الآن، هكذا كانت دائمًا. أصواتٌ لا نوجّهها إلى أحد. نحن لا نكلّم الآخرين. نكلّم

فقط أنفسنا. الآخرون شيء بعيد وغريب، لا نراه ولا نعرفه، وتقريبًا ليس موجودًا.

لم يكن الكلام غير عزلة، لم يكن غير صمت. مع ذلك أريد أن أتكلّم الآن، أريد أن أكرّر عزلتي... ولكن، ماذا يقول لنفسه من هو ميت؟!

إنهما الآن هنا، الذاكرة التي أوصدت وراءها الباب، والنسيان الواقف على العتبة. هنا يتحلّقان حول طيف روح، سقط الروح من النافذة ولاقاه طيفه إلى الباب. وأكتبُ كي أتذكّر جسد هذا الروح. كي أتذكّر أنّ كان لي جسد. أنّ كان لي وبر على جسدي لا أعرف أين صار. كي أتذكّر بالأحرى أنّ ما كان لي هو وبرّ لا جسد، وأني لم أفعل طوال أيامي سوى البحث عن جسدي. يخالجنى أحيانًا شعور بأن البشر يعيشون بلا جسد. يستمرّون في الحياة ما داموا يبحثون عن جسد، وحين يبأسون من العثور عليه يموتون.

أنا، نفسي، عشت بلا جسد. كنت طافحًا بالروح لكنني كنت بلا جسد. بحثّ روحي عن جسدي طويلاً. مشى أعرج ضالاً مجنوناً. وظلّ وحيداً، ظلّ هباءً، روحاً يابساً يبحث عن قطرة. وحين رمى نفسه من النافذة كان فقط لرؤية قطرة دم. دمّ يقال إنه يسري في

الأجساد! لكنَّ قطرة الدم ظلَّت فوق، على الحافة، بين الداخل و الخارج، على الحدود التي ليست لأحد.

كنت أريد شيئاً يطير، شيئاً يخرج من النافذة.

لم يكن لي جسد. لكنَّ شيئاً غريباً كان يلتصق بي.

هل كان ذاك الغريب جسدي؟

فلنضحك، لنفتح عظمتي فكِّنا ونضحك. ضحكك الخارجة من

عظمتين فارغتين ستكون أجمل ما في هذا النصِّ، صدِّقني.

أنتَ بطل هذا النصِّ، وإنك بطل ميِّت. لكن حين أريدك حيًّا يجب

أن تحيا. الكتاب يحركون شخوصهم كما يريدون، وعليك أن تتحرك

كما أريد حتى لو كنت ميِّتاً. لا تقل إن النعش ضيقٌ وصرتَ تراباً.

على الكتاب أن يحركوا التراب ويوسعوا النعوش. وعليهم أن يعيدوا

الأموات إلى الحياة أيضاً.

كنتَ متمرداً دائماً. قطعتَ حياتك بعصبية، كمن يقطع غصناً فوق

رأسه بسيف.

وكنا، أنت و أنا، في جبهتين: علينا أن نتقاتل بشراسة، وأن

نفاوض بخداع. ولم نصل إلى سلام، ولا إلى هدنة.

أنت ميت أمامي الآن وأريدك أن تعترف بأنك كنت عدوِّي، وكان

عداؤنا لنفسنا أشرس من عدائنا للآخرين.

الآخرون شيء آخر. يمكنك أن تتساهم إذا عجزت عن قتلهم.  
ولكن كيف تنسى نفسك؟ أمامك حلٌ وحيد: أن تقتلها!  
وقتلتها.

فلنضحك إذن أمام هذا الانتصار. أمام قطرة الدم الخفيفة.  
ولنتذكر جسدنا الذي كان ملفوفاً بجلد مقفل.

جسدنا، ظلامنا الداخلي المرعب! وأفكر الآن كيف كان الدم يبصر  
طريقه في العروق! وكيف عاشت هذه الأحشاء سنوات من دون أن  
ترى شيئاً!

جسدنا كان قتيلاً. قتيلاً بعماء، وقتيل برغبة الرؤية. ظلامه وضوؤه  
قاتلاه. الظلام والضوء اللذان يستدعيان، كلاهما، سكيناً، لفتح كوة.  
من هذه الكوة أراك الآن. الكوة التي فتحتها أنت بنفسك.

لم تتحمل ظلامك الداخلي. كنت تريد للدم ضوءاً وللأحشاء  
رؤية.... وأشعلت ضوءاً: للجلد، والدم، والأحشاء، وللموت أيضاً.  
رفاقنا كانوا يصفون الأمل بالضوء. يقولون "ضوء الأمل". أما أنت  
فاخترت ضوء الموت.

اخترعوا صفات لكل شيء، وأرادوها حلوةً وبليغةً، وأن يكون لها  
صدى! كمن يصرُّ على اختراع صوت، لخطوات ناسٍ غابوا.  
في البدء كانت صفات، وكان علينا نحن أن نخترع أشياء تنطبق  
عليها.

كان علينا أن نخلق كونًا من مجرد نُعوت!  
 وخلقنا كونًا، ووضعنا فيه حياة. لكن ما جَمَعَنَا ليست الحياة بل  
 الموت. الحياة كانت للتفرقة. وتصالحنا لأول مرة حين متنا.  
 لستُ أبحث الآن عن ضوء الحياة. لا. بل عن نار تدفئ،  
 في السماء أرواح ترتجف من البرد. أريد أن أشعل لها نارًا. أريد أن  
 أبكّل أزرار قمصانها.  
 كنا نملك صراخًا قليلًا. وبهذا الصراخ قلنا ذات يوم للحياة نحبك.  
 مشينا نبحث عن أصدقاء، عن ناس عن نبات عن حجارة، نلهج  
 لهم بحبنا. مشينا حتى تفلّع قلبنا.  
 رأينا أمكنة لكل شيء. للنمل للشجر للطير للأرض للنجوم... أين  
 مكان حبنا؟  
 أين نضعُ هذا الحبَّ أين نُسكن هذا الحيوان؟ تخلّعتْ أكتافنا.  
 مشينا الشوارع كلّها الأمكنة كلّها وكلُّها ملاءى. الأرض امتلأت قبل  
 وصولنا وصار ما نحمله بلا مكان. صرنا المكان الوحيد لحملنا،  
 صرنا وهمَ مكانه. مكانه وهمُّنا ومكاننا وهمُّه. صار هو، ونحن،  
 والمكان، وهمّا.  
 في البدء كان الوهم. والوهم صار أرضًا حللنا فيها.  
 وهمُّ الأرض وُلدَ وهمَّ الرغبة. وهمُّ الرغبة وُلدَ وهمَّ الحبِّ. وهمُّ  
 الحبِّ وُلدَ وهمَّ الولادة.

ووهمُ الولادة وُلدَ وهمُ الحياة. ووهمُ الحياة وُلدَ وهمُ النسيان. ووهمُ  
النسيان وُلدَ العزلة...

ومن وهمُ الأرض إلى وهم الحبّ أربعة عشر وهمًا. ومن وهم  
الحبّ إلى وهم الحياة أربعة عشر وهمًا. ومن وهم الحياة إلى العزلة  
أربعة عشر وهمًا...

في البدء كان الوهم. والوهم صار جسدًا وحلّ فينا.  
آه مونيكَ، يا واهبة الأوهام جسدًا جميلًا. كنت تتأمين على الأرض  
لئلاً يقال ارتفعت شبرًا نحو الأوهام، بل لكي تنزل هي إليك.  
وكانت تنزل. تغسل عينيك، فمك، عنقك، صدرك، عانتك،  
ساقيك... فتتأمين نظيفة.

يا مونيكَ التي كانت تنام على الأرض أين أنت الآن؟ أنا تحت  
مترين عن الأرض، وتحت عظامي حصاةً تزعجني. قولي لأحد  
كي يُزيح هذه الحصاة أريد أن أنام.

مشينا كثيرًا، باحثين عن حُبّ قليل. مشينا بقامات قصيرة في  
شوارع طويلة، وكنا بالكاد نرى.

نريد حُبًّا، صرخنا، الحُبُّ يطيل قاماتنا.

أعطتنا دلالٌ قفلها المقدّس، هدى مفتاحَ بوابتها، عادةً مزلاجها،  
وأورورُ أطفالًا.

يا صاحبة القفل المقدّس يا حارسة البوابة يا امرأة المزلاج يا أمّ  
الأطفال، نريد حبّاً، نريد مكاناً.  
فلترتفع المياه ليضطرب العَمْرُ ليستبدّ الهَلْعُ بالأنهار العالية. أريد  
قليلاً من الماء. فقط لنلأً تموت هذه الأسماك في حوضي.

إنني ميت كفاية، ومعني الوقت كي أنسج الأحلام. ميت كفاية كي  
أخترع الحياة التي كنت أريدها.  
ليس جميلاً يا وديع أن تستلقي هكذا في الأبدية من دون أن تحلم.  
ليس جميلاً، في الموت أيضاً، ألاّ تعيش الحياة التي كنت تشتهيها.  
الموت فسيح، يتّسع لكل شيء. انس الأرض الكوكب الضيق.  
وتهدأ في فضائك الواسع، في عدمك. واضحك طويلاً.  
العدم فسيح. وتستطيع أن تمدّ فيه ضحكتك إلى الأبد.



7

نص الغياب

( 1999 )



## إنها الكلمات الأخيرة... وها أنا أهجرها

هل أقول الوداع للكتابة؟

أقول الوداع.

حوار الكتابة حوار الصمت. زمن الكتابة زمن الغياب. مكان الكتابة عدم المكان.

لا حياة بالكلمات. الحياة قد تكون هناك، خارجها. هناك قد يكون الآخرون، وأنا أيضاً. في المقلب الآخر من الكلام، خارج النصّ. الكتابة غياب الحياة. الحياة قد نصادفها بالمشي، قد نصادفها بالجلوس، تحت شجرة أو على رصيف. ربما تأتي سهواً، بقبلةٍ أو برصاصة، لكن ليس بالكتابة.

أرثُ على هذا الثوب الذي أرتديه سُمّاً للكلمات وأركض مجنوناً باحثاً عن الحياة. تسميم الكلمات هو الطريق القويم. موت الكلمات هو كلمة الحياة الأولى. لثعها الأول.

يا طالعةً من فمي إنكِ تقتلينني!

ليس بخنجر الخيانة وحده بل بسيف الشطب هذا القتل. بالرمي من السطح النير إلى لجة المتوهم الغامض المستحيل. بوقد النار في القلب والأعضاء، وتوزيع المفاصل في الشتات. مشي على الغيم، والسقوط رذاذاً.

دخولٌ في غرفة الموت، فيما الحياة تلعب على الطرقات.

في رحلة الصيد الطويلة لم أكن غير كشَّاشٍ لأرواح الكلمات.  
النصوصُ حمائم جافلة تطير من أمام المؤلفين.  
سرابٌ يمدُّ دربًا لا بيت على جوانبها، ولا شيء في خاتمة المطاف.  
يمدُّ حبال مشانق للسائرين.  
وما دمتُ عرفت، لماذا عليّ أنا النحيل أن أبقى معلقًا بهذه الحبال،  
لا مميّتًا ولا حيًّا؟ نحيلٌ لا يُميتني الحَبْلُ، ومعلقٌ أبعدَ قليلًا من يد  
الحياة!

أنا الذي لا يُستساغ لقمةً، لماذا عليّ أن أبقى فريسةً ما لا يُستساغُ  
أن يكون صاحب الوليمة؟  
معلقٌ على حبل، معلقٌ على ورقة، منتظرًا حياةً تطلع من شقوق  
الكلمات.

لا أعرف حياةً طلعتُ إلى كتابها من هناك. أعرفُ كتابًا ماتوا على  
الحروف، وكتابًا ماتوا على النقاط، وكتابًا ماتوا على هامش  
الورقة... ماذا أنتظر من الكلمات؟ أريد النياض.  
بحثٌ متوهمٌ عن حياةٍ متوهمة، الكتابة. ليس صحيحًا إمكانُ  
استحضارِ غيابِ بِنَصِّ. لا الميِّت ولا الحيّ. ليس صحيحًا ما  
اعتقدته في رحلة هذا الوهم الطويلة. الغيابُ عدَمٌ والموتُ عدم، لا

يمكن استحضارهما. نصير غياباً، نصير موتاً، في رحلة هذا الوهم.  
الكتابة، مرادفٌ للموت.

كنتُ أظنُّ أنني سأبني وجوداً من خيال. أنَّ التخيلُ يُحيلُ الخيالَ جسداً، والكلماتُ تبني بيتاً، أكون فيه لا قُبالتَهُ. مشيتُ طويلاً في خيال اللغة، حتى انكسرتُ في وهمها. مشيتُ في اللغة بحثاً عن موطني، حتى اكتشفتُ أنني أبحث عن وهم. ولأنَّ اللغة كانت هي موطني، فإني ما سكنتُ إلا في الغياب. لم أكن غير كشاشٍ لأرواح الكلمات. تلك التي خرجتُ من فمي، وروحي، وغابت بعيداً. أتذكّر منها الآن النقطة الأخيرة الواهية في الأفق القصي. أتذكر منها عيوناً خرجت فجأة، التفتت إليّ بلومٍ وغابت سريعاً. أتذكر ريشاً تنائر بطلقات، وريشاً مستعجلاً للهرب، وخطاً دقيقاً رَسَمَهُ هذا الهروب في الفضاء، وامحى بلحظة. لم أكن غير كشاشٍ فاشلٍ لأرواح الكلمات. لا مكان للكلمات، إنها حالة غياب. حالة استحالة. تأتي كأنما ظلٌّ أتى وتذهب كأنما ظلٌّ ذهب، ولا وجه لها أو قامة أو مكان. ظلالٌ، ظلال، و لا أثر.  
كلماتٌ كثيرة، ولكن يُستحالُ قولُ أيِّ شيء.

ظلُّ يمرُّ أحيانًا، يمرُّ دائمًا، لكن لا صاحب له، ولا مقعد، ولا معبر، ولا كلام مع العابرين.  
الكلام هو خيانة المكان.  
والمكان هو خيانة الكلام أيضًا.  
فلأَمْضِ إذن. لا كلام ولا مكان لي.  
كنتُ ظلاً، كنتُ كلامًا خائناً، فلأَمْضِ.

الرغبات ترتدُّ على أصحابها. فلأَمْشِ بلا رغبة فوق هذا الجسر  
النحيل لأنَّ أيَّ سهم سيُسْقِطني. أيُّ سهم وربما هبوبُ نسيم.  
صائدو الرغبات طرائدُها، يسقطون الواحد تلو الآخر كأنَّما العبور  
فقط لغير الراغبين.  
فلأَمْشِ، ولكن ببطءٍ، بلا رغبة. فلأَمْشِ فارغًا، ربما أصلُ سليمًا.  
الحمولة تزيد من ثقلي، فيهوي سريعا هذا الجسر.  
على الذين يريدون العبور أن يتجرّدوا، لا من ثيابهم وحدها بل من  
نفوسهم أيضًا!  
... لذلك، لا عبور.

كنتُ، فقط، أحاول العبورَ بالكلمات: إرسالَ صوتٍ ليعبر عني فوق  
هذا الجسر. لكنَّ الصوت لم يكن يعبر، وكان صدها يرتدُّ، ليقتلني!

كنتُ تقريباً ميّتاً دائماً. كنت مجموعة موتى: ضحية كل صوت وكل صدى. ميّتٌ حين أُرسل الكلام وميّت حين أتلقّى صداه. ولأني تكلمت كثيراً، متُّ كثيراً... والآن أريد الصمت، أريد أن أحيأ.

أضعُ أمامي المرأة وأنظر، أنا الميّت!... ماذا لا أرى غير عينيّ، وغير يديّ ووجهي وروحي؟ النسماّتُ هناك، وارتطامُ الفضاء بها. الشّعْرُ قَرِبَ الضباب. الجنون قرب الماء. الغناء تحت الغيمة. البحر فوق القلب. النبع ناحية الغبار. الوقت مع الحجر. الدّمُ مع الآية. الضوءُ النائسُ في خيمة الثعبان.

صوتي هناك يحاول وحده عبورَ الجسر، حذراً مرعوباً، موازياً طرفيه، متجرّداً من كلّ ثقلٍ حتى من صداه... يحاول، علّه يعبر. صوتي هناك وأنا هنا. حتى لو عبر، هو هناك وأنا هنا. مفصولان مقطوعان مقطّعان لا كلام بيننا ولا قرابة ولا نظرة. كان ذات يومٍ، ربما، صوتي. لكنه وحده هناك، على ذاك الجسر، ووحدني هنا، في خيمة الثعبان. لا عبور، حتى بالكلمات! لكأنّ الخطوة الأولى هي الأخيرة. لكأنّ الوقوف هو كلّ المسافة، كلّ الطريق!

كانا، ذات يوم، رفيقين، الصوتُ والثعبان. لعبا على التلال، تراشقا  
بنقاط الندى التي تكاد لا تُرى.

كان الصوت والثعبان رفيقين يتراشقان بالندى... وأصابت الصوتُ  
نقطة، فاستردّه الفضاء!

عاش وحيداً هناك. وكانت دموعه تنزل، تقطع المسافات النائية،  
إلى فم الثعبان.

للصوت رفيق واحد: الثعبان. يلعبان معاً، ويقْتُلان معاً!.

يا طالعةً، رديئةً، من فمي.

يا طالعةً لكي تلعب مع الثعبان وتقتليني.

لدي ندى. على العشب في حديقتي الخلفية.

ليكن تراشقكما بالندى في الليل. فلا يراكِ الفضاء فيستدعيك.

والعبا همساً. واقتلا همساً. فرما الجيران يريدون أن يناموا.

كنا ننام تحت صوف الهنديباء، ننام صامتين. عوض الأصوات

نُطلق حياءَ الوقت، فيمشي بين النعوش و الذاكرة. وعلنا نطير،

نشرب خمراً من حناجر عصافير مَيّنة.

الآن، خيمةُ الثعبان. الغصنُ اليابس أمامها، من بقايا غابةٍ سحيقة،

يُفتح و يُغلق الباب.

الآن شمالُ الخرابِ جنوبُ الرماد، المشنقةُ التي احتفظت

بالقميص!.

الغصن أعلى قليلاً من قامتي. لذلك لن أصطدم به، سأدخل، من دون أن أحني رأسي.

الآن وقتُ العظام. وقتُ البياض في الجسد. وقتُ المنسحب على مهلٍ من اللحم. الذي يُرمى وينزوي، شاهداً وحده أنه كان، أنه لم يكن. وقتُ غبار العدم. وقتُ العدم بلا غبار.

المنسحبُ بخفةٍ من يد الوقت، من طيف المكان، من ظلّ الملاك. الذي كان سنبلَةً بحبوبٍ عيونٍ غريبة. المنسحبُ من الحقل أبيض، ناصعاً، إلى الحدّ الذي لا تطاله الرؤية، إلى حدّ العدم.

لم يكن لدى العظام كلام. كان هناك شيءٌ هيووليٌّ لزج، حائرٌ معدّم، تريد الجهرَ به. تبحث له عن لغةٍ علّه يحيا فيها.

في ذاك المكان النائي. على سريرٍ صغير، بدأت حيرةُ العظام. هناك بدأ حَرَسُها و بحثُها عن لغة. في ذاك المكان حيث اللغة لم تكن وُلدت بعد، و حيث كانت شجرة، تَسْقَطُ أوراقها واحدةً بعد أخرى، بصمت.

لم يكن للكلمات مكان.. في البدء لم يكن كلام، كان الصمت. وحين انبثقت الكلمات بدأ طريقُ الموت.

أحملُ الآن هذه العظام الحائرة البيضاء، وأرميها في صمتها الأول. أضعها في انعدام اللغة، في السرير الصغير.

كلُّ ما تعلَّمته من كلمات، ما رفعته من آبار الأجداد، ما برقَ و ما انحب وما أُرسِلَ في الجهات، أعيده إلى صمته. أمدُّ إشارات يدي إلى الأصوات التي صارت بعيدة، وأعيدها إلى الحجرة. أفرشُ لها قميصاً تحت صوف الهندياء، وأنام قريبا. في هذا المكان الضيق، حيث يلعب النيامُ والموتى الورق، ويتبادلون الأدوار.

بحثٌ متوهَّم عن المكان، الكتابة. بحثٌ متوهَّم عن الزمن، عن الحياة، عن الحرية... بحثٌ متوهَّم.

الكتابة لا تسكن في الحياة. مسكنها في مكان آخر. على الحافة. في المتوهَّم.

الكتابة مسكنها وراء الباب. تطرق لكن لا يُفتح لها. ربما لأن لا أحد في الداخل. ربما لأنَّ الداخل فراغ. ربما لأنَّ لا داخل. أين الحياةُ و المكان والزمان؟ إذا كانت في الخارج لماذا، ونحن في الخارج، لا نراها؟ وإذا كانت في الداخل لماذا لا يفتح الباب؟ أنا الكاتب أعترف: بحثتُ في الكتابة طويلاً عن الحياة ولم أجدها. لم أجد الحياة ولا الزمن ولا المكان ولا الحرية. الحرية؟

بديهياً أن لا حرية. الحرية؟ كيف تكون حرية ما دام لا حياة؟  
نخترعهما، قالوا. صحيح، وها نحن نخترعهما. ولكن من موادٍ  
وهمية غير قابلة، هي أيضاً، للحياة.  
لماذا أكتب إذن؟ ما دمتُ عرفت، ما دمتُ اكتشفتُ هذا الوهم، هذه  
الكذبة، لماذا أكتب؟

عليّ، على الأرجح، أن أعيد تركيب نفسي. أفكّكها قطعةً قطعة،  
أرمي اللعين منها وأرْكبها من جديد. لو أن النفس آلة، لو أنني فقط  
أرى قِطْعَهَا.

تائه في العاصفة وأبحثُ عن آلة! تائه ومنهوب. نهبتني الريح  
وأريد استرداد ممتلكاتي.

أريد الحلية التي وهبَتْها لي أمي. أريد الطير الذي جلبه لي أبي.  
أريد ريشة الروح، حدقة الفضاء أمام الباب، حليب الحجر الذي  
كان يدفع من نظرتي.

وإذا كانت هذه كُلُّها من المنهوبات، ألم تكن لي في الماضي على  
الأقل نفسي؟

الآن إذًا أريدها.

وإن لم تكن لي، أريد زهرة، لجثمانها.

أريد استرداد ممتلكاتي: الدرب الأولى، غبارها الذي علق على  
قدمي فصار لي، نجمة الوعود إذ يأتي الغروب وأنا نائم تحت

لوزة. ممتلكاتي: نظراتي التي أرسلتها بحنانٍ ولا أزال أنتظر  
عودتها، يدي التي العابرون ظنّوها كمانًا، لهاثي الذي امتزج بنسيم  
خفيف، ثم تحوّل ريحًا ترتدُّ الآن إليّ وتتهبني.

كم الساعة الآن؟

أعرفُ أن المرضى في الغروب يهلوسون هكذا. أنّ الحُفَرَ التي  
تركتها ضواري النظرات ستبقى فارغة. وأنّ رصاصة الجنون،  
ورصاصة الحكمة، كلاهما تصيبان المقتل نفسه.

لم أكن في الماضي أعرف كلّ هذا. كانت الأرض مستديرة، لا أرى  
مقلّباها. الآن الأرضُ مستطيلة، صحراءٌ شاسعة، وقوافلٌ طويلةٌ من  
البشر والشجر والبعال، موتى فوقها.

خطٌّ وإه في البعيد، خيطٌ مشنوق، أريد عبوره. وكلّما خرج من  
الخيط نسلٌ، ظننتُه أولادي.

أحيانًا تحدّثني الذاكرة عن الأرض أنا العاري، فأمدُّ يدي إلى  
معطفها المرمي على كرسيّ قديم، وأحاول أن أتدثر به.  
أجربُ أن أقنع نفسي بأنّي، من هذه الخيوط البالية، سأصنع كنزَةً  
لأولادي.

أين المقيمون في البرد؟ فليجتمعوا الآن في طابور، والمقيمون في  
الحرارة في طابور آخر: يجب فرزُ الناس وحراراتهم، يجب خلق  
التوازن بين صقيع البشرية وحرارتها.

التوازن بين المعطف والكنزة المكرورة. وإلا الأرض ستقع.  
كلامٌ بكلام. فقط كلام قليل للاجدوى كثيرة. كلامٌ للريح، للنظرة،  
للظن، للتعبان. للخيط المسرَّح نسله، للمشقة المحتقطة بالقيص.  
كلامٌ للذين لا يسمعون.

اعطني النعش في الصباح اعطني الغيمة إلى الوسادة. طُلَّ من  
الشبَّاك واقطع رأس الزنبقة. صِدِّ الثوب الخائن في الفضاء. صِدِّ  
المجنون المنحني على النبع.

إقطع عنق اللغة. أرهب الكلمات، شرِّمها وشرِّدها. اخنق  
الأسلوب. فطِّع بالأصول والمنطق وبأعدائهما. خذ الصوت إلى  
الحديقة، خذه في نزهة، مع الجمل، وارمها في النهر.

لا، لا. دَع بطن اللغة تحبل بكلماتٍ بعد. كلمات يظنُّ أبؤها  
وأمهاتها أنهم سيداعبونها كالأطفال، يغسلون وجهها ويمشطون  
شعرها ويجلبون لها الألعاب... دع آباء اللغة وأمهاتها يحلمون  
بأولاد، هذه سعادتهم لا تخربها. فبطن اللغة حابلٌ بكلمات تولد  
ميتة، دَعهم على مهلهم يعرفون. دع الوهم يسعد قلوبهم، واترك  
للغة شأنها: التلاقح من الصمت والاستحالة، من الغياب والغيبوبة،  
من الموت والموت.

العممة وحدها قد تكون الحياة، الخصوصي الذي لا يرى، لا يُقال،  
لا يُفعل.

هل كان عليّ قَفْلُ الأبواب وإسدال الستائر وإطفاء الأضواء لكي تكون لي حياةٌ ولغةٌ؟ أَنْ عَيْرْنَا العتية واختلطتا مع خارجين كثيرين، فقدنُهُما... لكني، حقاً، لم أكن أجدهما في الداخل. ظنننُهُما في الخارج، في حانةٍ أو تحت شجرةٍ أو على رصيف. ولم تكونا لا في الخارج ولا في الداخل. أين الحياة و اللغة إذًا؟

الساعة تدقُّ دقاتها وأنا واقفٌ تحتها، أسمع الرنات تجري في الفضاء وتختفي.

واقفٌ تحت الساعة. لا أجري مع الرنين بل أسمعُه وأشيّعُه وحسب. ثابتٌ في المكان وثابتٌ في الوقت. رناتٌ متواصلة سريعة لا أُميّز بينها. الأولى شبيهةٌ الثانية شبيهةٌ الألف شبيهةٌ المليون. وأنا تحت الرنة الأولى شبيهي تحت كل الرنين. واقفٌ في ساحة الأصوات في موج الأصداء جامد. يحطُّ على رأسي طير كما يحطُّ على تمثال ويطير. تلمسني سمكةٌ وتمضي.

لا مكان للمشاعر كي تذهب إليه. لا فسحة لتحريك العواطف. لا مسافة بين الجدران. ولا مكان للكلمات ولا زمان كي تتحرك أو تحيا.

هل المكان والزمان وهما أيضًا نحاول أن نبني بهما ملجأ؟ لكن لا قصب يكفي لنصب هذه الخيمة. لذلك نقعد ونعزف موتًا للهواء. تعبر الريح تاركةً موتى على أبوابنا. ننادي من الداخل يائسين: من سيظمر موتانا؟ أجدادنا الأوائل كانوا يدقون الصخر ليلاً نهارًا لحفر حوض يزرعون فيه موتاهم. يزودونهم بالذهب والمال كي يدفعوا أجرة السفر إلى الخلود. نحن موتانا على الأبواب من يطهرهم؟ ومن يطمر موتانا في هذه الغرفة، الممدّدين منذ مئات السنين فوق الإسمنت، طبقات طبقات، حتى صار هذا البناء كله من مادة الموت، وصرنا، نحن، نتاج جبلة الأموات. أحاول أن أطلّ برأسي من فوق الردم. أن أرسل صوتًا حادًا يخترق العظام واللحم البالي، عليّ ألمح ما وراءها. فقط بوصة، بوصة واحدة مضاعة، وراء هذا الموت، تكفي. لكن، فلأنتم. كفنُ السماء ينزل على الغرفة ويغطيني. لأنم بالراحة نفسها التي للقطعان. التي للجماد، للرماد. لأنم من أجل الجرح الذي لا يستطيع الحراك. من أجل اللحم المُقعد ومن أجل النسيان. لأنم وأتدبّر بما تبقى على الطاولات والكراسي من موتى. لأنم بتواضع ولا أذهب بعيدًا، فأظنّ أنني حي. هناك كلمات تطلع من تحت التراب، أسمعها تخرج من بين الفكوك العظمية المتناثرة لموتى، دُفنوا من ألف عام. فكوك تعوم فوق

الثرى لتقول كلمة. وفكوك لتقدّم قبلةً لم يتسنَّ لها، في الحياة، أن تقدّمها.

عظامٌ تخرج لتضحك، وعظام تخرج لتلعب، وعظام لتتقدّد أمكنتها الأولى، وعظام لتجيل نظرها علّها ترى الأرض التي عاشت فوقها، ولم تكن تراها.

تخرج العظام من تحت التراب كي تفعل ما لم يكن أصحابها يفعلون فوق التراب.

من هذه الكوّة، من العظّمة، أحاول أن أطلّ على العالم. علّي أفعل اليوم ما سأخرج من تحت التراب كي أفعله بعد ألف عام. علّي أضحك الآن وألعب و أرى الأرض، وأقول الكلمة التي أرغب في قولها، وأطبع قبلي على فم الحياة. فُبلٌ كثيرة مطبوعةٌ على موتي. لكنني أريد قبلة واحدة للحياة.

قيل، الحلم يشفي من مرض الكلام. يجد الزمن الضائع ويوجد المكان. قبلة الشبق الجميل، رتّة ساعة النبع الباهرة، وعين النهر. وقيل، مهما خبا الحلم في العتمة مهما هُزم في الضوء سيصير ذات يوم، فرسنا، أثاث بيتنا وكسوة جلدنا. سيصير لحمنا نفسه، وعظامنا.

وهمَّ آخر يضاف إلى تراث الشعوب. كلمةٌ أخرى خائنةٌ في اللغة.  
خيمةٌ منكسرة، يحتمي بها المهزومون، في تاريخ حروبٍ طويلةٍ كلُّ  
مقاتليه منكسرون.

... لتكن الأحلامُ عمياءَ فلا تراني وأنا ألقى مصيري بين السناكب.  
وليكن خنقُ الأحلامِ رايتي وأنا أخوض هذه المعركة، فأصِلَ إلى  
الهزيمة وليس برفقتي كائنٌ بريء.

يحارب الكتَّابُ بالأحلام والكلمات، ويسقطون تحتها. ينهزمون  
بالأسلحة التي يحاربون بها. يموتون في معركةٍ أعداؤهم فيها هم  
نواثمُ نفسُها.

ينهزم الكتَّابُ بأطيافِ حَمَامِ الأحلام. بزجاج الكلام الشفاف،  
المشطى في أفواههم. حين يتلفظون بكلمةٍ يُجرِّحون، يختنقون...  
حين يتكلمُ الكتَّابُ يبتلعون الزجاج.

أحملُ ثنيةَ ورقة، كتبتُ بضع كلمات عليها، محاولاً بها أن أهزم  
التاريخ!

ثنية ورقة، أحاول بها أن أوجد المكان والزمان. أن أمحو عذمي،  
وعدمَ آبائي وأجدادي، وأجعلُ أحلامهم تولد وتلعب معهم،  
وعظائمهم تعود، وفكوكهم المبعثرة تلتحم.

ثنية ورقة!

وبين الطيِّة والطيِّة قصور ممالكنا، سبايا أمكنةٍ شَرَدَتْ ثم التقطناها  
ونحن نغني، سفنٌ تبحر على لعاب رغباتنا، ولهيبُ شَيِّ الأشرعةِ  
حتى لا يكون بعدنا بحر.

ثنيةٌ ورقة، ثنية وهم، غيمٌ بعيد، نحطمه بأحجار عيوننا.  
فليرأف الكتابُ بحياتهم، هذا الطائر الذي يحاول أن يلمسهم  
فيقتلونه.

ليرأفوا بحياتهم فلا يأخذوا البريء إلى المشنقة.  
كان يمكن أن نأخذ حياتنا في نزهة. لكننا أخذناها فوراً إلى  
المعركة. حتى أننا لم ندعها تقطف عن الطريق زهوراً كي يكون  
لها رفاق تحت الكفن.

كان يمكن أن نتسلَّح بالجنون. أن نقتل العقل لننجو.  
رأينا في طريقنا مجانين سعداء وحيواناتٍ هائلة. ولم نسمع الشجر  
يصرخ تحت فؤوس الحطَّابين، بل سمعنا الحطَّابين يئنُّون وهم  
يقطعون الشجر.

كان يمكن قتلُ الذاكرة ومرافقة الطيور. تطوافُ الأرض معها من  
دون ذاكرة الوصول.

كان يمكن قتلُ ذاكرة الرغبة، ذاكرة المكان، ذاكرة الخلاص، ذاكرة  
السعادة، ذاكرة التاريخ... وذاكرة الحياة!.

كان يمكن قتل ذاكرة البحث عن الحياة وعيش الحياة نفسها. كما هي. من دون هواجس اختراع أوهام لتغييرها، ولا ألوان لتجميلها، ولا أطر لاحتوائها، ولا مكابح لانجرافها الفظيع. كان يمكن عيش طوفان الحياة بلذّة، فقط لو استسلمنا له صامتين، بلا مقاومة و لا كلام و لا أحلام. لا يحيا سوى الذين نسوا لغة أجدادهم. الذين كسروا زجاج الذاكرة وارتموا في النهر. الذين نسفوا الملاجئ المقدسة وساروا في المتاهة.

لا يحيا سوى الذين رموا آباءهم في الآبار. لم ارح أحدًا في البئر ولم أكسر شيئًا. هل أنا ميتٌ إذًا؟

عميقًا في العتمة، عميقًا في الحفرة، تعيش البذرة بالصمت. الصمت ينميها، الصمت يحفظ لها الحياة. ما أن يُطلَّ برعمٌ منها على الأصوات حتى يبببس، ما أن يُطلَّ على الضوء حتى يحترق. في هذه الحياة الداخلية كان يجب العيش بلا عين، بلا فم ولا أُذنٍ ولا يد. الأشياء تكبر وتصغر بلا إيماءة من أحد. بإيماءة العتمة وحدها، العتمة التي لا تومئ.

هناك حاولتُ أن أبني بيتًا وتكون لي حديقة. لكن الحجارة كانت دائماً تنهار. ليست الأيدي هناك ما يبني بيوتًا. هي سهواً ترتفع، و إرادة البناء تهدمها.

كانت لي خيولٌ هناك، تأخذني في المجاهل الجميلة. تنادييني بهمسٍ لا يُسمع، بإشارةٍ لا تُرى، فأمتطئها.... وأن أردتُ سياسةً خيولي، سقطتُ ميتًا بحوافرها. عميقاً في العتمة، هناك المكان. حيث نحن الحديقة و البيت. والآخرون اختراعنا.

هناك نحن، والآثنا الخفيّة الغريبة التي تفقّس الغراء. لا ممرٌ للآخرين من هناك. فقط نخلقهم و ندفنهم. نخترعهم بشراً غير حقيقيين، لنلهو معهم، ليكونوا لعباً فقط، ثم ندفنهم. بالآلة ذاتها التي تخترع الغراء أُحاولُ اختراع نفسي أيضاً. في هذا المكان المعتم العميق، حيث لا إشارة لولادة ولا لموت. حيث لا إشارة، حتى لمكان.

لكن، الآخرون وحدهم يمكن اختراعهم، أما ذاتنا فلا. هي تولد في مكانٍ بعيدٍ منا، وتعيش في مكانٍ بعيدٍ وتموت في مكانٍ بعيد. يمكن، أحياناً، إذا اقتربتُ، أن نلمحها. نعيش قبالتها مغمضين، ولا تفتح أعيننا على اتساعها إلا أن تقول الوداع. هل الكلمة هذه، هل قولُ الوداع هو ما يجعلنا نرى؟

هل هذه الكلمة وحدها هي كلُّ الحوار وكلُّ الحضور؟ كلُّ الزمان  
والمكان والحياة؟ هل هذه هي الكتابةُ كُلُّها والنصُّ كُلُّه؟  
إذن، لا يكتبُ الكتابُ غيرَ غيابهم؟  
لا يعيشون إلاَّ غياب مكانهم وغياب زمانهم؟  
و الرؤية، هل هي مجردُ انعكاس الغياب؟  
كيف لنا أن ننبئَ إذن وجودًا من هذا العدم؟  
كيف للكتاب أن يكتبوا حضورًا لا غيابًا؟  
وما يرونه، كلُّ هذا الذي يرونه، مجردُ لمعانٍ داخليٍّ متوهِّمٍ لعدمٍ  
يظنُّونه وجودًا؟  
هل يعني هذا، بالأحرى، أنَّ الكتابَ لا يكتبون غيرَ موتهم؟ غيرَ  
وهم وجودهم و حقيقةَ عدمهم؟  
... وإذًا، هل الكتابُ حقًا موجودون؟  
بالآلة الغريبة ذاتها يحاول الكتابُ اختراع أنفسهم. فلا يخترعون  
غيرَ صورٍ لغرباء، صورٍ لغائبين.  
الكتابةُ لا شيءٌ إذًا سوى كتابة الغياب. الكتابُ هم: غيابُهم.  
لأنزلَ إلى أسفل النبع و أغسلُ وجهي، عَلَيَّ أصحابو من هذا  
الغياب.  
أطقتُ أوهامي عاليًا جدًّا، أعلى من هذا الفضاء الذي لي، فشردتُ  
و ضاعت مني.

لم أكن أملك غير هذه الأوهام. وحدها كانت ملكي. لكن حتى هي  
لم تعد لي. فلأنزل إلى أسفل النبع وأغسل وجهي.  
على البشر أن يحتفظوا بأوهامهم، أن يداروها فلا تغادرهم.  
سيحتاجون إليها لكي تؤنسهم.  
على البشر ألا يزجروا أوهامهم. فليحضنوها بحنان، وإلا ماذا يبقى  
لهم؟

الأوهام حياتنا. فلنحتفظ بها لكي تكون لنا حياة.  
سباني الوهم صغيراً وطار بي، حتى خلت نفسي الطير وكل  
الأرض شجرتي.  
أردت تقويم المناخات و تقليم العواصف وجرّ نتوءات الجبال  
ومجاهل الأدغال وعملت ليلاً نهاراً على ترويض الأرض موهوماً  
وسعيداً.

هزمت لكنّ وهمي كان يسعدني.  
وأن اكتشفت أنّ وهمي وهمّ، أنّ لم أعد أقنع نفسي بوهمي، خررت  
صريح يأسى.

الوهم إذاً هو السعادة. والحقيقة هي اليأس.  
فلنحتفظ بأوهامنا ولنزدها. لنبحث عن وهم آخر كلما ضاع وهم.  
لنخترع أوهاماً، وإلا كيف يمضي كلُّ هذا الوقت!  
الوهم نعمتنا، إلهنا الوحيد، فلنقدسه.

الناس، هُم وهمهم.

بعد كلّ هذا الدوران في فراغ، فلتخرُج على الأقلّ كلمةً من فمي،  
وتدلّني إلى الطريق.

لتسبّغني وتدّلّني إلى النبع، حيث عليّ أن أغسل وجهي.  
لتنطق كلمةً حادةً من فمي وتنقب العظمة. لتفتح كوةً إذا كان عليّ  
أن أرى، منفذاً إذا كان يجب أن أخرج، درباً إن هناك عبور.  
كلماتٌ كثيرةٌ خرجت من فمي. لكن، ما جدواها؟ كلماتٌ لا تُحصى  
درات في فراغ. لو رُصِّفتُ لكنتُ أملك جبلاً. ولكن من رماد.  
ما جدوى جبال الكتّاب المرمدة هذه؟ ما دام الرماد لا يدفى، لا  
يضيء، لا يصلح لبناء غرفة، ولا للمشي عليه.

أليس على الكتّاب و الناس أن يتدفأوا بصمتهم؟ أن يعرفوا أن  
الصمت هو غرفتهم الوحيدة، ووراءها لا حديقة ولا طريق؟ لماذا  
إنّ يهدمون هذا الهيكل، هذا الصمت المقدّس، وينامون عراةً في  
الكلام، مرتجفين من البرد وخائبين وخجولين؟  
حين يتكلّم الناس بيردون، يمرضون. تتفتّق المعاطف التي سترت  
أرواحهم، وتعرّض أنفسهم لأبيئة الهواء وعوراثهم للعوام.

حين يتكلّم الناس يرصفون أمراضًا. يرصفون هلوساتٍ وسرطانات. يسكنون فيها وتسكن فيهم وبينون مدنًا. وتصير مدنهم وسكّانها تحت نير ظلم الكلمات. تصير مستعمراتٍ للأصوات. سبايا للنطق، وسبايا للرؤية، وسبايا للكتابة. تصير كلّ التعابير في محاكم التفتيش. ويُعدّمون جميعهم في ساحات الكلام. في الساحة التي قالوا فيها كلماتهم، والساحة التي ظلّوا فيها صامتين. جحافل كثيرة مرّت حوافرها فوق كلماتنا. دهسّتها قبل أن ننطق بها، دهسّتها حتى قبل أن تولد.

لذلك حين نتكلّم لا نقول غير الممعوس من أصوات الأجداد. نقول اللغة المغزوة، اللغة المسبّية، اللغة القتيلة التي لا يطلع من حنجرتها غير حشرجات، غير أصوات ناقصة، وغريبة. حين نتكلم، نرصف جثثًا.

ليست لدينا لغة. لدينا حشرجات، من لغة قتيلة، غابرة. شبه أصوات زحفت إلينا من موتانا، عبر المتاهات، عبر آلاف السنين، غامضةً وغريبة.

ليست لدينا لغة. ولذلك لا اتصال مع الآخرين. لا اتصال مع ذواتنا.

وإذا كنا لا ننصل، لا نتلاقح، كيف تكون لنا ولادة؟

هل نحن إذاً نتاج مياتٍ متكررة، لا نتاج ولادات؟ ولن تكون لنا لغة، لن تكون لنا حياة، إلاً بانبعاث القتلى؟  
ألن تكون لنا لغتنا و حياتنا إلاً إذا أعدنا الحياة إلى الذين قتلناهم، وقتلتهم اللغة، وقتلهم التاريخ؟  
لكن، أليس في هذا الانبعاث ذاته ما يجدد الحلم بالنوم الأبدي؟

هناك أحلام، أحلام صغيرة، قبضتُ عليها وأنا أقفز فوق النهر.  
كنتُ أقفز تقريباً مشتعلًا، وقطعُ أحلامي كانت نثارَ هذه النار.  
حاولتُ التقاط البقايا الحارقة لذاتي، الجمرَ الذي لم يصرَ رمادًا  
بعد، مُشكِّلاً به صورةَ طيرٍ فوق نهر.  
لم أكن أنا القافز فوق النهر بل الصورة. الشبهُ المتخيَّل، المرجوُّ،  
الموهوم.

ولم يكن هذا النهر من ماء، بل من لمعانٍ صفيحٍ روحي على  
الصحراء.

لا ماء هنا ولا طير. فقط حلمٌ ريشٍ ورجاءٍ ظلّ. ومَن كان واقفًا في  
هذا المكان ليس أنا. ولا شبيهي ولا ظلِّي. والرطوبةُ هذه، العفونةُ  
هذه، ليست نداي. والمتطائر، فوق، ليس جناحي.

هذا الشخص الذي ترونه الآن، الذي تقرأونه هنا، ليس أنا. هو  
شيءٌ آخر، مركَّبٌ من كلماتٍ قديمةٍ رُصفتُ خطأً بعضها فوق  
بعض. وَصَلَ إلى هنا، هكذا بالصدفة، على حمالةٍ لغةٍ مريضة.

وَصَلَ إِلَى الْمَرَضِ، إِلَى الْمَسْتَشْفَى وَ الْمَخْتَبِرَاتِ، وَكَانَ ذَاهِبًا إِلَى  
مَكَانٍ آخَرَ، إِلَى الْحَقُولِ، إِلَى الشَّوْاطِئِ، إِلَى الْمُقَاهِي كِي يَشْرَبُ  
نَبِيذًا وَيَغْنَى.

كَانَ فِي ظَنِّهِ أَنَّ الْأَصْوَاتَ تُولَدُ لِلغَنَاءِ لَا لِلصَّرَاحِ. لِلنَّشِيدِ لَا  
لِلحِشْرَجَةِ. وَأَنَّ الدَّرُوبَ تَطْلُبُ رَقْصًا لَا عِبُورًا.

ظَنَّ الطَّرِيقَ لَا لِلْمَشْيِ بَلْ لِلنُّومِ. الْمَشْيُ يَحْدُثُ وَحْدَهُ وَنَحْنُ  
جَالِسُونَ أَوْ نِيَامُونَ. الْعِبُورُ يَتِمُّ بِلا حَرَكَةٍ، مِنْ دُونَ انْتِقَالِ، مِنْ دُونَ  
يَقْظَةٍ.

ظَنَّ أَنَّهُ جَاءَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَقْعُدَ لَا مِنْ أَجْلِ أَنْ يَمْشِيَ. إِذَا كَانَ عَلَيْهِ  
أَنْ يَمْشِيَ كُلَّ الْوَقْتِ وَيُتْعَبُ قَدَمِيهِ هَكَذَا بِلا جَدْوَى، لِمَاذَا إِذَنْ  
يَجِيءُ؟ الْمَشْيُ لَيْسَ مَبْرَرًا كَافِيًا لِلوَلَادَةِ. ثَمَّةُ خَطَأٌ حَدَثَ بِلا شَكِّ،  
وَوُلِدَ سَلْسَلَةٌ طَوِيلَةٌ مِنَ الْأَحْدَاثِ الْخَطَأِ. فِي الْبَدءِ لَمْ تَكُنِ الْكَلِمَةُ  
إِذَنْ، وَلَا اللهُ، بَلْ كَانَ الْخَطَأُ. وَالْخَطَأُ وُلِدَ أَخْطَاءً، كَانَ مِنْهَا الْكُونُ.  
كَيْفَ يُمْكِنُ أَحَدٌ كَلَّمَ الْكَمَالَ أَنْ يَخْلُقَ كَوْنًا بِهَذَا النَّقْصِ الرَّهِيْبِ؟  
قِيلَ الْكُونُ صُورَتُهُ. أَيْنَ هُوَ أُرِيدُ أَنْ أَرَاهُ، أُرِيدُ أَنْ أَعْرِفَ إِنْ كَانَ  
فِعْلًا بِكُلِّ هَذِهِ الْبِشَاعَةِ!

الْخَطَأُ انْبَثَاقُنَا وَمَكَانُنَا. إِنَّهُ لَعَثْنَا وَمُكَلِّمُنَا، وَفِي حَنْجَرَتِهِ قَنْبَلَةٌ تَكَادُ  
تَنْفَجِرُ، أَرْضٌ حَائِرَةٌ لَا تَعْرِفُ كَيْفَ سَتَدْفِنُ سَكَّانَهَا.

عليّ أن أعبّرَ هذا الجسر. الكلمات التي أرسلتها كي تعبر عني سقطت في النهر، ولست نائماً كي يعبر حلمي عني. كيف يمكن عُقد صلحٍ بين الإقامة والعبور، بين الجسر والسقوط، بين الكلام والماء؟

عليّ أن أعبّر، أو أن تكون لي ريشة الممسوسين فأرسم كوناً جديداً، كائناتٍ تأتي وتذهب مثل نسيم، لا آباء لها ولا أولاد، لا ترث ولا تورث.

ريشة ممسوسين ترسم اللهبة الرائعة لعدم استدعاء شيء، فيأتي على بريقها كل شيء منتشياً بالمجيء والنسيان.

كونٌ له بابٌ خفيف، تلمسه لمساً خفيفاً فينفتح، تلمسه فينغلق، وأنت فيه غير مرئيٍّ وجميل. أنت فيه خفيف فلا يُتعبك حملٌ ذاتك، وغير مرئيٍّ فلا تزيد رؤيةً نفسك من حملتك.

بريشة الممسوسين وحدهم، لا بريشة الأسوياء والعقلاء. كونٌ لا عقل له وليس سوياً. لا أخضر ولا أصفر ولا أحمر. أبيضٌ كي لا يرنح لونٌ تحت ثقلٍ لونٍ آخر إذا عبّر عليه. أبيضٌ كي لا يكون تذكرٌ ألوان. كي لا يكون تذكرٌ عبور.

كونٌ ممسوسين. لا هدف لهم إن أقاموا وإن عبروا. ممسوسين لا أصوات لهم، كي لا يرتطم صوتٌ هذا بصوت ذاك. كي تبقى

الساحة فارغة، صامته جميلة. ممسوسين لا يرسلون أصواتاً، كي لا يكون لهم في الفضاء أولاد.  
كي لا يبقى لهم أثرٌ ولا إرث.  
بلا اصوات، لنلا يرث الآتون لغةً الراحلين. فيتحرر الآتي من كلام الذاهب ويخلقُ لغته بنفسه، والراحلُ يذهب براحةٍ لأنه لم يترك أيَّ عبء.  
لنلا يكون أحدٌ ابنَ أحد، ولا يكونَ آباء.  
كونُ يأتيك خلسةً دون أن تراه، وتذهب منه خلسةً دون أن يراك.  
في الرؤية مرافقة، شخصٌ آخر، نظرات.  
في الرؤية ضيوفٌ لا تتوقَّع مجيئهم وبيئتكَ فارغ. في الرؤية واجبات، خجل، إدانة.  
أرسمُ بريشة الممسوسين كوناً ممسوساً، طيباً ونحيلاً يقعد تحت شجرة ويضحك. يمتزج بالنسيم، يبتسم، ويموت.  
كونٌ لا يُرسم بحبرٍ مرئي، بل بالبياض... ولذلك لن يُرسم، ولن يكون.

ماذا نفعل بما ورثناه من كلمات؟ أين نضع كلَّ هؤلاء العجزة وبيئتنا لا يتسع حتى لنا؟  
كيف نحفر المقبرة العظمى وأين؟

الأرض والفضاء مزدحمان بالأصوات. أين نحفر ولم يبقَ مكان؟  
أم أن علينا، بهذه الكلمات نفسها، أن نحفر المقابر للكلمات؟  
كلماتٌ نحن خليطها، أطفالها، لقطاؤها. كيف نحفر لها القبر ولا  
ننام فيه؟ أم أن ذاك الكونَ الجميل، المرسومَ بريشة النسيم، شرطُ  
وجوده موثناً؟

لتكن لنا إذن نعمة نسيان الجمال، نعمة موت الأحلام. الوقت يمرّ  
خفيفاً هكذا، بلا انتظار.

لتكن لنا نعمة اليأس، نعمة رضى الطيور المخدولة، العالية  
والبعيدة، النائبة عن التطلع إلى الوليمة. ليكن لنا جمال الفريسة،  
رضى العجز عن الإفتراس، مسحة الجمال الأخيرة للضحية، بسمة  
قبول الدم.

لنقلب المقاييس، فنُقِم للنصر ندباً وللهزيمة زغاريد. لنستهجن العادة  
التاريخية السمجة، افترازَ الثغر عن بسمة وقت الفرح، جاعلين  
النقاط الساقطة من العيون علامةً للغبطة، شعاراً لمهرجان  
الانقلاب العظيم على التكوين.

نغيّر كيمياء الروح، هذه التركيبية السيئة التي أثبتت، على مدى  
التاريخ، أخطاء تكوينها.

نجعل الفشل هدفاً، الكسل إنجازاً، العمل مضيعةً للوقت، العذابات  
صديقات، ورفض الحياة قمة عيش الحياة.

نقلب كيمياء الروح، فينتقلُ عددُ الأعداء.  
نحفر المقبرة العظمى، ونحتفل بمهرجان الانقلاب العظيم على  
التكوين.  
نقلب كيمياءنا إلى نبات، فيصير في داخلنا شجرٌ صامتٌ وعشبٌ  
رقيقٌ عوض الدم الصارخ واستفحال العروق. نقلبها جماداً هذه  
الكيمياء، فيصير ثمة حجرٌ يمكن الجلوس عليه.  
إننا نحول أنفسنا جماداً! أيُّ نصرٍ عظيمٍ هذا على شريعة التكوين!

برداءٍ عتيقٍ أَلْفُ الكلماتِ وأخذُها معي رقيقةً الطريق. الرداءُ نفسه  
الذي حمله أبي، نفسه الذي حمله أجدادي.  
أقول رقيقاً فيخرج من الرداء قاطعُ طريق، أقول فما فتخرج حبةً  
جليد، أقول سمكةً فتخرج أفعى، أقول قلباً فيخرج قبر، أقول حلاًماً  
فيندلى مشنوق...

هل الكلمات، إذًا، دلالةٌ نقيضها؟ فقط رغبةٌ قولٍ دفينه، ما أن  
تخرج حتى تصير فعلاً آخر، لا علاقة له بالقول ولا بالرغبة؟  
هل كانت هذه الكلمات كائناتٍ حيَّةً ذات يوم، ثم ماتت، ونحن  
اليوم لا نرى غيرَ طيفها، وما ننطق به هو فقط شبحُ روحها  
الهائمة؟  
كيف زحفتُ هذه الأطياف، عبر آلاف السنين، في الوحل و النار،  
كي تصل إليَّ و أعتقد أنها جاءت لكي تبني حياتي؟ والآن، هل

أنا الآن أتكلّم موتاً أم حياة؟ هل أنا حيٌّ ويخرج من فمي موت؟ أم ميّت وما يخرج من فمي هو لثغ الحياة؟  
بالحجارة القليلة التي في فمي أحاول أن أبني حياةً بعدما رصفتُ أياماً كثيرةً من الموت. أحاول أن أخترع كلماتٍ لا تكون دليلَ نقيضها. حين تخرج من فمي لا تكون رغبةً في القول بل فعلَ الرغبة. أحاول حين أقول سمكةً أن تأتي سمكة، حين أقول رقيقاً أن تصير رغبتني جسداً وأرى الرقيق، وحين أقول قلباً أن يأتي إليّ بائع الزهور.

ولكن، لكي يكون ذلك، ألا يجب تغييرُ كيمياء الكلمات، وتغييرُ كيمياء الناطقين بها أيضاً؟

أم أنّ اللغة ليست هي الرغبة، ولا الفعل، بل النثارُ الباقي من ذواتنا المحطّمة؟

أبحثُ عن مكانٍ آمنٍ لهذا النثار، مكانٍ يحفظُ لي كسورَ نفسي. لكنه لا الهمس ولا الصراخ. لا اللغة ولا طيفها. لا التوق و لا الذكرى. ماذا يكون إذن، هذا المكان الآمن لنتار الذات وعظامها، غير القبر؟

هو ليس الهمس لأن الهمس لن يُسمع في ضجيج الارتطام الفظيع للنجوم والمذنبات البائسة في القلب. وليس الصرخاتِ لأنّ هذه

الانفجارات، كلُّها، لن تسفر عن كائنٍ حيٍّ. ولا اللغة ولا طيفها ولا التوق ولا الذكرى، لأن هذه ماتت أيضاً.

هل المكان الآمن إذاً هو فقط، المكان الصامت؟ الصامت والجميل لأن لا لغة كي تكشف عوراته؟ لأن العورات لا تظهر إلا بالكلام؟ لأن لا عورات إنما الكلمات توجدُها؟ هل الجمال إذاً لا شيء سوى الصمت؟ ولذلك هو ليس جمال المكان، إنما جمال العدم؟

إمنحوني عدماً. أريد الجمال.

هناك قد أسمع كلماتٍ أخرى، تصلُّ اللغةُ الناعمةُ مثل ريش عصفور، ترتطم بي ولا تؤذيني.

تصل نبرةُ الكلام بلا نبرة، تدخل الفراغ، انعدام الجاذبية، مترنحةً سابعةً خاليةً من ثقلها.

هناك قد أسمع أصواتاً جارحة، آتيةً من وهم الأمكنة الأولى، لكنها تصل فاقدةً شفراتها، فاقدةً معناها، وتمرُّ عليَّ مرور النسيم الخفيف.

حين تدخل الكلمات إلى هناك تتوحد معانيها، تصير اللغة الجميلة: لغة عدم الوجود.

ثمة مساءتٌ ترتجف في الكلام. أشباحٌ في اللغة. قتلى قدامى.

في الحناجر انحدرات. انهياراتٌ في مخارج الأصوات.

ومن يشفع بالساقطين في هذه الانزلاقات سوى آخر الأحجار في  
الوادي؟ الأحجار التي تسجّل وصولهم بالدم.  
هناك موتٌ أكيد في الكلام. دمٌ واضح.  
هناك وادٍ وأحجار، وأجسادٌ مستلقية عليها.  
هناك قتلٌ، قتلٌ فظيعٌ، في اللغة.  
إننا نُقيم في مجزرة!  
وكَلِّمنا ازداد عدد الجزائرين.  
فلنصمتُ إذن، علَّ الصمت يقلل من الأعداء، علَّه يقلل من هذا  
الموت. فلنصمتُ، علَّ أحجار الوادي تبقى بيضاء.  
في الصمت الأبيض نضع كرسيًّا أبيض ونجلس غير مرئيين. في  
انعدام الرؤية وجودٌ بهيٍّ، في انعدام الصوت لغتنا.  
حين لا نرى الآخرين يكونون جميلين حقًّا. حين لا يتكلمون،  
نفهمهم.  
في غياب الرؤية و الكلام، وجودٌ موحدٌ ولغةٌ موحّدة.  
إنهم رائعون حقًّا هؤلاء الغائبون. وواضحون جدًّا البكماء. فهل من  
أجل البشاعة، والضباب، نحضر ونتكلم؟  
في الساحة، في المساء، من ينفخ في زجاجة، من يريد أن يعبئ  
شيئًا، في زجاجة الوقت الفارغة.  
واحدٌ مجنونٌ في الساحة، يريد أن يملأ زجاجة الوقت بلهائه!

بخارٌ في الوقت، بخارٌ في الزجاجِ المكسورة، في الساحةِ في  
الرؤيةِ في الصوت.  
وبهذا البخار على الزجاج نرسم عالماً، أصدقاءنا، رفيفَ نظراتنا  
وهي تختفي في الفضاء.  
بخار، وريحٌ عاتية.  
الذين لهم لهات، يَنزلون قطراتِ نحيلة، ويتبددون.  
الذين هم لهات، لا يعيشون رطوبتهم، وما يتنفسونه: عدمهم.  
ليكنْ عمىً لكنْ ليس بخاراً. ليكنْ بُكْمٌ لا أزيزَ أصواتٍ وحشرات.  
وإذا كان هناك موتى في الهواء، فليكن لهم دمٌ آخر. دمٌ أبيض، دمٌ  
نومٍ عميق، بلا أبواب، ولا شرفاتٍ تطلُّ علينا.  
كنا، دائماً، نحاول مزج روحنا بالهواء، علَّنا نرتفع، ونغيب.  
علَّ هناك فيزياءٌ حركةٌ أخرى لأجسادنا، نلتقطها في الفضاء.  
كنا نحاول أن نقلد الطيور، تلك التي عناصرها تفوّت على  
عناصرنا، ليس في الانتصار على ثقل الجسد وحده، بل في إلغاء  
المكان، والذاكرة، والوقت.  
إذا كان هناك موتى في الهواء، فالطيور لا تراهم. تعبرهم، كمن  
يعبر سريعاً في غبارٍ خفيف.  
الموتى يجلسون معنا. نتنفسهم. نرى عبرهم. ولا نحادثهم فحسب،  
بل ننطق بلسانهم.

ليس للموتى كياناتٌ مستقلةٌ انفصلتْ وغابت عنا. إنهم نحن،  
أجسادنا وأرواحنا. وإذا كان علينا أن نُميتهم حقًا، فلنمشِ بهدوء  
نحو الموت... لا يموت الموتى، إلا بموتنا.

زَرَعْنَا، على مدى آلاف السنين، القمحَ الكاسد الذي نراه الآن بين  
أيدينا. زَرَعْنَا و حصدنا والآن وقت العودة، وقت الغروب. فلنعترفُ  
بكسادنا و نَعُدُّ إلى البيت. لنَعُدُّ، متواضعين، إلى عدمننا.  
لا بذورٍ أخرى كي نحرف هذه الأرض من جديد ونزرعها. فلنعترف  
بفساد الزرع و فساد الأرض، ولنمضِ أيامنا الأخيرة جُلوسًا أمام  
هذه الحقول، كي نودّعها براحة.

فلنعترفُ بفشلنا. على البشرية أن تعترف أخيرًا بالفشل.  
هل كان كلُّ هذا التاريخ فقط من أجل رصف طبقاتٍ من الجدران؟  
جدار المكان، جدار الذاكرة، جدار الكلام، جدار اللحم، جدار  
الحب، جدار الذات، جدار الآخر، جدار الحضور...؟

هل كنّا، كلُّ هذه السنين، بنائِي حيطانٍ فقط؟  
وُلِدْتُ وحشةُ الأرض فبنينا حيطاننا في البراري. وُلِدْتُ مدنيَّةُ  
الأرض فبنينا حيطاننا في التحضر. وُلِدَ الملوك فهدموا بيوتنا وبنوا  
منها حيطانًا كحلّوها بالدم. وُلِدَ الأنبياء فأقفلوا ساحاتنا مالتينها بدم  
الأرواح، ودهسين زهرة كُفّرنا، أجملَ زهرةً في الأرض.

فلنستسلم إذن لهذا الجرف، ما دمننا صرنا رُدْمًا. ولنترك على أحد الأحجار علامة، حتى إذا عدنا، نعرف أين نبيت.

قبيلة الروح راحلة، حملتُ حقائبها ومشت، في الرحلة الأخيرة. رحلة لم يبق فيها غير آخر المهزومين. بعض ناسها ماتوا، وبعض ناسها قُتلوا، والآخرون هجروها، ولم تبقى ماشية لها ولا بغال ولا كلاب. قبيلة الروح انقرضت.

مَنْ كان هنا يشهد أنها كانت جميلة. ترقص تحت ضوء الشموع وتغني، وينزل من نظراتها سحرٌ على الضيوف. مَنْ كان هنا يشهد، لكنَّ القبيلة رحلت، ولم يعد عندنا حتى ضيوف. قبيلة الروح ودَّعت آخر أصدقائها، القابعين في الزوايا، وغابت. وكان عليّ، أنا القابع في زاوية، أن أسجّل على الأقلّ آخر خطواتها، آخر نظراتها، لكنني فشلت، حتى في تسجيل هذا الغياب.

لا الحضور حاضرٌ ولا الغياب يمكن التقاطه. لا يمكن حتى وصفه أو كتابته. كيف إذن أكتب نصَّ الغياب؟ كيف يصف العاجزُ عن الحضور غيابَه؟ كيف يعجز حتى عن أن يكون غائبًا؟ والقابعون في الزوايا هل عليهم، كما الظانون أنهم في الساحات، أن يشهدوا فقط للعدم بالصمت؟

إننا نُقيم مآدبةَ عامرة للعدم، لا يأكل هو منها، ولا نحن نأكل!

لكن، أليس الوجود هو الوجبة الدسمة التي لا يأكل منها أحدٌ  
أيضاً؟

قبيلة الروح رحلتْ جائعة. ما اعتقدته طعامها كان طعمها،  
صنارتها. ما اعتقدته روحها، وواجب إقامتها، كان سُمها. قبيلة  
الروح ماتت مسمومة، ماتت كالسمك، معلقةً فوق مائها. قبيلة  
الروح ماتت في الهواء.  
ماتت القبيلةُ فلنتابع المشي. نجرُّ معنا بغالنا المفصودةَ الروح،  
الميتةَ لكنْ علينا أن نجرّها، لا لحمولةٍ ولا احتفاظاً بذكرى، بل لأنْ  
لا شيء نفعله على الطريق.  
نمشي... ونتسلّى بجرّ البغال.

كيف نغيّر كيميائنا، كيف نغيّر فيزيائنا، كيف نجد مكاناً، زماناً،  
كيف نحضر، كيف نحيا؟.... وإنْ تكن هذه كلّها مستحيلة، ماذا  
نعمل كي نغيب؟

أقبضُ على الوهم الأول الذي وضعني هنا، وأضعه أمامي. أُجرّده  
من حجّة الكلام وحجّة الفعل وحجّة تركيبه بعناصره. أفكّكه من  
عناصر وهمه وأركّبه من عناصر وهمي. أجعلُ مبتدأه يصير  
خبري. أمحو رغبته في انتهائي، وأرسم رغبتي.  
بالوهم الخفيف الجميل أُغيّر كيميائي وفيزيائي. وكالوهم الخفيف  
الجميل أصير خفيفاً وجميلاً. لا حملٌ على كتفي، ولا في روحي.

لذلك يمكنني أن أطيّر، يمكنني أن أعلو، ولا يكون لي ظلٌّ ينوء تحته شيء، ولا لون يثقل على لونٍ آخر.

أُغيّر بالوهم فيزيائي وكيميائي، وأطيّر.

فلتخفق الأجنحةُ وتعلُّ، فوق أرضٍ لم تعد لي شراكةً فيها ولا مكان. أجنحةٌ عصيّةٌ على الرؤية ولا تتوسّل هواءً كي تطير. خارج فيزياء العين وكيمياء الفضاء. مقدوفةٌ بجنونٍ هائلٍ ورغبةٍ أكثر هولاً حُقنتْ ملايين السنين وتنفجر الآن. تاريخٌ ينفجر، تكوينٌ بكامله، رغباتٌ كنتُ أظنُّها مجردُ أشياء صغيرة في القلب، وإذا بها مجرّات.

أعلو عاليًا بلا كلام بلا نظرةٍ بلا رسالة. الكلام والنظر أيضًا أصابهما الانفجار وتغيّرت عناصرهما. لم يعد الفم والأذن شرط الكلام، ولا العين شرط النظرة. لم تعد الأحرف شرط الكتابة، ولا أن يكون متلقٍ ومُرسلٌ شرط اللغة. امتزجت اللغةُ والعين والأذن بالهواء. جَرَفَ كلُّ شيء جنونٌ هائل، حتى امتزج النقيضُ بنقيضه، واختلطت الألوانُ والمسافات، فلم يعد لونٌ ولا مسافة، واستدار المستطيل، فصار الكلُّ في مركز الدائرة، لا بدءٌ ولا منتهى، لا أعداء ولا أصدقاء، تعانق القتلى مع قاتليهم، فلا موتى ولا أحياء، نزل الجميعُ إلى مركز الدائرة، رقصوا في حلقةٍ واحدةٍ وطاروا.

تساوى كلُّ شيء هنا في رأسي. اتَّحدتِ العناصرُ كلُّها، الناس والنبات والحيوان والأحلام والأوهام. صار الجميع سواسية، الحي

والميت والحاضر والغائب والبارد والحار والناخز والمختفي. فككّتهم  
ركبّتهم ساويتهم. خالقهم لم يساؤهم لكني فعلت. وهمي غلب  
الخالق وهمي غلب الأرض.  
أطير خفيفاً، منتصراً على ثقل عناصري وثقل التاريخ وثقل المكان  
وثقل الأشياء. أطير بعناصر رغبتي: بغياب الرغبة وغياب  
العناصر. خفيفاً فوق أرضٍ لم تعد لي شراكة فيها. أرض غلبتها  
بوهمي، بتغيير عناصرها، بتجريدتها من جاذبيتها وجعلها تدور في  
جاذبيتني. غلبت الأرض جعلها كوكباً في رأسي، لا في الأفلاك.  
أطير خفيفاً منتصراً على التكوين.  
أسبح في الفضاء، فوق بلدانٍ اندثرت. فوق بشر لم أعد وريثهم ولا  
عادوا نسلي. أطير وأنظر إلى الصحراء تحتي. إلى غياب الأمكنة.  
إلى استحالة أن ينزل الطائر بعد.  
أطير أطير، وأبتعد.  
أصير نقطةً محوّة... وأختفي.



8

غُبار

( 2001 )



## الغباريون

مقفرةً الطرقاتُ وهاتون وحدنا. الأرض صارت غبارًا وها نحن نكمل حياة الغبار.

إننا نكمل حياة غبار الأرض. هذا الذي يجب أن يكمل حياته أحد، وها نحن نفعل.

لا نكمل حياة الأرض بل حياة غبارنا. لا نكمل حياة بل موتًا. جننا لنرافق الغبار في هبوبه الأخير، نحمله إلى مثواه، وننام معه. ما كان الأرض لا يشبهنا. إنه نقيضنا ونحن أنقاضه. وما جننا لنكمل تلك الأرض بل لننقضها. ما جننا لنكمل بل لننقض.

لا دين قبلنا لا دين بعدنا لا دين لنا. غباريون بلا دين ولا متديّنين فليس للغبار غير الهباء. سابحون في فراغ. في الفضاء الذي لا الأرض أمه ولا ولده. في فراغ الأبوة وفراغ البنوة. إننا ذاهبون إلى الهنا، إلى العدم.

نحن الغباريون، و هذا ما رأيناه في هبوبنا، هذا ما كان شيئًا قبل أن يصير غبارًا، ما كان شيئًا قبل أن نصير نحن الغبار:

## جمال العابر

العابرون سريعًا جميلون. لا يتركون ثقلَ ظلِّ. ربما غبارًا قليلًا،  
سرعان ما يختفي.  
الأكثر جمالًا بيننا، المتخلّي عن حضوره. التارك فسحةً نظيفةً  
بشغور مقعده. جمالاً في الهواء بغياب صوته. صفاءً في التراب  
بمساحته غير المزروعة. الأكثر جمالاً بيننا: الغائب.  
قاطعُ المكان وقاطع الوقت بخفّةٍ لا تترك للمكان أن يسببه ولا  
للوّقت ان يذريه. مُدّرٍ نفسه في الهبوب السريع غير تارك تبنًا  
ليبيره ولا قمحًا لحقل سواه. المنسحب من شرط المشي للوصول.  
المنسحب من الوصول.  
العابر سريعًا كملكٍ مهاجر. غير تارك إقامة قد تكون مكانًا  
لخطيئة. غير مقترف خطيئة، غير مقترف إقامة.  
سريعًا تحت شمس لا تمسه، تحت مطر لا يبّلّه، فوق تراب لا  
يبقى منه أثر عليه. سريعًا بلا أثر ولا إرث ولا ميراث.

لم يُقَمَّ كفايةً كي يتعلَّم لغة. لم يُقَمَّ كي يتشرَّب عادات. لا لغة له ولا عادات ولا معلمين ولا تلاميذ. عابِرٌ فوق اللغة، فوق العادات، فوق المراتب والأسماء والافتداء.

بلا اسم، فوق النداء والمناداة.

وفوق الإيماءات، إلا إيماءة العبور.

وبلا صوت، لأن الصوت ثَقُلَ في الهواء.

لأن الصوت قد يرتطم بآخر. قد يسحق صوتاً آخر في الفضاء. قد يزجج النسَمات.

وبلا رغبة. لأن الرغبة إقامة، ثبات.

العابرون سريعاً جميلون. لا يقيمون في مكان كي يتركوا فيه بشاعة. لا يبقون وقتاً يكفي لترك بقعة في ذاكرة المقيمين.

الذين أقاموا طويلاً معنا تركوا بقعاً على قماش ذاكرتنا لا نعرف كيف نمحوها.

بقعٌ مؤلمة، أينما كان على المقاعد، بحيث لم يعد يمكننا الجلوس.

المقيمون طويلاً يسلبون مقاعدنا. يحولون أثاث بيوتنا إلى قِطعٍ منهم. بحيث نجلس، إذا جلسنا، على ضلوعهم، على عظامهم.

يسحق المقيمون المقيمين. أما العابرون فلا يسحقون أحداً ولا أحد يسحقهم. لا يطأون على كائنات ولا يُثقلون خطواً على أرض. حتى الهواء لا يلمحهم غير لحظة.

بلا قلق ولا ندم ولا آلهة ولا أتباع. إيماناً واحد لهم: العبور.  
المتخلّون عن الأمكنة والأوطان والآباء والبنين. كاسرو القيد.  
مخزّبو المشنقة المصنوعة من حديد المكان والزمان والانتماء.  
إنهم يتساقطون، الواحد تلو الآخر، المتشبثون بالإقامة. يتساقطون  
بأوطانهم التي صارت وهماً. بانتماءاتهم التي صارت كذباً. بأبوتهم  
التي صارت عبئاً. بايماناتهم التي تقتلنا، وتقتلهم، وتقتل الحياة.  
العاثرون لا ضحايا لهم. هل لذلك بات علينا، كي نمجّد الحياة، أن  
نمجّد عبورها بسرعة، أن نمجّد الانتحار؟  
بخفّة خفقة الطير وانفتاح النسمة للجناح. بخفة انفتاح هواء العبور  
واندمال هواء الانطلاق.  
عابرون سريعاً، كلحظة انقصاص.  
لهم من العصفور صوت، من الغصن نظرة، من الزهرة شميمٌ  
خاطف.  
عصافيرهم للغناء والرحيل، لا للسجن في أقفاص أو تأييدها  
محنّطاً في واجهات. طيورهم الروح المسافرة، لا الريش المقيم.  
وزهورهم العبق الشارد خارج الإناء.  
سوى المرتحلين، واللامبالين، والعابثين بالإقامة، والممسوسين،  
والموتى، من كان سيكتشف جمال العبور؟  
وأية لحظة تكتشف الحياة أكثر من لحظة الغياب عنها؟

هل لذلك تجب مصادقة الرحيل أكثر من مصادقة الإقامة؟  
وهل، لذلك، على حياتنا أن تكون، فقط، تمريناً على جمال الرحيل؟  
أجملنا الراحلون. أجملنا المنتحرون. الذين لم يريدوا شيئاً ولم  
يستأثر بهم شيء. الذين خطوا خطوة واحدة في النهر كانت كافية  
لاكتشاف المياه.  
أجملنا الذين ليسوا بيننا. الذين غادرونا خفيفين، تاركين، بتواضع،  
مقاعدهم لناس قد يأتون الآن، إلى هذه الحفلة.  
حفلةٌ سخيفة، ورغم ذلك لا يترك المتشبهون بالإقامة مقعداً!  
لكن لِمَ المقاعد، ما دام المحتفلون يبدأون ضيوفاً وينتهون أعداء؟  
لنمضِ إذن، بخفة، قبل أن تلتهمنا الخناجر، قبل أن نصير طبقَ  
الوليمة.  
لحظةُ الوصول إلى الاحتفال هي كلُّ جمال الاحتفال. وبعدها،  
سريعاً، يصير الجمالُ هو المغادرة.  
الخطوة المغادرة، هي الأجل دائماً.  
الراحلون يمتزجون بالنسيم. وإذ نقف نحن، لتشييعهم، فلنشيع معهم  
ذكراهم أيضاً. لأن الذكرى تعيق رحيلهم، تعيدهم إلى مكانهم،  
تجعلهم جماداً.  
الذاكرة تعيق الراغبين في الموت. وتجعل الراغبين في الحياة موتى.  
فلندفنها إذن.

لندفن الذاكرة ونحن نغني.  
إنها حفلة سخيقة في إية حال، ولكن بما أننا وصلنا، فلنغني  
ونرقص.  
ثوانٍ، قد نكون فيها جميلين.  
لكن أجملنا سيبقى: الغائب.

## منفى اللغة

إذا كانت اللغة وطننا حقاً، فإننا نعيش في منفى.  
أليست هي ما نتحدث به مع أنفسنا لا مع الآخرين؟ ولا يكون لنا  
تواصل لا مع ذاتنا ولا مع الآخر؟  
اللغة شأنٌ خاص لا شأن عام. نتكلم كي نقتنع فلا نقتنع. كي  
يقتنع الآخرون بنا فلا يقتنعون. اللغة نأبي لا اقتراب.  
المتكلمون ينفون أنفسهم.  
والخروج من المنفى هو الخروج من اللغة.

اللغة هي أصوات موتى. وهكذا نرصف جثثاً.  
الكلام الحي كان كلام الإنسان الأول. الأول، قبل أن يتكلم.

## ظلُّ أن نكون

هي ظلال، هي ظلال. لا تيّأس. اضربِ الشجرة فتسقط الظلال.  
إقطع الأغصانَ فترَ الشمس.  
لكن، هل يجب قطع الشجرة من جذورها؟ أم الاكتفاء بذكري ضوء؟  
الذكري تكاد تكون كلَّ وجودنا. غير أننا نقطع الأغصان ونبقى  
الظلال.  
وفي هذا السباق من يصل إلى الغروب أولاً، الشخص أم ظلُّه؟  
نتسابق، نحن وذكرانا، ثم نرتطم بعضنا ببعض ونختفي.  
نصير غباراً ميتاً. ونحلُّ بعد ذلك في وحل الأحياء.  
وخلُّ لم نشأ أن نصنعه. ولا أن نكون فيه. ولا أن نتركه لغيرنا. ولا  
أن نراه.  
هي ظلال، ظلال.  
إقطع الشجرة.

## الرغبة

مُسقطُ الرغبات بلغ الهدف. فلا رغبة في مشي بعد، ولا في وصول.

أليس الوصول هو التخلّي عن رغبة الوصول؟ أن تصير بلا رغبة في شيء، فقط المقعد الصغير الذي تجلس عليه ربما، أو الشجرة أمامك، أو الفراغ الذي بلا مقعد و لا شجر؟  
أليس الوصول أن تبقى حيث أنت؟ أن يكون هدفك مكانك بالضبط، حيث أنت هنا و الآن؟

أن تتجاوز الرغبة، أليس هذا هو العبور العظيم؟  
الرغبات تفسد النزاهات. لا يعود أصحابها يرون جمالات الطريق.  
تصير عيونهم في مكان آخر. في مكان الرغبة، التي لا تستقر في مكان. الرغبة اللامكان لها. يصيرون في الغائب، المستلب، غير الموجود. يصيرون في اللامكان.  
الراغبون يقيمون في المملغيّ.

هل يمكن بناء بيت في غياب، وضع كرسي في عدم؟

الرغبات تصنع حفراً في الروح، تصنع جروحاً. هل يجوز وضع مقعد في جرح؟

إذا كانت الجروح التي حفرتها الرغبات على مدى التاريخ، وتسيل منا دماً الآن، لم تبلغ مستواها بعد ولا هدفها، أيكون مطلوباً إذن صنع طوفان جديد من جروحنا أم دَمَل الجروح؟

هل يجب تهشيم الروح والجسد في الممرات نحو الرغبات

المستحيلة، أم الجلوس والتمتّع بمشاهد الطريق؟

أيجب طلب غائب أم الفرح بعدم حضوره؟

وإن كان لن يأتي، ولن نصل إليه، هل نعيش غياب انتظاره أو

نعيش حضورنا في غيابه؟

ثمّة رقص على الدرب لا يراه الراكضون. رقص يعرفه الجالسون.

ثمّة رقص خفيّ في الجلوس.

الساكنون يسمعون وحدهم الأغنية. الضاجّون طرشي ضجيجهم.

في السكون غناء جميل. في الصمت دهشة أصوات. حين تجلس

وتصمت تكون تخرع أوتاراً جديدة.

وولادات، لا تصرخ حين تولد.

وميتات، لا تأسف إذ تموت.

ورقصات، تنتشي من سكونها.

ومسافات، تقطع الدروب وهي على مقاعدها.

ومزهريّات، تعبق من فراغها.

في السكون أرض جديدة. والسماء تيزغ من العيون المغمضة.  
أحياناً ينشر الجرح صيفه على البيوت، فتُخرج نقاط دم كراسيها  
لتستظلّ الشجر.

أحياناً تخرج نقاطاً إلى النزاهات ولا تعود إلى العروق. أحياناً، يببس  
الدم على الباب، أحياناً يضيع، ودائماً ينزل في غير مكانه: على  
تراب، على حجر، على جلد، على قماش، وليس أبداً على هدفه.  
فهدف الدم، على الأرجح، ليس الخروج، بل البقاء في مكانه.

الخروج من مكان ليس نزهة، ليس بلوغاً، إنه ضياع.  
والرغبات التي تُخرجنا من بيوتنا لا تمنحنا ظلاً ولا نزهة. النزاهات  
تشرّدنا على الدروب، وتترك منا عظاماً في المجاهل.

هل أقول لا ترغب؟ وكيف يكون ذلك؟ أليس كمن يقول لا تكن؟  
لكن، أبالرغبة كون أو يولد الكون خلسةً في غيابها؟

هل يقيم الكون في الرغبة، أم يبدأ من النقطة التي بعدها، من  
الفسحة، ويمتدّ في فراغٍ عظيم؟

أن تكون حقاً، هو أن تسعى إلى ملء نفسك بالكون أم أن تفرغه  
منك؟

والهدف، هل تبلغه إن سعيت إليه أم إذا ألغيتَه؟

ألا تكون وصلت إذ تلغي الأهداف؟

إن بلغتَ رغبةً تلد لك رغبات. فالرغبة إن بُلغت تكاثرت. ولدتُ  
أطفالاً مشاكسين. وتركض أنت، تركض ولا تبليغهم، إلى أن تلفظ  
الأنفاس.

اقعد. لا تلهث على الدروب.

إلغ الدرب، تصل.

## المعرفة

هل نطمئن إذ نعرف أم نزداد قلقاً؟  
أفي المعرفة أمل أم يأس؟  
هل هي طريق خلاص أم طريق هلاك؟  
ولكن أولاً، هل نمتلك يقيناً أم شكاً؟ حقيقة أم افتراضاً؟ وسواء كان  
هذا أو ذاك، هل يقود إلى الخلاص؟  
إنما.... أي خلاص؟  
كلما ازددنا معرفة ازددنا شكاً، فكل معرفة شك.  
ومن يعرف أكثر يقلق أكثر، ويأس أكثر، ويهلك أكثر.  
كل معرفة جديدة شك جديد ويأس جديد. حتى لكأنّ التفاوض ليس  
سوى الجهل. حتى لكأنّ الجهل هو الخلاص!  
المعرفة ليست ضوء النفق. شعاعٌ ما أن يكشف عتمةً حتى تتبدى  
عثمات، مجاهل. والذين يدخلون نفق معرفتهم ليس أمامهم غيرُ  
العثمات، والموتُ في عتمة.

الجاهل لا يدخل الأنفاق ولا يحتاج إلى ضوء. يبرئه جهله، فيموت على مدخل النفق، في الضوء.  
هل الجهل هو الضوء، والمعرفة العتمة؟ وهل بسبب المعرفة ينتحر المنتحرون ويقتل القتلة ويموت الذين لا يجرؤون على الإنتحار أو القتل في الزاوية الصامتة من وحدتهم؟  
وحدتهم التي جعلوا فيها زاوية للكلام، وزاوية لوداع الكلام؟

كل معرفة جهل، كل جهل يقين.  
كل معرفة قلق، كل جهل اطمئنان.  
ما يلغي فروقهما، ما يوحدهما، هو الهلاك.  
غير أن العارف يهلك في قلق معرفته، أما الجاهل فيهلك في اطمئنان الجهل.

## الانشقاق

تدوس في طريقها كلَّ شيء، القافلة. تمعسه بصمت، بعمى.  
سَيل الجماعة جارف. قافلة الجماعة ماعسة. تسحق الفرد ومأواه  
الضيق للسهو أو النوم.

كيف يمكن إنقاذ الزهرة الداخلية في هذا الجرف؟

هذا البهاء اليتيم كيف يمكن إنقاذه؟

الطافي يحيا. الغارق يموت.

لكن هل لموجةٍ أن تنفصل عن بحرها وتسكن وحدها على

الشاطئ؟ هل لنقطة ماء منعزلة أن تحتفظ بلؤلؤة الأعماق؟

الآخرون ليسوا جحيما فحسب. الآخرون هم عَدَمنا.

الموت هو الآخر. الضحايا صنيع الجماعات. أما الحياة النحيلة

فتكمن في العتمة العميقة لأرواح المنعزلين.

كان ثَمَّة جمال، ينبثق من الشroud.

## الإحراف

المنحرفون أبدو قِيمنا، أودعونا حضارةً سرّيةً جميلةً، في مقابل حضارة يُستحال إحصاء جنثها.

المنحرفون، الذين ماتوا في المصحات أو في السجون، هم آباؤنا الحقيقيون.

الأسوياء جرفهم النهر. غير الأسوياء ظلّوا على الشاطئ.

هناك بالضبط، على الرمل و الحصى، مقاعدنا، لا في النهر.

إذا خرج من الماء مقعد، سرعان ما يسيل.

مقاعدنا على الشاطئ، نجلس عليها.... أما الماء، فنمُدُّ له أقدامنا.

صُنّفوا هامشيين، حطبًا لفظه السيل إلى الضفاف، ورقًا، خرّقا،

مزقًا ساقطة من الثوب.

صُنّفوا للنبد، للرمي، للخلع من قماش المدعويين، لل منع من الوليمة.

صُنّفوا للحرق.

لكن، ها هو العالم يختنق. إذ كيف يتنفس العالم بلا هامشه؟

المنبوذون هم رثة الحياة.

قلب الحياة، هو الهامش.

هل نخرج من قلب العالم؟  
نخرج، ما دام مليئاً بالدماء.  
نسكن في اليد الملوحة للبعيد، في الشَّعر المتطاير، في العين  
اللانهائية الامتداد.  
حينذاك نكون في القلب. القلب الأبيض، النسيميّ، السابح في  
الهواء.  
في نقاء الفراغ.

في قلب الحياة عرق للحق والخير والجمال، عرق منشقّ معزول،  
اسمه الاختلال.  
يمشي المختلّون في العرق خفيفين، صامتين، لئلا يتفتّق العرق  
ويفسد. لئلا ينفّتح على العروق الأخرى، الدموية. لكي تبقى الدرب  
الضيقة جميلة وسريّة.  
أرواحنا الصامتة الحزينة هي الجميلون في السر. الماشون في  
عرق الاختلال.  
أرواحنا الجميلة، هي المختلّون.

بات علينا تخريب هذه الطريق وشقّ طريق جديدة. نسفّ الكتلة  
الهائلة التي تكدّست مع الزمن والعادة واستقرت في عقولنا مفهوماً  
واحداً ونهجاً واحداً للحياة.

صار واجباً ابتداءً عصر مغاير.  
أليس على العصور أن تتغير، على الأقل كما تتغير جلود  
الحيات؟  
تاريخ بأكمله، قاد إلى إلغاء التاريخ!  
تاريخ جماعي ألغى تاريخ الفرد. وتاريخ فردي ألغى تاريخ الحياة  
مع الجماعة.  
رؤية واحدة، طريق مشتركة، قطعت أرجل المنحرفين عنها، معست  
المتباطئين، اقتلعت أعين الناظرين في مكان آخر.  
كان النبع خادعاً، والمصبّ ضحية خداعه.  
نبعٌ واحد و مصبٌ واحد لتاريخ بأكمله. بحيث امتلأ النبع والمصبّ  
بالنفائيات والجثث.  
بات واجباً ابتداءً نبع ومصبّ جديدين.

سلامٌ للمناطق النائمة في الدماغ، الوادعة كالفراغ، المسحورة  
كالعدم.  
سلامٌ للخلايا التي لم تستيقظ بعد. إنها خلايا السلام.  
التاريخ يشهد على أن كل خلية جديدة تستيقظ، تبتكر طريقة موت  
جديدة.  
هذا العقل يكاد يفني الأرض.  
سلامٌ لخلاياه المنحرفة، سلامٌ للجنون.

تجب إعادة ابتكار الأدغال  
وبناء عصر آخر يضع مداميكه المنبوزون، وتحرسه أرواح  
المجانين.

## المنفى

الإنسان كائنٌ عاقل؟ صفة ناقصة. ما عادت دقيقة. الإنسان كائنٌ منفيّ.

بات صعبًا تحديد موطن للناس. المنفى اتسع. الأرض كلها صارت منفيّ.

ما عاد هناك وطن. هذه تسمية أضحت من التراث. من الذاكرة الآفلة. البشر يقيمون في منفى لا في وطن.

كان في الماضي منفى جماعيّ ومنفى فرديّ. صار الكلُّ كليّ النفي: منفيين في الخارج ومنفيين في الداخل ومنفيين في الجماعة ومنفيين في الذات.

لم تبق في الخارج أية إشارة إلى أن هذا المكان، أو ذلك، هو مكاننا.

ولا في الداخل إشارة إلى أن الذات لا تزال تخصنا.  
صار صعباً، بل مستحيلاً على المرء تحديد ذاته، فكيف تحديد  
مكانه؟

إذا الذات نفسها منفيّة، هل يمكن التحدّث عن مكان؟  
سيلّ من الخطى على بلاط بارد. دفق راکض يطوي الأمكنة.  
مشي لا يحتفظ بأي مكان.  
لا درب. فقط تشعبات. وخطوات تتشعب على التشعبات كلها  
ولذلك لا تسير.

لم يبق للأقدام طريق تألفه وزاوية تتمدد عليها. درب العودة إلى  
مكان أليف، بشوق و بطء وفرح، ما عادت ممكنة. صارت محوّة.  
محتها الخطوات الراكضة وموت الألفة واستحالة العودة. محاها  
غياب المكان.

المكان الذي غاب كمساحة، وغاب كحضور.  
ليس ممكناً، بعد، أن تكون حاضرًا مع آخرين، لا بينهم ولا فيهم.  
لم يعد لديك كلام لهم ولم يعد لديهم كلام لك. إذا تكلمت لا تتكلم  
إلا مع ذاتك ولو ظننتهم يصغون. وإن تكلموا لا تسمع إلا صوتك  
ولو اعتقدوا أنك تصغي. لا تكون إلا فيك ولو كنت في جمهرة. ولا  
يكونون معك ولو كنت بينهم... لست إلا منفيًا وليسوا إلا منفيين.

منفيّ في المكان ومنفيّ في الناس. منفيّ في الخارج ومنفيّ في الداخل.

مثّلت المنفى: منفى المكان ومنفى الآخر ومنفى الذات.

هل تجد ذاتك وطنًا لك؟ قُل. هل ذاتك مسكن؟

هل بينكما لغة؟ أنتما متفاهمان؟ أليفان؟ تتامان على سرير واحد؟

تترافقان على الطريق؟

إني لا أرى غير عدااء وخيانة.

الذات لا تخلص لأصحابها، الذات تخون. لا ترافقه، تهجره، لا

تنقذه، ترديه.

لا أرى غير بُعد وغياب.

لا أرى رفاقًا سوى الآفلين. لا رفاق إلا الموتى.

غابت الأمكنة وغاب سكانها. لم يعد ثمة مكان ولا قاطنوه. صار

خطأ ما تعلمناه عن مفهومي المكان والزمان، وعن الإقامة

والاغتراب. تغيّر كل شيء. انقلبت الحياة والإنسان والأشياء على

مفاهيمها وعلى نفسها. دخلت في خلطٍ فوضوي حتى الإلغاء.

إلغاء المكان وإلغاء الزمان وإلغاء الآخر وإلغاء الذات.

دخل الكل في منفى كليّ. دخل الكل في الغياب.

وكان هذا الغياب سيكون جميلًا لو لم يكن جرفًا جماعيًا، لو لم

يكن التزامًا بالركام.

كان جميلاً لو للغائب خصوصية غيابه، وللملغي فردانية اختيار  
الإلغاء.

فللغياب الاختياري نصرٌ على الحضور. للمنفى الخاص نصر  
على الانتماء. للغياب والمنفى نصر على الجماعة والاستيعاب  
والامتصاص.

هكذا، يكون المنفى نصرًا نادرًا. يفوز المنفيّ بذاته ولو ليس له  
رفاقٌ إلا الأفلين، لو ليس له رفاق إلا الموتى.

هكذا يكون للفرد حضور.

هكذا لا يكون للفرد حضور إلا بغيابه!

## الألم

إن أمكن تعريف التاريخ يمكن القول: إنه تاريخ الألم. ألم الفرد وألم الجماعة. ألم الارتباط وألم الانشطار. ألم الذات من الآخر وألمها من ذاتها. ألم الناس وألم الأرض. فالأرض، مثلما تتألم المخلوقات منها، تتألم هي من المخلوقات... وعلى هذه الجروح المتبادلة تُرصف عمارة التاريخ. منذ الفجر الأول كان الألم. قامت الأرض على صرخته. تكوّنت ونمت على هذا الصوت. كأنها من دونه لم تكن. كأن الأرض تكونت من فاجعة، من خطأ. كأن ما يلد، وما ينمي، وما يفرض الاستمرار، هو الخطأ. وكأن الأرض، لو كانت فرحة، لتبددت! لا عمر لغير الألم، وقد يكون هذا ما يعنيه الخلود أيضًا. خلود الخطأ. ويصحُّ كذلك: خطأ الخلود. هل يحتاج تاريخ الألم إلى براهين؟ التاريخ قدّم البراهين بنفسه، والفلسفات والآداب والفنون والمسيرة كلها فعلت ذلك بجدارة. ربما يحتاج تاريخ الألم إلى شيء آخر: نقضه. ربما لمحو الألم ينبغي

محو التاريخ! أو فعل ما يمكن: وقف هذا الركض في مسيرة  
سمجة، والجلوس للتفرج على الطريق، والضحك.  
هل كان يمكن، بجنون ما، الانقلاب على هذه المسيرة وبدء تاريخ  
معاكس؟ هل كان يمكن، في لحظة انحراف، تغيير الدرب؟ ألم يمرّ  
في الأزمان وقتٌ مبارك، ساعةً غفلةً عظيمة؟  
ألم يكن ممكناً، في لحظة ما من التاريخ المديد، انتصار المجانين  
على العقلاء؟ الفوضويين على المنضبطين؟ الجالسين على  
الأرصفة على محتليّ الدروب؟  
ألم يكن ممكناً أن تكون الأرض ساحة احتفال؟ أن تكون الأمكنة  
حلبات رقص؟ أكان مستحيلاً، حقاً، القضاء على الألم؟  
ولو حدث ذلك، كيف ستكون الأرض؟ ألن تفرح حينذاك بوجودها  
وترقص؟  
لكن خطأ ما يحكم الأرض ومخلوقاتنا. خطأ كبير، هائل، بحيث  
لا تمكن مقاومته.  
خطأ يحكم الأرض و يجرُّ البشرية إلى أخطاء. يجرّها إلى التدافع  
والصراع، إلى اقتراف خطيئة الطموح، إلى الإثم والألم.  
فالطموح ليس سوى إضافة ألم وإثم: ألم للذات وإثم للآخر. إذ على  
سكينة الذات تطأ خطاه وعلى الآخر يشقُّ دربه. الطموح يخضُّ  
صفاء النفس ويعكّر ماءها. يوحد الذات، فتصير لا ماء ولا تراباً.

تصير ألم الوحل الطامح إلى أن يكون إما ترابًا وإما ماء. ألم  
الوحل الفاقد كينونتيّه.  
الطموح صفة الناقص. أما الممتلئ فيهدأ ويجلس.  
كلُّ أتٍ يؤلم، وكلُّ ذاهب.  
ما يلتصق ألم، وما ينسلخ ألم.  
النقطة التي تسقط عليك تنزل من ألمها الأول، والنقطة التي تتبخر  
تذهب إلى ألمها الثاني.  
على جلدة الروح بقع آلام من الناس الذين التصقوا، ومن الناس  
الذين انسلخوا، ومن الأشياء والأفكار والرغبات والانهمات  
والانتصارات.  
ولكن، من يحلم بأن يهزم الآخر في النهاية، الناس أم آلامهم؟  
من يحلم بأنه ذاهب إلى مثواه خاليًا من البقع؟  
ما سيصل أخيرًا ليس الجسد النظيف ولا الروح الصافية. ما  
سيصل هو الوشم.  
بقعة كبيرة من الآلام والآثام، تُحمل وتوضع في حفرة.  
وكان جميلًا حقًا لو سمح الخطأ بصواب واحد: أن تلقي نظرة  
أخيرة على بقعتك السوداء، وتضحك.

## النسيان

ذاكرة أم حياة؟ شقاء أم نسيان؟  
سؤال يقرن الموت بالذاكرة والسعادة بالنسيان... لكن، أليس هذا هو  
جواب الوجود، الحالّ محلّ "الفكر" الواهم وهُـبّ "الوجود"؟  
أنا أنسى، إذن أنا موجود!  
جواب جديد، بعد تاريخ طويل من إلغاء الوجود بالفكر والذاكرة.

### سعادة النسيان:

للنسيان خفة طيران في قلب السعادة لن تكون مطلقاً للذاكرة الراضحة  
تحت أثقال. خفة رمي الثقل ومحو اللطحات لاستقبال الصفاء.  
سعادة اللحظة، إذ ترمي عنها ما قبلها وما بعدها. ما علق بها  
وأعادها إلى غيرها. فصلها عن ذاتها. جعلها لحظةً آخر لا لحظة  
ذات. شطبها.  
سعادة اللحظة التي لا تستقبل من السابق ما يحدّسها، ولا ترسل ما  
يحدّس اللاحق.  
الماقبل ثقّل على الآن، والمابعد ثقّل. الما قبل والما بعد، إذ يحلّان  
في الآن، يميّتانه.

ما كان هو الآن موت، وما سيأتي.  
الحياة هي: الآن.

### مأساة الذاكرة:

قد لا يُفرح التذكُّر والتذكير أن الحقد، الثأر، القتل... بنات ذاكرة.  
غير أن الذاكرة تفتِّع أكثر: تقتل صاحبها أيضًا.  
المتذكِّر هو ظلُّ ماضيه، ظلُّ غيره، قتيلُ ذاته، ميّتٌ حاضره.  
حين نتذكر نصير الموتى.  
المتذكرون هم موتى موتاهم.

### شقاء ذاكرة السعادة:

لا تتذكَّر غزاةً اختفت في الأدغال، ذلك لن يجعلك غير فاقد  
غزالات أخرى تعبر الآن أمامك.  
ولا تطارد الذي غاب، ذلك يجعلك ذا شقاءين: شقاء الغياب وشقاء  
المطاردة.  
اقتد في الغابة، بلا سلاح، ولا تفكير في غنيمة. حينذاك ستأتي  
الغزلان وتأكل من يدك.  
وإن لم تأت، تكون على الأقل رحبتَ هناءك.

## ذاكرة الرغبة:

من يرغب يصير ضحية رغبته. ومن يطلب استحضار رغبة غريت يصير ضحيتين: ضحية الرغبة وضحية ذكراها. الذين بلا رغبات هم الأحياء حقًا. لا شيء يقتلهم ولا يتركون ضحايا. العالم سصير لهم إذ يأنفونه. فالعالم، الذي لا يملك، له سرٌّ لامتلاكه، هو: رفضه. يطيرون عاليًا، فوق، الذين بلا رغبات. ومن أجنحتهم ينزل نثار العالم.

## ذاكرة المكان:

وهل تكون هنا وأنت تتذكر هناك؟ المكان الذي جئتَ منه مضى، الذي تذهب إليه لم يأت. المكان هو، فقط، هنا. لكنك ماشٍ. وما هو هنا يصير هناك. إذن طريق بلا مكان. إذن المكان: نسيان الأمكنة. إن صدف أن نسييتَ المكان، هل تبقى في منفى؟

## ذاكرة التاريخ:

نحن لسنا ذاتنا. نحن التاريخ محشواً فينا.  
نتاج أفكار السلف، تعاليمه، قواعده، قيوده، زنزائنه.  
التاريخ سجّاننا وجلادنا.  
وإن كان لهذا الجلاّد حفلٌ فرح، فنحن فيه الدمى المتحركة. إن كان  
هذا الملك يلعب الشطرنج، فنحن بيادقه.  
نحن لسنا نحن. نحن هم مثلبسينا.  
من مات لم يمت. إنه حيٌّ فينا ونحن موتى فيه.  
فإن أردت أن ترى التاريخ انظر في وجهك. ترّ ذاكرته و كينونته،  
وترّ عدمك. اخلعه عنك، إن أردت أن تكون.

## ذاكرة الآباء والبنين:

منذ ولادتهم نبدأ بنفيهم عن ذاتهم. ندقُّ فيهم مسامير ذاكرتنا  
وندرزهم بصور الموتى.  
منذ ولادتهم نبدأ بقتلهم.  
نقتل أبناءنا مثلما آباؤنا قتلونا. نمنحهم إرث الذاكرة التي ألغتنا  
وستلغيهم. نفتح لهم بوابة المملكة، باب السجن، ونمنحهم القيد  
والبيدق.  
نمنحهم البيت الذي يتمشى فيه الأموات.

من يحب أولاده لا يورثهم صورته، لا يهديهم ذاته، لا يترك لهم  
ذاكرة.  
من يحب أولاده يمنحهم النسيان.

## ذاكرة الوصول:

أمُ الشقاءات، فكرة الوصول. إذ لا وصول، لا نقطة، لا مقعد،  
على الطريق.  
ليس المشي ما يُتعب، بل فكرة الهدف.  
أن تؤخذ بها، يفوتك الزهر على الدرب وشدو الطير وجمال رنات  
خطواتك.  
الهدف يسرق منك النزهة ولا يمنحك ذاته. كلما اقتربت منه ابتعد،  
كلما أطلت عليه غاب.  
امحُ ذاكرة الوصول وتمتّع بالمشي.  
بل انس. انس الهدف وانس الدرب.  
للنسيان خفة محو الطريق، وتأبيد لحظة عدم السير.  
أنا أفكر إذن أنا موجود؟  
لا. أنا أنسى إذن أنا موجود.  
النسيان، هذا هو الوجود.

## الصمت

لماذا أمضى نيتشه سنواته الأخيرة صامتاً منعزلاً؟ هل أراد أن يقول إن الصمت هو أعلى درجات الكلام؟ التعبير الأفصح عن لا جدوى التخاطب؟ أن ينفي إمكان التواصل بين الذات والآخر؟ بين الفرد والجماعة؟ هل كان صمته يأساً من اللغة ذاتها، من محمولاتها ومدلولاتها وتناقضاتها وخياناتها، من نبعها ومصبتها معاً؟ أم أن الصمت هو الاحتفاء الوحيد المتاح بالحياة، والتشجيع اللائق لمن يريد أن يودّعها بإخلاص؟

لماذا صمت نيتشه كل تلك السنوات؟ ولماذا غادر رامبو الكلمات؟ والكثيرون غيرهما لماذا وضعوا هذا الحدّ المرعب بين اللغة وخرسها، بين الذات والآخر، بين الحياة وعدمها، بين الإقامة وشطب الوجود، هذا الكائن الصغير الوحيد بين عديمين؟ ولكن، هل من حدٍّ، أو نقيض، بين الصمت والكلام؟ ألا يكون الكلام في الغالب أخرس والصمتُ في الغالب مطلق اللسان؟ أليس السكوت لغة داخلية ضابجة والقولُ أصواتاً ضابجةً أيضاً؟ أين الحدود إذن؟

وإنْ لا حدود، إنْ هباءً واحد يجمع الصامتين والمتكلمين، ما معنى  
أنْ نختار الصمت وأنْ نختار الكلام؟ ما الفارق إنْ تكلمنا أو  
صمتنا؟

غير أنْ الصمت يخفّف الثقل؟

كلّما نقص صوت، أعتقد أنْ الأرض تشعر براحة.

الذين يصمتون يرتفعون عن الأرض قليلاً، لا تعود أقدامهم

وأجسادهم ملتصقة بها. الذين يصمتون ينسحبون من جمهرة

الأرض كي يحتفوا بذاتهم. كأنّ الاحتفاء بالذات لا يتمّ إلا بالعزلة.

كأنّ الاحتفاء بالحياة لا يكون إلا بالصمت.

ألا يمكن الواحد أنْ يحتفي بذاته مع الآخرين؟ إنه احتفاء فرديّ،

بلا شريك، هذا الذي تقف فيه الذات أمام نفسها وتغني. تختلي

بروعتها، بخوائها، وتنتشي. يخرج من صمتها النشيد الجميل

النادر، البدئيّ، السريّ، النقيّ. النشيد الذي لا يقول شيئاً، لا تراوغه

الكلمات، لا يحكي ولا يُسمع.

الذات تحتفي بغيابها عن الآخر. الذات تحتفي بالغياب.

هل هو الاحتفاء إذن ما يُطرب له؟ هل هو الخواء ما تقام له

الاحتفالات؟

هل الاحتفاء هو الاختفاء؟

بصمت الشجر والحجر تطرب الأرض وبصخب البشر تمرض.  
بالسكون تورق وتزهو وبالضجيج تموت. ليس صحيحًا ما تعلّمناه.  
جوهر الحياة ليس الحركة بل ربما السكون. المياه المتخبّطة الهادرة  
لا تقيم ولا تحيي إنما تجرف وتقتل. لا يُطلع الماءُ حياةً إلا إذا  
رقد.

على الحافّة، على الحدّ، يمكن أن نكون. على الحدّ بين الذات  
والآخر، بين الخارج والداخل، على العتبة. هناك قد تكون حياتنا  
على الحدّ الضئيل النحيل المسنون كشفرة.  
الحياة، على الأرجح، تبدأ من النقطة الصغيرة المحوّة. النقطة  
التي تكاد لا تُرى، بين احتضار الصوت وولادة الصمت. بين  
انتهاء الكلام وبدء السكون.

هناك ينتهي التناسل الخارجي ويبدأ التناسل الداخلي. تبدأ ولادة  
الحياة التي تخصّنا، العالمُ المعاد تركيبه، المستحيل أن يكون في  
مكانٍ آخر.

في النقطة المحوّة يولد كوننا.  
على الشفير، حيث لحظة الانبثاق ولحظة السقوط توأم. حيث  
الولادة والاحتضار واحد. حيث الوجود والعدم في نقطة نحيلة جدًّا،  
على رأس شفرة.

ولكن، من يقوى على الحياة هناك؟

من يستطيع أن يحيا على شفرة؟ أن يُنجي لحظة ولادته من لحظة موته؟

والأرض، هل لذلك مكدسة بالجثث؟

فلنصمت قليلاً. أصواتنا أودت بنا إلى هنا، إلى هذا الجحيم. إلى القتلى الساقطين بالكلمات، بالخطابات، بالشعارات. إلى المعذبين في زنزانات الكلام المقفلة. المشنوقين باستحالة وصول الصوت. المرميين في فراغات حائرة، حيث لا سقف صمتٍ ولا فضاء كلام. الصامتون منتحرون أيضاً. صحيح. لكنهم يتوحدون مع ذواتهم على خشبة الانتحار.

لو بصمت العالم الضاغط، قليلاً. ماذا يحدث لو صمت العالم؟ لو اختفى ضجيج البشر لحظة؟ أما كانت الأرض تستعيد بعض فتوتها، بعض صحتها؟

هذه الأصوات تنتشر الأمراض.

إذا كان هناك من يريد فعلاً أن ينقذ البشرية فليأمرها بالصمت. الأرض لا تقفد غير مخلصٍ واحد، يخلصها من الضجيج.

## المنتحرون

مقتحمو الحواجز والمخاوف والمحرمات، فاتحو عتمة النفق ببرق عبورهم، المنتحرون، قديسونا.  
الذين لم تسعهم الحياة، ففتحو فسحة في الموت.  
لم يملكو حياة، فملكو موتاً.  
تعالوا عن هبة، عن ضيافة حدثت بالصدفة، عن مائدة كانوا هم طبقتها، وصفقوا الباب وراءهم و غادروا.  
تركوا المقاعد و ثرثرات الوعود، وذهبوا إلى صمتهم.  
أذابوا ملح الروح ودفعوه إلى الشلال، رموا خبز الخلاص للأسماك، أسكتوا الحفيف الشرس للدماغ، وسكنوا.  
هناك خبل ما، قالوا، جاء بنا إلى هنا، وخبل سيأخذنا، فلنذهب بأنفسنا، لنكن نحن الخبل.  
وعلى أطراف عبورهم كانت تُرى فراشات سوداء، كان يُرى خبل البقاء.  
تركوا للفعلة أن يرثوا ويورثوا، وذهبوا إلى الخواء. الخواء الواقف في الأعلى، فوق كل إرث و كل مُلك.  
الخواء المظلم المخيف، الذي أضاه عبورهم وجعله صديقاً.

للمنتحرين زاوية، مقعد يستريحون عليه، في الفراغ.  
ولهم بيت هناك، وشجر، وأرض لا يعرفها أحد.  
لهم سُطيحة في العدم، لا يستطيع الجلوس عليها غير الموتى.  
وياسمينة عالية أمام بيتهم، لا يمكنهم شمّ زهرها إلا إذا صاروا  
هواء.  
للمنتحرين غنمٌ ضلّ، ويذهبون ليرعوه.  
وهناك يحتفلون بعرسهم، بلا عروس ولا عريس ولا أبناء. يحتفلون  
باستحالة التزاوج، بغروب النسل، بالأرض المنقرضة.  
وكلما سقط واحد منهم في الماء ولدت موجة، وكلما هوى واحد في  
فضاء هبّت نسمة. المنتحرون يبتكرون بحارًا ورياحًا جديدة.  
ومن الحبل إذ يتدلون، يملأون المسافة الفارغة بين السقف والبلاط.  
يضعون شيئًا في العدم.  
والجثة حين يحملها الحاملون، يجدون ما اعتقدوه وراءهم يمشي  
أمامهم. يجدون الجثة الميتة تسبق الجسد الحي، والماضي يمشي  
بعد المستقبل، والموت يتقدم على الحياة. يجدون الحياة في الجثة  
لا في الجسد.  
لا ينتحر غير من طفح بالحياة. من طفحت فيه الحياة فاندلقت.  
ولا ينتحر غير من يعلو على الموت. من يسوده.  
المنتحر يهب الموت معنى. ويدخره.

من ينتحر يترك لخطتين، واحدة على وجه الحياة وأخرى على وجه الموت. يترك آثار سيادة. وهل هناك سيادة غير هذه؟ لكن السيادة ليست مطلب المنتحرين. المحو مطلبهم. محو سيادة الحياة وسيادة الموت. سيادة من جاء بهم وسيادة من يذهب بهم. سيادة الآخر وسيادة الذات. المحو الذي هو سيادة وجود، فعل حرية. المنتحرون قديسون، سادة المحو، سادة الخواء. وإذ يسلمون روحهم للخواء لا يكونون يسلمون حياة بل إدانة. ولا جنّة بل اسم قاتل. ولا خلاصاً بل هباء. إذ يسلمون أنفاسهم يسلمون الفراغ.

# 9

رتقُ الهواءِ  
( 2006 )



## محاولة لحم أحرف، محاولة إكمال كلمة

إنّي ألعب الآن. ألعب مع الكلمات وأغشها لعلّي أريح شوطاً معها هذه التي خسرتُ معها في الماضي كلّ الأشواط. ألعب معها وأضحك عليها وتضحك عليّ. ما بيني وبينها اليوم هو غير ما كان بالأمس. سقط وقارها وفقدت جدّيتها وصارت مجرد لعبة. يقال إنّ البشر سيصيرون جميعهم ألعاباً تسير بكبس أزرار. لا أظنُّ أنّي سأعيش إلى ذلك الوقت الذي أصير فيه لعبة كاملة. إنّي الآن لعبة ناقصة، نصف لعبة، ولهذا اخترتُ ما قد يجعلني لعبة كاملة: الكلمات.

سيصير الناس ألعاباً. شيء جميل. يا لمتعة الأزرار التي ستحرّكهم! ورحمةً على... لا ليس رحمة على المشاعر، فهي جعلتهم دائماً بؤساء.

بلا مشاعر، هكذا محصّنون، هكذا مغلقون على الآخر الذي كان يسطو على أحاسيسهم، على الأيدي التي كانت تمتدُّ إلى عروقهم وتفسد دمهم، على الكلمات التي ما كانت تقال إلاّ لتُسقط قتلى في روحهم... سيصيرون ألعاباً، فيا لروعة الجماد الذي سيصيرونه! لن أعيش إلى ذلك الوقت، لن أعيش تلك الروعة. لا تزال هناك أيدي وكلمات تمتدُّ إلى عروقي وتُسقط قتلى في روحي. مع ذلك عليّ

أن أخرج من هذه المعركة بأقل دم ممكن. عليّ أن أصافح الأيدي  
 بأية حيلة، وأن أستدرج الكلمات للعب وهي ترفع خنجرها عليّ.  
 هكذا ربّما أجعلها صديقة. هكذا ربّما أكسب استراحة. هكذا ربّما  
 أخرج من هذه المعركة غير قاتل، ولو خرجتُ قتيلاً.  
 تعالي يا "ألف" أريد أن ألعب معك. أيتها العمود الجميل، السّم  
 الرائع إلى مجهول رائع. تسلّقي عليّ وأتسلّق عليك، علّنا، أيتها  
 المبتدأ، نطلّ على نهاية جميلة.  
 فلنلعب. البدء كان لعبة والبادئ كان لاعباً. فلنكمل لعبته برقّة لم  
 يكن يملكها، علّنا نضفي على وجهها جمالاً.  
 وتعالي يا "باء". يا بهاءً ملتقاً على ذاته أنا شريكك. ارمي لي  
 الطابة، إنّها تحت وسادتك، فننقاذها مسرورين. الطابة كنزك، ولا  
 سرور لمالك الكنز إن لم يقذفه بقدميه.  
 أريد أن ألعب مع الأحرف. هي مثلي وحيدة وتحتاج إلى من  
 يسليها.  
 أريد أن أكون صديق التي أسيء إليها منذ أن تعلّم الناس النطق،  
 صديق التي وُلدت لتلعب، فجرّوها إلى الجدّية والصرامة والمآثم  
 والقتل.  
 فلنلعب يا كلمات يا قاتلة ناطقيها وسامعيها. يا من ولدت بريئة  
 عودي إلى براءتك، مرّة واحدة كرمي للمقتولين بك. عودي بريئة يا

كلمات والعبوي. أنا قتيلك وأريد أن ألعب معك. أنا القليل وأريد أن ألعب. أريد أن ألعب.

من زمانٍ من زمان، حين مررتُ مرّةً أمام لعبة توقفتُ وقلتُ لها كوني لي. لم تكن. حاولتُ أن يكون قولِي لها لعبةً. لم يكن. حاولتُ أن أجعل نسيانها ونسيان كلماتي لعبةً، وفشلتُ أيضاً. أليس في الأرض ألعاب؟ اعطوني واحدة. ماذا أقول للذي يقال إنّه هناك ويسأل الأموات ماذا فعلتم في الحياة؟ أقول له عشتُ بلا لعبة؟ وإن قال خلقتم ألعاباً لماذا لم تلعب؟! بماذا أجيب؟ اعطوني لعبة لدقيقة واحدة، فأنا لديّ حججٌ كثيرة أفحمه بها إلّا واحدة، فاعطوني لعبة.

هوذا الغيم أتى فأهلاً يا صديقي. لم يكن مطرك مرّةً دمع غائبين، كان ذلك كذباً منّي. كنتُ كذوباً جداً. قلتُ إنك لهاثٌ بعيدين، وإنك نظرات ضيّعها أصحابها وهم يحدّقون في الشفق. تعال الآن يا صديقي إنك غيم، غيم فقط، وهذا جميل جداً.

أعترف الآن بأنّي اخترعت أكاذيب كثيرة من الكلمات. ما قلتُه وما كتبته لم يكن سوى كذب. ابنٌ لقيطٌ لمخيّلةٍ مجنونة. ما قلتُه وكتبته كان خيانة لبراءة الكلمات، هذه التي أطالبتها بالبراءة وأمّارس العهر معها.

لقد ظلمتُ الغيم. وظلمتُ ريش الطيور ونشارة الخشب. ظلمتُ  
الشجر حين قلتُ يثمر من النظرات، والجبال إذ ألبستُها أقداماً.  
وظلمتُ الموتى حين أعدتُ عظامهم إلى الحياة، والحياة حين  
أعدتُها إلى الموتى.

ظلمتُ الناس والأشياء والحياة. هؤلاء كانوا شيئاً آخر غير ما  
ظننتُ وما أملتُ، وكان عليّ أن أعرف ذلك. كان عليّ أن أعرفهم  
كما هم، لا كما أرغب، وأن أحبهم.

تعال أيها الغيم أريد أن أَلعب معك. أنت بعيدٌ وأنا أعرف الآن أنّ  
اللعب لا يكون جميلاً إلاّ بين بعيدين. الجمال هو البعيد، البعيد  
فقط. فلنلعب أيها الغيم يا حيلتي الوحيدة الباقية في البعيد، بعدما  
اقتربت الأرض منّي كثيراً.

اقتربت منّي الأرض فرأيت أحشائها. رأيت دمها وبولها وبرازها.  
التصقت الأرض بي فأغمانني العفن.

أيها البعيد يا صديقي. يا صديقي أيها البعيد.

مثل عصفور ينقد نقدةً واحدةً وبطير، هكذا كنت أريد حياتي.

وكنْتُ موقوف وهم: وهم أرض حسبتُها ملكي، وهم مكان اعتقدتُ

أني مقيم فيه، وهم كلمات ظننتُ أنني أنا قائلها، وهم أفعال

تخيلتُ أنني فاعلها، وهم وجودٍ ظننته نفسي.

استطالت الأرض فلتعدْ مستديرة لعلِّي أتوهم بعد شيئاً جميلاً في  
مقلبها لا أراه.

جالسُ الآن وكلُّ شيء مكشوف أمامي. أريد شيئاً مختبئاً، أريد  
استعادة جمال الغائب.

يا مقلب الأرض عدْ. أريد أن أمضي فيك ما بقي من وقتي.  
سلامٌ سلام على الغيم هناك. على شجر قد يكون موجوداً فيه ولا  
أراه. على أوراق ربّما سقطت منه في أرض بعيدة. على نقاطه التي  
نزلت على نهر وغابت. سلامٌ سلام على البعيد. على دفترتي  
المدرسيّ. على اللعبة التي لم أملكها. على قلب اللوز الذي سقط  
من يدي فهرسته الدواليب واختفى. . . سلامٌ على الحياة.  
أمسكُ يدي وألعب بأصابعها. ألا تزالين يا أصابع صديقة؟  
خنصرٌ بنصرٌ سبابة. . . يا لهول ما تعلّمناه! يا لهراء التسميات  
التي أفسدت طفولتنا.

أرى الآن جمعاً من الموتى. هاي، أنتَ هناك، ما اسمك؟ كان  
على الأرض شبيه بكَ النقيه كلّ يوم. لم تكلمني مرّةً مع أنّنا مشينا  
كتفاً إلى كتف وكننُ أحبُّ أن أسمع صوتك. كان صوتك  
سيؤنسنني وصوتي سيؤنسنك في ذاك الشارع الذي كان كلُّ من فيه  
وحيداً.

وأنتِ، أنتِ الوحيدة في الزاوية هناك، ألسْتِ أمِّي؟! أقسم أنكِ أنتِ،  
ولو أنّ نظراتك باردة وجوفاء كأنك لا تعرفيني. أنسيّتي يا أمِّي؟!  
بخارٌ فوق بخار. كأنّ الكون عاد إلى بدئه. كأنّ الحياة اكتملت  
أخيراً.

أنّقب في البخار أنّقب في الموتى أريد أن أرى ضلعي. كان لي  
ضلع، أتذكّر، فأين صار؟ كان لي ضلع وأحبّه، أريد أن أراه.  
يا هذياني الجميل يا إلهي، ابقْ معي. اسهرْ معي بعد هذه الليلة.  
إنّي أرى الموتى. أرى الموتى والأحياء في الضمّادات، ويشعلون  
القماش لكي نراهم.

هو هراء، هراء يا كلمات. فهؤلاء حين لا يرون مرآتي أكون لا  
أراهم، لأنّ الأشياء صارت ورائي لا أمامي.  
فلنعبُ يا "حاء" يا حرباء يا حياتي. يا "حاء" يا "فاء" يا حفيف  
الضلوع إذ تنحلُّ تراباً يا فحيح الأفاعي. يا "سين" يا "ميم" يا سمّي  
وموتي، هذه هي سروتي، سدرتي، يائي.

لقد اقتربت الأرض منّي. الأرض اقتربت كثيراً.  
قلتُ أحتزنك في نظراتي أيّها الغيم. قلتُ أحتزن للموت شيئاً خفيفاً  
طائراً علّه يرفع معه عيني، تلك التي رأت فقتلناها رؤاها.  
كانت الرؤية قاتلة أيضاً، هل كان ينبغي عليّ ألاّ أرى؟

ليس العمى هو المتاهة بل الرؤية. الرؤية يا بورخيس، الرؤية.  
النظرات تقودنا من متاهة إلى متاهة. وكلُّ نظرة تقتل ما تراه،  
وتقود إلى شيء آخر تقتله نظرةً أخرى. الأشياء ضحايا النظرات يا  
بورخيس.

رأيتُ كثيراً فقتلتُ كثيراً وقُتلتُ كثيراً. ما بقي حياً كان فقط في  
المقلب الآخر الذي لا أراه. غير أنَّ الأرض انبسطت، وصار كلُّ  
ما فيها قتيلاً.

أيها البعيد يا صديقي، يا صديقي أيها البعيد، وأنتَ أيضاً لم يعد  
فيك شيء غير مرئيِّ لكي يُحييني؟ وأنتَ أيضاً يا صديقي؟  
طيرٌ جاء. جاء طيرٌ الآن وحطَّ على شجرة أمامي. إلى هنا، إلى  
حديقة صغيرة معزولة صامتة جاء طير، فيا للحياة الجميلة!  
جاء طيرٌ حطَّ لحظةً وطار. لم ينظر إليَّ، إنِّي حيٌّ إذن، إنِّي  
خارج النظر، فيا للحياة الجميلة!

لكنَّ حياتي كانت كلُّها نظرات، فهل كنتُ ميتاً دائماً؟  
هوذا الغيم أتى فأهلاً يا صديقي. لم يكن مطركَ دمعَ عيون، كنتُ  
كذوباً. ظننتُ العينَ شيئاً رائعاً وأحبك، فاخترعتُ لك عيوناً. إنك  
أعمى وأحبُّ الآن عماك. أنتَ أعمى ولذلك تُحبي. أستعيد الآن  
نقاطك التي نزلتْ عليَّ في الشوارع. نقاطٌ كثيرة وكانت بمنديل  
تُحمي. وذاك المحو، ذاك المحو على الأرجح، كان حياتي.

الأشياء ضحايا النظرات. أحببتُ هذه الجملة ولذلك أكرّر كتابتها. على الكلمات التي نحبّها أن تبقى دائماً في أفواهنا وأن نعيد كتابتها مراراً على الورق. علينا أن نردّها دائماً لأنّها تمنحنا شعوراً بأنّ الحياة لا تزال فيها كلماتٌ حبيبة وبأنّنا لا نزال نستطيع قول شيء نحبّه. الكلمات التي نحبّها تجعلنا نشعر بالكرامة وبعزّة القول. الكلمات التي نحبّها تجعلنا نشعر بأنّنا حقاً موجودون. . . الأشياء ضحايا النظرات، الأشياء ضحايا النظرات. أكتب فقط لكي أتسلّى. أقول الكلمات لكي أتسلّى. ولأنّ هذه الكتابة لعبة زائفة وللرمي في القمامة، يمكنني أن أنتصر عليها. يمكنني أن أبدّد معانيها وأنا أبدّد الوقت بها. يمكنني أن أكتب كلّ شيء من دون أن أقول أيّ شيء. أن أكتب سخافاتي بحريّة، وأن أسلخ جلد الكلمات عن عظمها، وأن أحزّف القول وأربك المعنى... يمكنني أخيراً أن أخرج من هذا السجن المعدّب الرهيب الذي يفرض وجود معنى لكلّ شيء، ويحدّد هويّة الجميع، والذي قضيتُ فيه وقضى الجميع كلّ أعمارهم. الخروج من المعنى، هذا بالضبط ما أريده. اليوم مات صديقي. كان شاسعاً، لم تسعهُ الأرض فخرج. اليوم مات صديقي يا كلاماً. متّ اليوم يا كلاماً يا صديقي.

ما أقوله الآن رَجْعُ خطاك. أقول ظِلُّكَ أيُّها الكلام يا صديقي. أقول غيابك. الغياب لغتي.

صديقي؟ مَنْ صديقي؟ هل كان لي حقاً أصدقاء؟  
كانوا على الأرجح نتاج نظرات، هؤلاء الذين مرُّوا في حياتنا  
وغادرونا.

كانت دروبنا أيضاً، ومقاعدنا، نتاج نظرات.  
الرؤية ترمي. العمى يحميننا.

لكنَّ كثيرين ماتوا والكلُّ ميت أو سيموت، لِمَ التوقّف هنا؟ لي  
صديقٌ كاتبٌ في أستراليا يكتب عن الحمير؛ عن الأموات منها  
وعن الأحياء. أحببته. فكلُّ الكتاب يكتبون عن البشر وهو يكتب  
عن الحمير. الذين يكتبون عن البشر يرفسهم البشر، لكنّي لم  
أسمع أنّ حماراً رفس واحداً لأنّه كتب عنه. ذلك، ببساطة، لأنّ  
الحمير لا تقرأ، وهذا برهان آخر على أنّ العمى، العمى المعرفي،  
مسالم وغباؤه جميل: لا يرمي ولا يرفس. . . لكنّ الذين لا يقرأون  
من البشر يرفسون أيضاً، والقارئون يفعلون الفعل نفسه. فهل يعني  
هذا أنّ الرفس، بسبب وبغير سبب، هو صفة ملازمة للبشر كيفما  
كانوا، وأنّ الدنيا تبقى بألف خير طالما فيها حمير؟

احتزّرتُ. أنا قاعدٌ الآن في منزلٍ مستأجرٍ في سيدني ومحتار: هل  
أحبُّ البشر أم أحبُّ الحمير؟ هل أبقى أحبُّ البشر وأتغاضى عن

رفساتهم كما كنت دائماً أم أحول محبتي نحو حيوان على وشك أن  
ينقرض، عرفته حين كنت فتيةً ولم أعد أراه منذ ذلك الحين؟ لكن لم  
الحيرة؟ فلطالما اتجهت محبتي نحو الغائبين والمنقرضين، ولطالما  
كان المنسيون والمنبذون وحدهم أصدقائي. لمَ الحيرة والأشياء  
كلُّها الآن لي سواء: رافسها وعاضها وقاضمها والواقف منتظراً  
حتى يعضَّ فيعضُّ. لمَ الحيرة، كلَّ الأشياء تساوت لدي، وها أنا لا  
أريد سوى فقط أن أنساها كلُّها، وأمضي.  
ولكن أمضي إلى أين؟ إلى العالم الآخر؟ وإنَّ هناك عالمٌ آخر، هل  
فيه حمير؟

يقال فيه ملائكة وشياطين فقط، وناسٌ يتوزعون بين هؤلاء وأولئك.  
لم أسمع أحداً يقول إنَّ في العالم الآخر حميراً. إلى أين تذهب  
الحمير إذن؟ ألا يجب أن يبقى الرفاق رفاقاً في الحياة والموت  
معاً، أم أنَّ في العالم الآخر عنصرية أشرس ممَّا في عالمنا فلا  
يستقبل الحمير حتى ذليلاً؟

هذه عنصرية والله لا تُحتمل. فأبي حمار يرغب أن يكون في عالم  
كذلك؟

أحبُّ أن أمضي ولكن ليس إلى هناك. أحبُّ أن أمضي إلى حيث  
تمضي الحمير.

لا أحبُّ الملائكة ولا الشياطين. فالملائكة ستستقبلني باعتقادٍ أنّها أكثر طهارة منّي، والشياطين ستستقبلني باعتقادٍ أنّها أكثر نجاسة منّي، وكلاهما مخطئان ومع ذلك سيستأسدان عليّ. لن أذهب إلى العالم الآخر. خذوني إلى حيث تذهب الحمير.

كان آدم ضجرًا، قيل، فجيء بحواء كي يتسلّى. وقيل سقطا في اختبار "التفاحة" فجيء بهما إلى الأرض... يا للعقل البشريّ الخرف!

أريد أن ألتهم التفاحة التهاماً فاءتني بها يا عقلاً خرفاً. عقلٌ بورٌ كهذا آيةٌ أرضٍ يمكن أن يزرع؟ وأيُّ زرع هذا المحرّم، وما نفعه؟ اسمعوني يا زوّار هذه الأرض القاحلة، ازرعوا تفاحاً كثيراً وكُلوه كلّه. بذلك، ربما، قد تغيّرون مبدأ الأرض المؤسّس على اليباب، ومبدأ الخلاص المؤسّس على الجوع، ومبدأ الفضيلة المؤسّس على النسك، ومبدأ العالم الآخر الحلميّ المؤسّس على إلغاء عالم اليقظة. . . بذلك، ربما، تخلقون الحياة حقّاً.

اسمعوني وكُلوا، ولا تسمعوا زارع التفاح للزينة والعقاب. هذه أرضكم لا أرضه، ازرعوها وكُلوا. ومن يُبقي في أرضه بوصةً بلا زرع وأكل، يُبقي في رأسه فجوة من الدماغ الخرف.

أيتها الأرض الجميلة أين كنتِ؟

حين كنتُ أستطيع أن أزركِ جمالاً لماذا استسلمتُ لدعاة اليباب؟

لماذا تبعثُ الخرافة وضللتُ عنك؟

كذباً بكذب كان ذاك كله. وكذبٌ أني الآن أتسلى. إنني أتألم.  
مَنْ ذا الذي يمكنه أن يتسلى؟ هذا هراء. إن لعبَ مع الأرض فهي  
طابة كبيرة عليه، وإن لعب مع ذاته فهي صغيرة وتنتزلق من بين  
يديه، ولن يمسكها أبداً.

لا العالم يُمسك ولا الذات، ولا النظرات التي نرسلها للإمساك بشيء  
في العالم ستعود إلينا. ضالون ومضللون. العالم أوسع مما ينبغي  
والذاتُ أضيق مما ينبغي. الأول ضالنا، والثانية ضالَّتنا.

ضلالٌ بضلال. قبل الرؤية كان الإنسان على الأرجح مُلكَ ذاته  
والأرضُ ملكه. كانا يتبادلان المُلكَ أو يظنّان ذلك. وكانا أعميين  
في التبادل والظن. وذاك العمى، ما كان أجمله!

ابتعدتُ ابتعدتُ وها الأرضُ تلتصق بي أخيراً. تلتصق حتى أني لم  
أعد أُميّز بينها وبين جلدي. أخذتُ جلدي ولم تعطني جلدها.  
التصقت الأرضُ بي وصرتُ بلا جلد.

يجب أن أتكلّم. ما قلته وما كتبتَه في الماضي لم يكن كلاماً. ما  
قلته وما كتبتَه كان صمتاً.

قلتُ كثيراً وكتبت كثيراً لكنّه لم يكن سوى صمت. أشعر الآن يجب  
أن أقول شيئاً. يجب أن أتكلّم، لا يجوز أن أذهب من دون كلام.

عليّ، ربما، أن أتحدّث مع الغاية. أن أقول للشجر شكراً على الأقلّ، لأنّه أطمعني وأدفاني. يجب أن أقول شيئاً للتراب، وللغيم الذي أمطر عليه وعليّ، وللسماء، والنظرة. شيئاً للإسفلت، للرحلة، للكلب الغريب. يجب أن أقول شيئاً لنقطة الماء الأخيرة التي نزلت من دلو أمّي على الحبقة، وللدرجة السفلى التي قعد عليها أبي، وللدمى التي ابتهج بها أطفالي. يجب أن أقول شيئاً للرمل، لجزيرة الجرحى، للعظمة التي كانت تنقص العالم كي يمشي. شيئاً للجبال العالية، وللشبكة التي رسمتها لانهباء أيامي لكي تصل إلى الوادي سليمة.

يجب أن أقول شيئاً لأحد. ولكنّ أين هو؟ وماذا أقول؟ صمتٌ إذن. كان ذاك صمتاً، وهذا صمتٌ أيضاً.

هناك بقعة بعيدة، بعيدة، أحبُّ أن أراها.

عصفورٌ رأيتُه لأوّل مرّة ودُهشتُ، أريد أن أراه مرّة ثانية. قمر ونجوم، والنقّاتُ ظلالٍ مزهوّة، وصوتٌ بعيدٌ يأتي من قصبيةٍ مجنونة.

موتى في قطار، بقايا نظرات، وذبابة تحوم حول نراعي.

ورقة منسيّة، زُرٌّ قميص ضائع، وواحدٌ يقول "أه!"

هؤلاء هم، هؤلاء من أريد أن أقول لهم شيئاً.

والعشبُ إذ يرتبك.

أريد أن أتحدّث مع الارتيابك. . .  
واقفٌ في الشارع في منتصف الليل، ونقطة ماء نزلت عليّ من  
غيمة.

السماء ترسل إشارةً رطبةً إلى مرضاها.  
أم أنّها نظرة أخرى ضائعة في الفضاء، ولجأت إليّ ظانّةً أنّي  
عينها؟

إنّني أعمى، أعمى، يا نقطة. فقدتُ عينيّ من زمان، ولا تزال  
نظراتي الأولى تبحث عنهما ولا تجدهما. ما أظنُّ أنّي أراه ليس  
سوى ترسّب لمعانٍ قديم في ذاكرتي. فنحن الذين تحت، يا آتية من  
فوق، لا نرى غير ذكري، ولا نسمع غير ذكري، ولا نقول غير  
ذكري. نحن يا صديقتي لسنا نحن. نحن ذكري أنفسنا. إنّنا فقط  
ذكري.

أم أنّها نقطة الماء التي نزلت على حبة أمّي تبخّرت وعادت إليّ  
؟

ولماذا تعود؟ فلا حبة لديّ ولا أمّ. لا عين ولا نظرة. لديّ فقط  
وهمي. وهذا يصنع الخرافات، ويصنع المعجزات. يجعل الفراغ  
يمطر، واليباب يثمر، وخنجر الأحلام زهرةً جميلة في الجرح. وهو  
على الأرجح صنع الأرض، وصنع السماء. إنّهُ أفق الإنسان  
وعمقه، امتداده وعلوّه ورجاؤه وإيمانه. فهل يعجز صانع المعجزات

هذا عن إسقاط نقطة ماء من غيمة على رجل واقف في الشارع؟  
هل يعجز وهمٌ عن إسقاط ماءٍ وهميٍّ على رجلٍ وهميٍّ في ليلٍ  
وهميٍّ؟ لم يعجز، وقد فعل، وسقطتْ تلك النقطة عليَّ ولا غيمة في  
السماء ولستُ في الشارع!  
هذا، تماماً، مثلما كنت أنسى معطفي في المقاهي، ومع ذلك أكون  
أرتديه وأنا عائد إلى بيتي.

فما أبهاك أيُّها الوهم! أنت الجمال الوحيد. المنتصر الأوحد على  
البشاعة. كاسرُ المقاييس ومحطَّم المبادئ. قالبُ الأرضِ رأساً على  
عقب، والسماءِ رأساً على عقب. خالقُ ما لا يُخلَق ومكوِّنُ ما لا  
يكون. . . ما أبهاك أيُّها الوهم، يا إلهي.  
كان وهماً جميلاً، لكنّه مات هو أيضاً.  
أمشي الآن بلا إله. أمشي بلا وهم. محاطٌ بالحقيقة من كلِّ جانب،  
فمن يقوى على تحمُّل هذا؟!!

ربما لذلك شخْتُ. ربما لذلك عجزتُ، وصرتُ أتعب من المشي  
حتّى في بيتي. الحقيقة التي تُتعب أرواحنا تجعلنا عاجزين، أيضاً،  
عن الانتقال من غرفة إلى غرفة.

يا "ميم" يا "شين" يا "ياء" عودي والتحمي، فلعلِّي أمشي.  
بالتحام الأحرف تلتحم الضلوع أيضاً. فضلوع الناس ليست سوى  
أحرف، تنتظر من يلحمها لكي تصير شخصاً يمشي.

زرعتُ اليوم نبتة في سيدني. ضلوعٌ مفكّكة ومع ذلك زرعتُ نبتة. وستصير النبتة شجرة أنظرُ إليها وأرحل، لكنّ الهواء سيبقى، إذ يلمسها، يشمُّ رائحة أصابعي.

فأفرحُ بهذا الخلود يا وديع. الخلود الذي هو ذكرى رائحة، خيالٌ يد في التراب. الخلود الذي هو عبورُ هواء، صمتُ ورق.

أفرحُ بهذا الوهم الذي هو أيضاً ضلوعٌ مفكّكة. ولكنّ بالتحام الأحرف تلتحم الضلوع، فجيئوا بالأحرف كي نلحمها. الحموا "الواو" و "الهاء" و "الميم". الحموا "الخاء" و "اللام" و "الواو" و "الدال".

الحموا ضلوع الوهم وضلوع الخلود، فتصير شخصين مثلنا، يزوراننا في الليالي، ونشرب معهما العرق ونلعب الورق.

والحموا "الشين" و "الجيم" و "الراء" و "التاء". السعادة هي أن ننظر إلى شجرة زرعناها، ثم نذهب إلى النوم.

أحمُ الأحرفَ وأعدُّ المائدة: الوهم والخلود ضيفاي.

في الليالي المقمرة يسعد الموتى. يخرجون لينقّمروا. يستلقون تحت ضوء القمر ويخبرون بعضهم حكايات. يعيدون على مسامع أنفسهم حكاياتهم الأولى هناك، حين كانوا يستلقون تحت ضوء الشمس ليتشمّسوا.

لا يخرج الموتى في النهارات من مقابرهم. الضوء الساطع هو ضوء الجنِّ والعاريت والأشباح المخيفة. عالم الشمس مرعب وقاتل وهم يريدون سلاماً وطمأنينة.

يخرج الموتى في الليالي ليستعيدوا حكايات لم يعد ينزف قتلاها دماً ولا عاد الموت يرعبهم. يستعيدون وجوههم التي سقطت برعب هناك، وتسقط الآن في بالهم مطمئنة.

تعرفتُ إلى موتى كثيرين. جالسُهم طويلاً حين كانوا أحياء، وجالسهم طويلاً بعدما صاروا موتى. قعدنا وشرينا وأكلنا معاً وتحدَّثنا كثيراً. . . لكنِّي سمعتُ لغةً غريبة من الموتى، ولا أعرف لماذا فهمتها أكثر مما فهمت لغة الأحياء.

لن تفهموا لو قلتُ لكم ما قاله لي الموتى. يجب أن تدخلوا في الموت مثلي، وتجالسوا الموتى، لكي تفهموا.

هل جلستم مرةً مع العدم؟ هل تعلَّمت لغة العدم وسمعتم ماذا يقول؟ كيف لعدميِّ إذن أن يوصل إلى الممثلين بالحياة كلاماً مفهوماً؟ كيف يفتنعهم بأنَّ الكلمات مخلوقات أخرى غير ما يعتقدون، لها طبائعها وأمزجتها ومفاهيمها التي لن تخطر لهم على بال؟

مخلوقات شبيحة متقلبة خبيثة ومفترسة. تكون تمضغهم في الوقت الذي يعتقدون أنَّهم ينطقونها. وتكون تُضللهم في الوقت الذي

يعتقدون أنّها الطريق. وتقتلهم حين يظنون أنّهم يحيون بها،  
ويحيون إذ يمحوونها.

كيف لميت أن يفهم الأحياء لغة الموتى؟ كيف يقنعهم مثلاً بأنّ  
"الواو" أداة قطعٍ ونقصٍ لا أداة وصلٍ وإضافة؟ فهل ينقطع شيء  
إن لم يكن موصولاً؟ وإذا يكون بلا وصلٍ ألا يكون مكتملاً بذاته  
فيأتي تطلّب الوصل لكي يجعله ناقصاً؟

وهل يقتنع الأحياء بأنّ "الكاف" التي قيل لهم إنّها للتشبه إنّما هي  
لمحو التشبيه؟ إذ كيف لا يُمحي وجهٌ إن شُبّه بآخر؟ كيف تكون له  
خصوصية ملامح إن كانت شبيهة سواها؟ كيف يكون هو، إن كان  
آخر؟ "الكاف" حرفٌ مفترسٌ أيضاً، فالتشبيه افتراضٌ للتشبيه لا  
إحياء في شُبّه.

لن يفهم الأحياء معاني الكلمات التي اعتادوا نطقها. لن يفهموها  
إلا إذا اكتسبوا طبائع الموتى. فالذين صاروا هناك فهموا اللغة  
كلّها، ولن يفهمها الذين هنا إلا إذا نسفوها كلّها وأدركوا أنّها لغة  
موتى لا لغة أحياء.

إنّني أدرك تماماً عجز الناطقين وعجز السامعين. فأنا كنت مثلهم،  
إلى أن أدركت أنّ لغة حياتي هي لغة موتي.

أفهم عجز الجميع، لأنّ الجميع يريد أن يكون حرفَ وصلٍ وأداة  
تشبيه. أفهم عجز الجميع لأنّ الجميع يريد أن يكون الجميع.

فالوصل عجزٌ والقطع قدرة، والتشبه اضمحلال والفرادة وجود.  
ولذلك لا وجود، ولا قدرة، إلا لناسفي هذه اللغة. لا وجود ولا قدرة  
إلا لجحافل المتمردين.

. . . وهؤلاء هم، هؤلاء هم القتلى، الذين لغة حياتهم هي لغة  
موتهم.

اقترَبَ أيُّها الغيم يا لهائنا. يريد الموتى أن يضعوا فيك كائنات  
جديدة.

يريد الموتى أن يصنعوا سماء أخرى، فاقترَبَ أيُّها الغيم.  
بانخطاف الدخول في الهواء والاندماج في الندى، يولدون. تتكوَّن  
النطفة من شقَّافين. من خفيفين لا مرئيين. لا يقسوان لئلاً يلمسا  
فيضيعان في يدٍ أخرى. ولا يُريان لئلاً يذوبا في نظر.  
اقترَبَ يا غيم، هناك ملاكٌ مهاجر.

ملاكٌ مهاجر يا غيم يبحث عن مكان، فاقترَبَ. ألا مكان في  
الفضاء لملاكٍ مهاجر!؟

قال لي أبي: تعلَّم من الشجر، فأنت سندیانة مقيمة. . . أريد الهواء  
يا أبي أريد هبوب الريح. ألمس الشجر وأبتعد، ألمس الوجوه  
وأختفي.

إقامتي الفضاء الشاسع، إقامتي اللامكان. شاردٌ لا رفاق لي.  
الشجر مُسَلِّيٌ وليس رفيقي. بين قفزٍ وقفزٍ ألاعب أوراقه، ليس  
رفيقي ولا سلفي ولا نسلي.  
والجوه ليست محفظتي. ليس لي محفظة يا أبي. لا أحتفظ بشيء،  
لا الوجوه ولا غيرها. فأنا هابٌ وليس ورائي سوى غبار.  
لا، لا، ليست الحياة الجميلة شجرة زرعناها، ننظر إليها ثم نذهب  
إلى النوم.  
الحياة الجميلة هي الهواء الذي يلمس الشجر، ويمضي.  
وأنا في سيدني تلقَّيتُ نبأً من بيروت أتى ميت. لم أكن أعرف أنني  
ميت حتى تلقَّيتُ نبأ موتي فعرفت. اتصلوا بي وسألوني: هل أنت  
ميت حقاً كما قيل لنا؟ فوجئتُ واحتزت. . . ثم أجبتُ: نعم.  
لا يعرف الواحد أنه ميت حتى يخبره سواه. الموت خبر، ويصير  
حالةً بالمعرفة. كنتُ حياً أو أظنُّ، وحين عرفتُ مُتُّ.  
وصل إليَّ نبأ موتي في الرابعة فجراً. لم يكن ليلاً ولا نهاراً. كان  
وقتاً خارج العتمة وخارج الضوء. لم يكن وقتاً كان هيوولي وقت.  
وكان هيوولي مكان وهيوولي حالة.  
نظرتُ من النافذة ورأيتُ روعة ما لا يُرى. رأيتُ جمال اللامرئي.  
وفي تحسُّس غيابي، أيقنتُ جمال لمس الفراغ.

كم هو رائع هذا اللامرئيّ كم هو رائع! لا يحدّش نظراً ولا يطلب رؤية. لا يسعى إلى عين ولا العين تحتاج إلى سعيّ لكي تراه. لا تحتاج الرؤية إلى عين لكي تمتلئ بروعته.

نظرتُ من النافذة. لا غيم ولا شجر. أين أنت أيّها الغيم أريد أن أُودع فيك آخر أنفاسي. نَفَسٌ ربّما يصير ماءً ذات يوم وينزل على شجرة. ربّما يصير عيناً تلتقي بنظرتها. ربّما يصير عصفوراً، ينقد نقدةً ويطير، كما كنتُ أريد حياتي.

تعال يا غيم أريد أن أُودع فيك آخر أسراري: أنا الغراب الذي أرسله نوح ولم يُعدّ. الغراب الذي صار الجهة الخامسة، ويبحثون عنها ولا يجدونها.

تعلم من الشجر، قال أبي. أين الشجر يا أبي أين الإقامة؟ السماء إذ تنجلي تأخذ ملامحها معها. نقاؤها فراغها. النقاء هو الفراغ يا أبي. الإقامة امتلاء.

أريد غيماً محيراً منقلباً، غيماً عصيّ الملامح، أريد إرباك الفراغ. أريد اختراق الفراغ وإرباكه. جعله حائراً قلقاً كالامتلاء. أريد مساواة الامتلاء بالفراغ والوجود بالعدم.

هكذا، على الأقلّ، يجلس الحاضرون والغائبون معاً، ويتسامرون طوال الوقت، إلى الأبد.

هكذا لا يرغب الحاضرون في امتلاء، فيخفون كريش. ولا يرغب الغائبون في حضور، فيبقون هواء.

هكذا تلتقي الخفقة بنفسها، ويولد كونٌ جميل.

راكضٌ لاهتٌ ضائع، ليس لي ريش ولستُ هواء. كيف أجمع

حضورِي بغيابي وألدُ منهما كوني؟

الحياة التي نزفت دماً كثيراً أنقلها دمها وغرقت فيه. الفم الذي قال كلاماً كثيراً سحقه حطامُ كلامه. الرئة التي لهتت كثيراً اختنقت تحت ركام لهاثها.

كيف أجعل من الغرق والحطام والاختناق كوناً؟

في البعيد خشية، هذا أمل الغرقى. في البعيد غيم، هذا أمني.

عُدتُم؟ أهلاً بكم أيها الموتى. هل اصطدتم شيئاً في هذه الرحلة؟

أوقدوا النار إنن، أريد أن أشارك في الوليمة. هل كان نائماً، مختبئاً

أم جافلاً هذا الإله الذي اصطدتموه؟ وقولوا، صفوا لي ملامح

وجهه وهو ينتظر الرصاصة. هل خاف؟ هل بان الرعب عليه؟

وهل كان رعبه شبيهاً برعبكم أمام رصاصه؟

أوقدوا النار أريد أن آكل وأشرب وأسكر معكم. أريد أن أشرب

نخبكم يا صيَّادي الآلهة في مجاهل العدم، في رحلة الانقلاب

العظيم، حيث يحيا القتل ويموت القاتل، وينحني السيّد ويشمخ

العبد، وتصير الرعيَّةُ اللهَ واللهُ الرعية.

خذوا كلوا. . . هذا هو الجسد الذي جعلكم جائعين.  
سينفجر البركان قريباً. وصلت النار إلى الحدّ وسينفجر. ستكون  
للأرض مائدة عامرة من أجساد مشويّة. سنُطهى الملائكة  
والقديسون والآلهة، وتُطبخ العفاريت والشياطين والجنّ، ويجد  
المشرّدون في الأرض والجائعون أطباقاً وُضعت فجأةً أمامهم.  
سيكون احتفال كبير للمنسيين على الأرض. فالبركان اقترب  
انفجاره، وسيشبع الجوعى من فحم الأرض أخيراً.  
راكضْ لاهتْ لا درب لي ولا وجهة. هاربٌ من فم الأرض. الأرض  
اقتربت منّي كثيراً وأريد أن أبتعد. ظلمتُ ريش الطيور فكيف  
أطير؟ ظلمتُ الموتى كيف يستقبلونني؟ والغيم إن أتى بماذا أَلعب  
معه؟ والوهْم إن تخيلتُه كيف أقيم فيه؟  
راكضْ لاهتْ كيف توويني الكلمات؟ والأشياء إذا نظرتُ إليها كيف  
تعرفني؟  
وماذا أقول للارتباك إن تحدّثتُ إليه؟ وكيف أربك الارتباك وهو  
مُركي؟ وإنّ، بالوهْم، اخترقتُ الفراغَ وأربكته، فهل يمكن حقاً أن  
أساويه بالامتلاء؟  
لقد اقتربت الأرض.  
اقتربت الأرض منّي كثيراً.  
الأرض اقتربت من الفراغ.

## الصوت

بودّي أن أكتب رواية عن صوت، خرج ذات يوم من فم وضاع في الفضاء، وصاحبُه يجري وراءه علّه يعثر عليه.

يقال إنّ الصوت لا يموت، يخفت في الهواء رويداً رويداً، لكن لا يموت.

عن ذاك الذي لا يزال فيه بعضُ حياة هناك، بودّي لو أكتب رواية وعن هيام صاحبه للقاءه مرّةً أخرى.

ذات يوم قال شيئاً غريباً  
وتموّج قوله في الفضاء وضاع  
وضاع هو وراءه  
طبقةً بعد طبقةٍ مرتظماً بهواء وبقايا أصوات  
محوّاً وراء قوله  
غير عارف أين صوته  
ولا عارفاً ماذا قال.

## الصرخة

بوذي أن أكتب رواية عن صرخةٍ خرجت من فم شخصٍ وهو يموت، وهامت في الفضاء ثم عادت تبحث عنه صرخةٍ تريد الرجوع إلى الفم الذي خرجت منه إلى رحمها، نبعها الجاف.

بوذي أن أكتب عن صرخة تعود إلى صاحبها الميت وتعرف ماذا كان يريد أن يقول

بوذي أن أعرف ماذا يقول ميتٌ لصرخته وماذا تقول الصرخة للفضاء.

## حيرة الذهاب

ترك أعضائه ومضى. بلا قدم ولا يد ولا قلب ولا أحشاء. قال  
سأكون خفيفاً هكذا، وراح.

الريح التي لعبت بشعره ذات يوم تلعب الآن بفراغه.  
خفيفٌ حتّى الإنهاك من مشقّة الخفّة. تائهٌ حتّى الطّفح بكثرة  
تشعّبات الفراغ.

لا، ما هكذا، قال. ما هكذا يكون الضجر الشريف  
ومدّ فراغاً منه إلى الوراء، كما كان يمدُّ يداً، لالتقاط شيء  
مدّ تجويفَ نظرة  
مدّ تخيّلَ صوت.

الوراء بعيدٌ جداً، الأمام بعيد جداً. لا عودة، لا وصول.  
لكنّه ليس ذاهباً إلى مكان

ولا يذكر أنّه ترك أعضاءً ولا يشعر أنّه خفيف  
لم يكن ضجراً من مكان ولا مكان له كي يتركه ولا مقصد كي  
يذهب إليه

ولم ينتبه إلى نظرة خرجت منه إلى ناحية أخرى  
ولا خيال صوت له  
ولا يقوى على مدّ فراغ.

## العشبة

يريد أن يعود. في حائط بيته عشبة صغيرة يريد أن يعود ويراها.  
حارسةً الحجرين وروحُ الوصل بينهما في شقّ ذاك الجدار. الجدار  
الذي رصف أحجاره حجراً لصقَ حجر، حريصاً على عدم ترك  
فراغ. لكنّها وجدتُ روحاً، ونبئتُ في غفلة فراغٍ صغير.  
إلى ابنة ذاك الفراغ، إلى ابنة تلك الغفلة، يريد أن يعود.  
لا يشتناق إلى بيت. لا يشتناق إلى أحد.  
يريد فقط أن يعود  
ليرى العشبة.

## الورقة

كتب شيئاً على ورقة، كي لا ينسى  
شيء ما كان يريد أن يفعله  
ولا يتنكره الآن.

كتب شيئاً بأحرف كبيرة، ووضع الورقة حيث كان يجلس.  
يريد أن يعود ويقرأها  
يريد أن يفعل ذلك الشيء  
أو يعرف على الأقل  
ما هو.

## شيء

إلى لويزا وجبران رومانوس، اللذين جلبا لي من لبنان قنينة عرق  
فاخر، وأكتب الآن وأنا أحتسيها.  
أريد أن أقول لكما شيئاً  
عن العشبة التي امتزجت بالروح  
عن الملاك الذي وقف اليوم أمام بابي، وشيئاً عن الأرض  
التي كانت، حين خرجتُ، لا تزال نائمة في بيتي.  
أريد أن أخبركما كيف تولد كواكب جديدة في الروح. وكيف، في  
كل ارتداد نظرة، يأتي عصفور وينقد الكواكب  
كيف الكواكب هي طعام العصافير حين نرثها من نظراتنا، وكيف  
مرَّ ظلُّ على زهرتي في الحوض.  
يا لويزا وجبران  
أريد أن أقول لكما شيئاً.

## نَسْمَةٌ

حين كانت النسائم لا تزال تمرُّ عليه، كان بوّده أن يتبع نسمة.  
فيها شيء من الجبال والسهول والوديان، وعبورٌ سريعٌ لكلِّ الأمكنة  
وشيء من رائحة جسده كان بوّده  
لو يعرف إلى أين تذهب.  
نسائم كثيرة مرّت عليه  
تركنت بقايا صغيرة لأرواح مسافات بعيدة  
يدٌ لوّحت على ميناء  
وَصَلَ إِلَيْهِ مَلْمُحٌ ظِلٍّ مِنْ عَرُوقِهَا  
وَنَفْسٌ مَيَّتٌ لَغَبَارٍ  
حَطَّ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى يَدِ تَزْرَعِ زَهْرَةٍ.  
نسماتٌ مرّت عليه  
فيها على الأرجح نثارٌ من لهاث أجداده  
وعلى الأرجح هما معاً الآن، لهاثهم ولهاثه، يتسامران في التيه  
مازجيين معاً أقصى الغابر وأدنى الحاضر، ماحيين الزمن.

شبتين ١٨ أيلول ١٨٣٧، الساعة ١٢ و ١٤ دقيقة ظهراً: ماذا

حدث في تلك اللحظة؟

ربّما رنّ صوتُ كأسين، ربّما ارتفعت صرخة، لا يعرف  
لكنّ ما حدث في تلك اللحظة ممزوج الآن برائحة جسده  
ويعرفه بالتأكيد نسيّمه.

ممزوجٌ في الكلّ الكلّ ممزوج فيه. متماهٍ، هواء

يهبُّ من تيهٍ إلى تيه، من فراغٍ إلى فراغ

وفيه أيضاً ذات يوم ستمتزج أرواح أولاده وأحفاده

الذين رأهم والذين لم يرهم، الذين عرفوه والذين لم يعرفوه

خليقةً بأسرها في نسمة

كلُّ ما خُلِق قبل وكلُّ ما يُخْلَق بعد

عميانٌ خرسان طرشان في هواء

من تيهٍ إلى تيه

من فراغٍ إلى فراغ.

## نظرته

نظرته الأخيرة ظلت هناك، عالقةً على شيء لا يتذكره  
ربّما امتصّها روحُ مكانها  
أو حطّ طيرٌ ونقّدها،  
بوّدّه أن يتفقّدها ولكنّ  
الفضاء الشاسع الرهيب، البؤبؤ البعيد أيضاً وفي مكانٍ آخر،  
والكائن المجهول الذي قد تكون صارت مُلكه.  
قديماً كان يرى أمواتاً يعودون، ويتمشّون أمام بيوتهم  
يتلمّسون أحجار الجدران، جذوع الشجر  
ومثل كأنّهم يسقون الزهور، ويقنلعون العشب الذي نما في غيابهم.  
لو أنّ أحداً يراه عائداً  
ويتلمّس مكانَ نظرته  
أو  
لو يبقى الطقس معتدلاً هناك  
فلا ترتجف نظرته من البرد  
ولا تيبس من الحرّ  
وإنّ أمطرتُ فخفيفاً لئلا تغرق.

## الجهة

يا حارس الفضاء الشاسع الجهات، كم جهةً يمكنك أن تحرس؟  
ستفلت منك بالتأكيد ريشةً على الأقلّ  
وتذهب على هواها  
ستنتصر نثرةً عليك.  
يا ريشتي الصغيرة دأيني إلى الممرّ الضيق السريّ  
أريد أن أتبعك  
يا مُربكةَ الفضاء وحارسه، يا ريشتي التي نفذت  
من جهة إرباك الوهم.

## نقطة

انظر، هناك نقطة!

انظر ملياً، في البعيد هناك، نعم بالتأكيد إنها نقطة  
وأظنُّ أنّ هذه هي التي نبحث عنها  
ارتدّ الريش الذي كنتَ سترميه في النار  
ولنذهب إليها.

نقطةً بين غمامتين، تنموه فيهما وتنموهان فيها  
لكنتي أظنُّ أنّها هي الصرخة التي خرجت منّا في ذاك اليوم  
أو القلبُ الذي نجتُّ منه نثرة،  
بالتأكيد هي البصيص الذي علا مع دخان رمادنا  
حاملاً شيئاً لا يزال حياً منّا.  
فلنذهب إليها، إني أراها  
إنّها بالتأكيد  
هناك.

## الذي

الذي قتلوه ودفنوه  
لأنّه أكل ثمرة  
نَبَتَ هَيْكُلُهُ الْعَظْمِيَّ  
وصار شجرة.

## حين أراد القاعد أن يمشي

واثبُّ من مكانٍ إلى مكانٍ  
حاملاً بندقيةً ومحاولاً  
أن يحوّل حلمه إلى طيرٍ  
إلى فراشة، ذبابة، صرصارٍ  
حاملاً شبكةً، صفاقةً، حذاءً  
لكي يقتله.

يركض من مكانٍ إلى مكانٍ صافقاً هنا وهناك  
يقتل ذبابةً فتتبتُّ فراشةً  
يقتل فراشةً فينبتُّ طير.  
قذفه حلمه في الريح  
كان جالساً، فأراد مشياً  
وضاع  
حلّم المسافات  
ففقد الأمانة.

واثبُّ حاملاً أيّ شيءٍ في طريقه  
كي يقتل اللحم  
ويستعيد المكان.

## ذبابة الطريق

بقي منسياً هناك  
ومشى، وهو منسيٌّ، الطريقَ كلَّه  
عَبَرَ المسافةَ كلَّها من دون أن يبرح مكانه  
وتسلَّى طوال الطريق  
مع ذبابة.

## يَمْدُ يَدًا

مع وصول الفجر يستلُّ شعاعاً ويضعه في جيبه،  
ماذا إذا بكى الليل وطلب ضوءاً؟  
ألم يمرَّ الفجرُ لكي يسرقه ويوزَّعه على الفقراء؟  
مع وصول الليل يسرق شعرةً سوداءً منه  
ليربطها بالفجر التالي ويجرّه، إذا حَزَنَ.  
وفي النهار مقعداً  
لانتظار الليل وانتظار الفجر،  
وحين تصل ريحٌ يمدُّ يده  
ويرى كوناً بأكمله في المسافة الضئيلة  
بين إصبعه والهواء.

## طير سريّ

ليس هذا اختلال نظر  
إنّما تحوّلُ الغبش في عينيه إلى طير.  
كانت الأرض ناساً وتراباً  
فحوّلها إلى طيور،  
أخذ من العين غبشاً  
ومن الوهم فضاءً  
واخترع طيراً  
لا يقوى أحدٌ على مطاردته ولا  
على رؤيته.

## المرافق الغريب

المرافق الغريب الذي لا نعرفه  
اقتلع خطواتنا من أقدامنا ورماها في النهر  
صارت أقدامنا في مكان  
وخطواتنا في مكان آخر يتقاذفها ماء  
لا نعرفه أيضاً.

مَنْ جاء بالمرافق إلينا مَنْ قال نريد رقيقاً؟  
نَبَتَ هكذا فجأةً من تيهه  
تيه الرحلة أو تيه سؤالٍ قد يكون  
خرج من فم واحدٍ يمشي بيننا  
فقال "رقيقاً"

ويقصد عطش المسافة، أو الاستراحة.  
لكنَّ ما حدث أنَّ الرفيق جاء  
رمى خطواتنا في النهر  
واختفى.

## النبع

حين سألوه عن الماء تحت قدميه  
قال إنه عَرَقُ التعب  
فهو من زمان يبحث عن نبع  
ولم يجده إلا  
في جسده.

## المفتاح

أخذ مفتاحه ورماه  
على الحاقّة  
وصار كلُّ الذين يريدون أن يخرجوا يضيعون  
أو ينزلقون  
في الهاوية.

## في الحديقة في الليل

في الليل في الحديقة يلفُ سيجارة  
من ناحية الضوء تبدو له قصاصات التبغ في الورقة رجلاً  
منحنين في الحقول  
نحيلين يزرعون تبغاً.  
يشعل عود ثقاب ويرى  
فلأحين سيشتعلون  
يطفئه، يعيد تبغ سيجارته إلى العلبه  
وينظر حواليه فلا يرى أحداً  
لا ناساً لا حقولاً لا تبغاً  
في الحديقة  
في الليل  
وحده.

## شخصٌ في الرماد

قال رأى في الرماد يداً، فمأً، عيناً  
يداً تريد أن تصافحه  
فمأً يطلب قبلة  
وعيناً تنتظر إليه.

حين كانوا يحرقون الجثة  
رأه كلُّه في الدخان:  
يولد من رحم أمه، يحبو على البلاط، يزرع زهوراً ويتمشّى في  
الحديقة، ويضيع خياله بين العمّال الراكضين في الشوارع.

رأى يده وفمه وعينه في الرماد  
ورأه كلُّه في دخانه،  
وحين كان الرماد جسداً  
لم يكن يرى شيئاً.

## نَسْمَةٌ طَيْرٌ غَرِيبٌ

النسمة التي على جناحيه ليست من هواء الفضاء  
إنَّها من طَيْرٍ غَرِيبٍ  
عَبَّرَ ذاتَ يومٍ في ذاكرته.  
طَيْرٌ يَعْبُرُ الآنَ أيضاً  
يراه  
سريعاً  
ويختفي.  
إنَّه يَمُرُّ  
بِانْدفاعٍ غائبٍ.

## مكان الحائط

بوذي أن أكتب عن صورة لميت، مزقوها قطعاً قطعاً ورموا كل قطعاً في مكان، فعدت وجمعت نفسها صورة كاملة. بوذي أن أكتب عن صورة تمزقت نثفاً، وعاد صاحبها من الموت كي يلحمها، توزع في أمكنة كثيرة كل نثفة منه في مكان، تبحث عن نثفة منه، لكي يجمع نثفه ويعود صورة جسد كاملة. يمد يد وهم هنا، وهم عين هناك يمد نثف أو هام، ليجمع جسداً وهم كامل.

جردوا الحائط من كل الصور، قال، ومزقوها، فهي ستلتحم، وتعود كلها إلى الحائط نتقوا أسلافكم ورموهم قطعاً قطعاً، سيقون مقيمين فيكم. قال هذا، ومضى يجمع نثفة من هنا ونثفة من هناك معيداً لحم الصورة وعارفاً تماماً مكان الحائط.



يغمرنني فرحٌ كبيرٌ أتّي جالسٌ الآن في الحديقة وأرى أشجاراً وعشباً  
ونملة تتسلّق جذع شجرة أمامي. ويغمرنني فرحٌ أتّي أسمع الآن  
صوتاً في بيت جارٍ لي. هذا يعني أتّي في حياة حقيقية: الحياة  
التي فيها شجر ونمل وأصوات.

المسافات التي أعارتني تصوّرات خطواتها أعيد التصوّرات إليها.  
الأمكنة التي وهبتني تخيّل السكن فيها أعيد إليها كراسيها وبيوتها.  
أعود من الكواكب الوهميّة وأسكن مع النمل والشجر. أسكن مع  
الصوت الذي يخرج من نافذة الجيران، ومع رؤية الخطوات في  
الشارع، والعصفور الذي يأتي ليسرق طعام كلبتي وأهتف: إنّني في  
الحياة الحقيقيّة!

أعيد الكراسي إلى الكواكب، وأجلس على حجر في الحديقة.  
إنّها نهاية رحلة الوهم، التي لم تبارح هذا الحجر.  
ومن النهاية هذه، أبدأ تعلّم معنى أن تكون على الأرض نملة  
تعيش معي، أو أكون أعيش مع نملة. وأن تكون أصوات الجيران  
خارجة أيضاً من فمي ولو لم أتقوّه بكلمة. وأن تكون قدمي هي  
التي تخطو خطى الماشين في الشوارع، ولو إلى هاويتي.  
نهاية رحلة، لم تبتدئ أصلاً. وأحاول بدأها، لكنها انتهت، وبقيت  
على جوانبها نملة وشجرة وعصفور، ورجلٌ يجلس في الحديقة،  
وينظر إلى نملة.

رحلة يحاول صاحبها أن يبدأ، من نملة!  
نملةٌ حقيقيّة، وتسلقُ حقيقيّ، وجذع شجرة حقيقيّة. يا لهذه الحياة  
الحقيقيّة البسيطة التي غفلتُ عنها طويلاً! وإذا كان في مقدوري أن  
أكون، بعد، حيّاً حقيقيّاً، فعليّ أن أبدأ من هنا، من النملة.  
اخترعتُ أشجاراً في مجرّات، نسوراً لا تأبه بنمل، ووضعتُ كرسيّاً  
في هواء، وحاولتُ رصفَ أحجار على غيم.  
لا، ليس هذا بيتاً للعقلاء. فليس عاقلاً من لا يعيش مع نملة.  
الغيم أتى فأهلاً يا صديقي؟ أيُّ غيم أتى؟ فلا غيم هناك ولا حتّى  
سما. والنظرة التي قلتُ إنّها تبحث عن عين، لم تكن سوى حَوْلِ  
فراغٍ في محجريّ. والنافذة التي اعتقدتها تطلُّ على كون جديد،  
كانت شقّ جدارٍ في ذاكرتي.  
لا كونٌ جديد. كلُّ الأكوان الجديدة رصفُ أحجارٍ من الذاكرة. فقط  
هذه الأرض العتيقة، وأريد أن أعود إليها، إلى الحجر الذي وضعه  
أولُّ إنسان، وأجلسَ عليه.  
بودّي أن أكتب رواية عن موت التخيلات. عن الصرخة التي لا  
تعود إلى صاحبها، والصوت الذي لا يبحث صاحبه عنه.  
بودّي أن أكتب فقط عن شخص حقيقيّ، يجلس على كرسيّ  
حقيقيّ، في حديقة حقيقيّة، ويعيش مع شجرة ونملة حقيقيّتين.  
الأحلام تقتل الحقائق، وتقتل الأحجار والجالسين عليها.

بوذي أن أكتب عن حجر، لا يتحرك أبداً من مكانه  
وعن شخص  
يجلس مطمئناً  
على ذاك الحجر.

# 10

**تركيب آخر حياة وديع سعادة**  
( 2006 )



مرّ ظلُّه على كائنات جديدة  
لا أسماء لها ولا أشكال  
لكنّها وُلدتْ  
هكذا سهواً  
في نقطةٍ غريبة  
بين الحقيقة والوهم

## تركيب آخر لحياة وديع سعادة

يأتي إليّ أريجها من دون أن أمدّ يدي  
بمجرد نظرة تكون  
وبنقرة صغيرة على طاولتي تولد فراشاتٍ غريبة وتحوم عليها.  
لا قَدَم بيننا بل عطرٌ يمشي  
ليس بيننا كون، فقط هواءٌ أشكله كوناً جديداً  
أخذُ زراً من سهوي وأبكلُ أعضاء  
أبكلُ أرضاً وشموساً وكواكب  
أبكلُ سهوات.  
لا أقول "تعال"، فقط يمرُّ في بالي مجيء.  
أرضٌ بلا مسافات  
والسمااء إذ تمطر فليست مشيئةً غيومها، إنَّها مشيئةً بالي  
والذين خلقوني تواروا والذين في بالي يولدون  
وليس في كوني تقاحة، ولا أفعى، ولا إله  
أركبُ، قطعةً قطعةً، على مهلٍ، كوني

فراشاتُ بالٍ وأرضُ بالٍ وناسُ بالٍ  
كائناتٌ جديدةٌ أُطلقها في الساعات، وكائناتٌ أُغيتها  
وأُغيّرَ وظائفَ الأعضاء، ووظائفَ حاملِها.  
أرضٌ بلا مسافات، وليس عليّ أن تكون لي قَدَمٌ لأمشيها  
عينٌ تجلب لي الأرضَ بالنظرة  
وليس واجباً أن تكون لي يدٌ لأقطف زهراً. لا شيء واجبٌ عليّ كي  
يكون لي كلُّ شيء.

ها إنّ يدي تفكّك أصابعها، وقلبي يفكّك شرايينه، وعيني تفكّك  
حدّقتها

أضغ في يدي أصابعَ بالٍ، وفي قلبي شرايينَ بالٍ، وفي عيني  
حدّقةَ بالٍ

وفي نهاري زمنَ بالٍ وعلى الأرض كائناتٍ بالٍ جديدة  
وإذا الرغبات عصتُ على البال، ألتقطُ كلَّ الرغبات بعدم الرغبة.  
ليس النبع بيننا ولا المجرى، ولا مسافة بيني وبين البحر  
يولد النبعُ منّي والبحرُ منّي، وليس عليّ أن أجري لكي أصل  
هناك هو هنا

والأرض الأخرى تمشي قبّالتي ولا أنتفتُ إليها.  
لم أكن أجري في نهر. كنتُ بمحاذاة الأنهار أنتظر مائي  
أجلس على لا مكان، ولا يجلس معي زمن

وإذا جاء يومٌ قديمٌ وجلس في يدي، أعيده إلى أرضه القديمة.  
رسمتُ لا مكاني وجلستُ. قعدتُ على خريطةٍ بالي.  
لا منعطفات ولا طرقَات  
وإذ أُطلقُ عصفيري في الفضاء تبقى في قلبي  
ذلك لأنَّ الفضاءَ بالٌ والصوتَ بالٌ والمكانَ بال  
ولأنني لا أنزه الأيَّامَ في الوقت، بل في حديقةٍ بالي.  
يا عيني التي وحدها تشرق عليّ، الشروق والغروب هما هنا تحت  
رمشي.

أقيم في ظلِّ إغماضةٍ عينٍ وفي ظلِّ انفتاحها، وليس في ظلِّ  
الشموس البعيدة  
ويا عشباً مولوداً من خطواتي أعيش تحت أوراقك  
وتعيش معي أراضٍ ومجرَّات  
وترقص مخلوقاتٌ وتغنِّي.  
واقفٌ هنا، حيث يعبر الجسرُ وليس الماشون عليه  
يكفي أن أف، لكي أصل.  
يعبر الجسرُ بي ويعرف وجهتي، يعرف أن لا وجهة لي إلا  
الوقوف

المدى في عيني والأرض في قدمي  
وإن احتجتُ إلى رفاق، هم تحت جفني

يتقلّص الكونُ حتى يصير حدقتي  
ويدي تطلق خرافها إلى كون، مراعيه رؤية  
يكفي أن تنتظر حتّى تشبع  
ويكفي ألاّ تنتظر، لئلاّ تجوع.  
لكّني مشيتُ كثيراً حتّى صرتُ هنا. مشيت كثيراً حتّى وصلتُ إلى  
كون الوقوف  
إلى الحياة التي بقَدَمِ حرنه، ويأتي الكون إليها.  
الأرض في قدمي والمدى في عيني، ما حاجتي إلى المشي؟  
وقوفٌ، سكونٌ، صمتٌ، بهاء.  
هل مرّ ظلّي على شجرة؟ هل مرّ ظلّي على هواء؟ ذلك أريجُ بالِ  
يسبح، ذلك بخارٌ سهوٍ يوضوع  
غيومي التي تمطر مائي  
وأورعُ منه في الساعات، على كائناتي الجديدة  
على النظرات التي تصطفُ مقاعدَ لأطفالي.  
ها هو الكون يجلس أخيراً على حَجَرِ نظرتي  
كوني الصغير الخفيف الذي يسعه حجر، وتحمله نظرة.  
آتٍ من هناك، فارّاً، كي أستريح على حجر  
آتٍ من الذي كان فسيحاً كي أجلس على نقطة  
على شيء نحيل، لا هناك فيه ولا هنا.

آتٍ من مساحات، لكثرة ما كانت شاسعة لم أكن أرى شيئاً منها  
إلى حَدَقَةٍ صغيرة أعرفُ كلَّ سَكَّانها.  
آتٍ من عيونٍ كثيرة  
لكي أجلس في عيني.

## يدٌ أخرى

الذي كانت له يدٌ بقبضةٍ وأصابع  
وتريد أن تلتقط كلَّ الأشياء  
له يدٌ أخرى الآن  
ترفع مزهوّةً  
قبضةً فراغها.

## عين أخرى

بالتقوب التي انبثقت من تيهه

يرى،

عينه الآن تقبُ تيه

وأفلاكٌ تدور في إغماضتها.

لم يكن يريد من عينه سوى

إغماضة

رموشها دروبٌ للعابرين

وإذا انزلق أحدٌ

يسقط في حدّته.

عينٌ تحفظ أحياءه وأمواته

وهي مغمضة،

وإن هي في الماضي أرادت رؤية الكون فعلى جفنها اليوم

غبارُ كلِّ الأكوان

غبارُ أمكنةٍ وأزمنةٍ وقد غدتْ

نقطة

على جفنه.

فقط غبار

ولم يكن يريد سوى هذه النقطة  
في عينه المغمضة.

## كائناتٌ أخرى

من نسيمه العابر تولد كائنات  
نسيمةٌ لا مكان لها  
ولها الأحجام والأشكال كلُّها كي  
تكون لها كلُّ الأمكنة.

الفضاء الذي روَّضَ نفسه بالفراغ  
خلَقَ طيورَه،  
والأرضُ التي حدَّقتُ طويلاً في يبابها حتى خلقتُ أشجارها  
تؤوي طيورَ فضائه  
ريشاً لا يرى  
وأجنحةً لا تحتاج إلى هواء.

أرضٌ جديدة تدور في قلبه  
وفي نسيمه عابرون جدد  
لا تعرفهم دروبُ الرياح القديمة،

عابرون بلا شكل ولا ظلّ  
وإنْ أرادوا إقامة  
ففي نفسه تقوب  
تكفي  
لسكناهم النحيلة.

## لثغُّ على الحافَّة

الآن  
بيداً لثغُّه،  
تأتأةً خارج الكلمات  
والغابئةً التي ينظر إليها ويريد أن يقول لها شيئاً  
تلملم أشجارها وتتناهى  
عن ذكرى ناسها الأولين  
وحيواناتها الأولى.

يتأتىء مقاطع لغةٍ ومقاطع مسافات  
ويستعين بالفراغ الذي حوَّاه كي يتكئ عليه  
وبالعصا التي قصبَّها في نومه  
كي يمشي.

لثغُّ على الحافَّة  
نقطةً نحيلةً فقط  
كي يعبر أو يسقط.

ويريد  
أن يضع لغةً على الحاقّة  
أن يضع أدنأً  
في النقطة.

## تقريباً

تقريباً

اتكأ

على نسمة

وأسبل باله على زمنٍ هوائيٍّ

مديد.

تقريباً

اتكأ على خيالٍ

يحوك قمصاناً للفراغ حتى إذا

امتلاً لا يبرد.

تقريباً على وشكٍ

أن يقول شيئاً

على وشك أن ينظر إلى شيء.

تقريباً  
على وشك أن يهجر البال والخيال  
وبنكئ  
على عماه.

## ذكري هواء

لا يعرف من أين

في غياب الهواء

يأتي لهائه،

ربّما هي ذكري هواء

تمرُّ الآن في رنته.

الذكري تمرُّ في الرئة أيضاً

واللهاتُ أحياناً ليس هواء

بل ذكري

والداخلون والخارجون مع لهائه ليسوا أهله ولا

مقيمين بل زوّارٌ عابرون

ولا يُقيم في لهائه بل

في عبورهم.

لا يعرف من أين يأتي لهائه ولا أين يقيم  
الهواء عَبْرَهُ  
وهو  
عَبْرَ المقيمين فيه.

## الرحلة

إليه فوراً  
بلا نقلةٍ ولا رقةٍ  
كأنه ألغى الترابَ والشجرةَ والفضاءَ

يظنُّ أنه فيه  
إن تحرَّك سيضيع  
إن خطأ  
لن يصل.

لَغْنُهُ

لغْنُهُ ذكْرِي لَهَاث

مَحْمِيٌّ

فِي صَمْتِهِ.

## اللغة

لا المنادي ينادي ولا المنادى يصغي إنَّها الريح  
تتحدَّث مع عبورها  
ويرمي كلاماً في الريح  
لا كي يقول شيئاً بل  
كي تتفكَّك مفاصلُ الكلمات  
وتندثر.

اللغةُ هي نثارها  
الكلامُ هو  
تبدُّدُ الصوت.

في اندثار الأحرف  
في الريح  
اللغة.

## ضوءٌ آخر

على الجبل العالي أغمض عينيه  
لا يريد ضوءاً قديماً مشى آلاف السنين كي يصل إليه  
أغمض عينيه وانحدر  
إلى الوادي  
حيث الغور لا يكتسب ضوءه من الشمس بل  
من تحديق حجرٍ في حجر.

## قال

قال سيعيد تركيب حياته كي تُشبه النسيم  
وتتناسب مع الأشكال والأحجام كلّها،  
رمى أعضاء وأفكاراً وأهلاً وأمكنة  
رمى جسداً وقمصاناً  
كرّ خيطان نفسه وبكّل حياته  
بِزِرِّ ريح  
ودخلَ تقوياً  
دخلَ ظلاماً  
وما عاد رأى كيف يعيد  
حياكة نفسه.

## في المكان حيث وقفتُ

في المكان الذي لا يعرف فيه أحدٌ أحداً، وحيث الجميع واقفٌ في  
انتظارٍ أحدٍ وسوطُ العبورِ يضربه لكي يمشي  
وقفتُ أنا أيضاً وقلتُ سأمشي، لكني أنتظر رفيقي.

في المكان الذي رسمته أساطيرُ الأرض الأولى،  
في عيون الآلهة الحمراء ومشكاتٍ مشاوبهم وفي قرون الشياطين  
وشيِّ أجساد المخلوقات، وقفتُ  
في مكان البدء حيث الكون ينزل من براكين والناسُ تنبت من جمر  
وقفتُ منتظراً رفيقي  
يتصبَّب منِّي بخارُ الخلق الأول  
ومموهاً بضباب الخلق الثاني  
وقلتُ سأكمل الرحلة، سأمشي  
لكني واقفٌ أنتظر وصولَ رفيق  
واقفٌ أنتظرُ  
وصولي.

## كوكبٌ جديد

كوكب جديد يدور  
في رأسه  
وفيه مخلوقات غريبة  
أجسادٌ كأنّ ليس فيها سوى نسيم  
عيونٌ كسُحُبٍ ليست آتيةً من ماء  
ولا ذاهبةً إلى نهر  
قلوبٌ كشيطان  
تتمدّد عليها أرواح ناعسة  
كأنّما فلتت من عذابات تاريخ طويل  
وجاعت  
لتستريح.

كوكبٌ جديد في رأسه  
ولا يعرف كيف يصاحبُ مخلوقاته الغريبة  
ولا كيف يهجرها،

ينظر إليه مشغولاً  
ينظر إليه حائراً  
ويسند رأسه على وسادة  
وينام.

## ارتدادات هواء

عوضَ أن يسمع الصوتَ يراه  
آتياً، على عُكَّاز، من أماكن بعيدة  
تَعْباً  
على كتفه حمولات كلام يريد أن يوزعها على أذان  
وعلى دروبه آذانٌ ترى  
ولا تسمع.

عوضَ أن يرى الطريقَ يسمعها  
مثلَ صدئٍ بعيد،  
كأنَّه يمشي على ارتدادات هواء  
وكأنَّ الأرضَ ليست تراباً  
بل صوت.

ترابٌ يسمعه ولا يراه  
وصوتٌ يراه ولا يسمعه  
كأنَّما لا يسمع غير خرسه  
ولا يرى غير عماه.

## الوصول

يرمي قطعةً ويمشي خطوة  
الحمولة الثقيلة تعيق سيره  
تعيق وصوله،  
يرمي قطعاً عن كتفه  
قطعاً من جسده  
من قلبه من عينه من رأسه من ذاكرته  
ويمشي،  
كلّما رمى قطعة مشى خطوة  
وحين صار فارغاً تماماً  
وَصَلَ.

## لم يرَ

الذي أخذَه إلى الطريق وَصَلَ قبله  
والذي أخذَه إلى الحافَّة تأخَّر عنه  
يمشي وحده ولا يعرف  
مَنْ أَخَذَه وَمَنْ رماه  
اجتازَ الطريقَ واجتازَ الحافَّةَ  
وَنظَرَ من الطريق ونظر من الهاوية  
ولم يرَ أحداً.

## يَطَأُ عَلَى ذِكْرِي ظِلًّا

يَطَأُ عَلَى ذِكْرِي ظِلًّا  
مَحَاوِلًا جَذْبَهُ خِيَالًا بَعْدَ خِيَالٍ  
كِي يَعْيدُ حَيَاةً مَاتَتْ إِلَى سَرِيرِهَا الْأَوَّلِ  
وَأَرْضًا أَقَلَّتْ إِلَى بَدْءِ دَوْرَانِهَا.

يَجْذِبُ ظِلًّا حَيَاتِهِ خِيَطًا خِيَطًا  
مَحَاوِلًا حَيَاكَةَ الْقَمِيصِ الَّذِي  
ذَاتَ يَوْمٍ  
أَرَادَ أَنْ يَغْطِيَ الْحَيَاةَ بِهِ  
تَحْتَ الْجَسْرِ، هُنَاكَ، حِينَ هَجَرَهَا سَكَّانُهَا  
وَنَامَتْ عَارِيَةً فِي الْجَلِيدِ.

ظِلًّا  
يَعْيدُ حَيَاكَتَهُ قَمِيصًا  
يَعْيدُ حَيَاكَتَهُ حَيَاةً

ويضع في القميص زراً وُرد  
حتّى إذا عاد رأى الحياة  
يهدّيها وردة.

ظلُّ  
ينام هناك  
على ترابٍ بعيد.

## المسجى أمامي

الميت المسجى أمامي قطعةً مني  
رأيتُه ذات يوم صدفةً وقال: أنتَ قريبي  
وأراه الآن بعد غياب طويل  
مسجىً على سريري.

قال: قريبي  
وما كنتُ رأيتُه قبل القول ولا رأيتُه بعده  
لكنَّ قوله جعلني منه  
وصرتُ مذ ذاك  
قطعةً من غائب.

قال ومشى  
واستمعتُ ومشيتُ  
وكانت خطواتنا مشياً في غياب  
أطأ على غيابه ويطأ على غيابي

حتى التقينا:  
قطعتين  
من غياب  
مسجّاتين على سرير.

## مِثْلُ ظَنُونٍ

ظَنَّ التُّرَابَ غَيْمًا  
سَقَطَ وَبَيْسَ  
مَحْتَفِظًا مِنَ الْفُضَاءِ بِلِهَاتٍ نَاسٍ كَانُوا يَعْبرُونَ  
فِي صَحَارَى حَارِقَةٍ.  
ظَنَّ الشَّجَرَ أَيَادِي دُفْنَتْ تَحْتَ التُّرَابِ  
فِي حُرُوبٍ قَدِيمَةٍ  
وَالْعَشْبَ كَلِمَاتٍ كَانِ الْقَتْلَى يَرِيدُونَ قَوْلَهَا وَهَمْ يَحْتَضِرُونَ.  
ظَنَّ الْعَصَافِيرَ نِظْرَاتٍ مَوْتَى  
تَبْحَثُ عَنْ عَيُونِهَا  
وَالْأَحْجَارَ رُؤُوسًا  
تَبْحَثُ عَنْ أَجْسَادِهَا  
وَظَنَّ  
مَا يَظُنُّهُ  
ظَنُونًا.

## مزارعُ أخرى

قال ستمطر ، ستمطر كثيراً  
ومذ قال وهو جالسٌ ينتظر المطر  
عينٌ على الفضاء  
وعينٌ على التراب  
حتَّى انفصلتُ عيناه  
واحدةً في الأرض وأخرى في السماء ولم يعد يرى  
لا غيماً ولا فضاءً  
ولا تراباً.

قال سأزرع نباتاً جديداً  
لا يحتاج إلى تراب ولا إلى ماء  
دَخَلَ في خياله وزرعَ ظِلًّا  
ومذ ذاك وهو ينام  
في ظلِّ خيال.

## قال . . . أيضاً

مرّةً أخرى قال  
سأعيد تركيب حياتي  
خَلَعَ يداً ووضع مكانها زهرة  
خلع عيناً ووضع مكانها ثمرة  
خلع قدماً ووضع مكانها شجرة  
خلع فماً، أدنأً، قلباً، رئة...  
ومشى في حديقته الجديدة  
يبحث عن نفسه  
ولا يجدها.

## في التراب

في الحديقة شيء مثل خيال

يمشي

يبحث عن شيء مثل خيال

سقط منه في التراب وهو يزرع بذوراً

وضاع.

في التراب خيال

ضاع من مزارع خيال

في ترابٍ

خيال.

## يريد النمل أن يعبر

ضَعُهُ هنا على الحجر الذي كان رأساً  
هذا الرأس كي يصير حجراً أيضاً،  
وَضَعَ العَيْنَ في ثقب الإبرة الذي كان أصلاً محجرها  
وخرجتُ منه لتحريك خيوطاً وتضع الكونَ في بيت عنكبوت،  
ولا تآبهُ لليد بل ارمها  
في القمامة هناك  
مع اليد الأولى التي جبلتُ تراباً،  
وأخرجُ أذنيك من سَمَعِهما  
إلى الفضاء الأصمِّ  
وقدميك من الطريق،  
يريد النملُ أن يعبر  
ويغني  
ولا يريد أن يسمعه  
أو يراه  
أو يلمسه أحد.

## أقفِلِ البابَ أيضاً

أقفِلِ البابَ أيضاً  
قد تخرج أعضاءً منك وتضيع  
تغافلُك وتخرج إلى الشارع  
وتصير أعضاءً لعابر مجهول،  
فالأعضاء تلزمها أقفالٌ  
كي تبقى لصاحبها.

أقفِلِ البابَ  
وإلا تصير المجهولَ الذي  
عبّرَ على غفلةٍ أمام بيتك  
واختفى.

## ... واغلقِ الرموش

ولا تأخذِ العينَ في نزهة  
فهي تضيع أيضاً ولا تعود تراك  
تتبع عابرين مسرعين أو  
تدخل في حدقة أعمى  
تنبش ذكريات رؤاه التي  
أنتَ لستَ فيها  
فلا تكون في الحضور ولا في الغياب.

دع عينك في مكانها  
واغلقِ الرموش  
قد ترى عابرين كثيرين على جفئك  
وكوناً بأكمله  
في عماك.

## الطريق

امحُ كذلك الظلَّ الذي رسمه عبورك،  
ظننتَ الطريقَ رسماً لدروب  
والمشيَ خطأً على رسوم،  
لكنَّ الطريقَ لم تكن خطوات  
كانت الظلَّ  
الممحوّ.

## نوم المجرّات

مالَ على بالٍ، ونام  
عَمَرَ أراضِي بعيدة  
في كواكب بعيدة  
بزغتْ على وصادته وغمي لها  
كي تغفو  
غطى بلحافه مجرّات باردة  
مجرّات جائعة تبكي على سريره  
بحث لها عن نار  
بحث لها عن طعام  
في بهو مطبخ عتيق كان ذاكرته،  
وما زال إلى الآن يهزُّ لمجرّاتٍ على زنده  
علها تصمت  
وتنام.

## جَمْعُ نثَارِ كَلِمَةٍ

أطلقَ كلماتٍ في الهواءِ وراح يلعبُ بها، مثلَ بالوناتٍ  
يشدُّها ويرخيها... حتى انفجرتُ  
واختلطتُ أحرفٌ بأحرفٍ وضاعت أحرفٌ وما عاد يعرف  
كيف يجمعُ الأحرفَ ولا كيف  
ينطقُ بكلمة.

الكلامُ جَمْعُ نثَارٍ، قال في قلبه  
لَحْمُ أعضاءٍ لمجهولين ضائعين،  
ومذ ذاك وهو يحاول  
رثقَ بالوناتٍ  
ممزقةٍ  
في الهواء.

## أين الحديقة؟ أين البيت؟

زرعَ ما كان يحلم به من أشجار وخضار  
في حديقة شاسعة  
وحين حان قطافها  
خرجتُ من كتفه عوض اليد نسمةً وقالت:  
أريد أن أَلعب في الحديقة،  
غادرَ الأشجارَ والخضار  
وتركَ النسمةَ تلعب.

قال أُنبي بيتاً  
عُرُفاً تكون حدائق لأحلامي  
بنى عُرفاً كثيرة  
وحين دخل ضاع  
وما عاد يعرف أين البيت  
ولا أين الحديقة.

## ذاكرة طير

نَظَرَ إِلَى الْفِضَاءِ وَاسْتَلَّ ذَاكِرَةً طَيْرٍ وَوَضَعَهَا فِي رَأْسِهِ  
جَابَ بِلَدَانًا وَقَارَاتٍ  
حَقُولًا وَتَلَالًا وَوَدْيَانًا وَغَابَاتٍ  
وَوَضَعَ بِيضَهُ فِي أَمْكِنَةٍ كَثِيرَةٍ  
حَطَّ فِيهَا لِحْظَةً  
وَمَا عَادَ.

نظر إلى الفضاء واستلَّ ذاكرة طير مهاجر  
وكان كلَّ مساء  
يأوي الطيرُ إلى بيته وينام في سريره  
ويبقى هو  
يطير في الفضاء.

## خطوطُ أخرى

ارسمْ نفسك نهراً، وسيلَ  
شيءٍ منك لعشب الحافّة، شيءٍ للحصى، شيءٍ للبحر و شيءٍ  
للبخار  
سيلٌ مع خطوط رسمك للماء  
مائك الذي حاد عن الطوفان ولا سفينة له ولا نوح  
الماء الذي شرد  
وانتظرَ رسمك  
كي يعرف مجراه،  
ارسمه  
وامنح العشبَ خطوطاً منه  
ربّما على الحافّة عشب كان يرغب أن يكون كائناً آخر  
وامنح خطوطاً للحصى  
قد تكون للحصى رغبةً أن يمشي  
وخطوطاً للبحر  
قد تكون له رغبةً في أمواج جديدة

وخطوطاً للبخار  
ربّما بخاركَ يريد أن يعود إليك  
ولا يعرف الطريق.

## ولا تنسَ الشجرة الصغيرة

ولا تنسَ شجرة صغيرة  
زرعتها قبل أن تصير ماءً،  
لقحها بمائك الآخر  
علها هي أيضاً تريد أن تصير كائناً آخر  
علها تريد نسلًا غير نسل الثمرة الأولى، غير النسل المعلق على  
الغصون  
لقحها بمائك الراكض  
علها تريد عوض الثمار أطفالاً يركضون  
ويلعبون حولها.

للأشجار أيضاً رغبة في المشي والسفر  
ولها رغبة الأمهات في أطفال  
لا يموتون في مكانهم،  
فقبل جذور الشجر بمائك الآخر  
ودعها تخرج من التراب وتمشي.

## سَعَلَ وَمَضَى

سَعَلَ وَمَضَى  
وَجَرَى سَعَالَهُ وَرَاءَهُ  
حَامِلاً تَارِيخاً مِنَ الدَّخَانِ  
تَارِيخاً مِنْ هَوَاءٍ كَانَ يَخْتَارُهُ  
هُوَ  
لِحَيَاتِهِ.

جَرَى سَعَالَهُ وَرَاءَهُ كَيْ يَذْكُرَهُ  
بَصْمَتِ أَنْفَاسٍ أُخْرَى كَانَتْ تَخْرُجُ مَعَ سَعَالِهِ  
وَكَيْ يَقُولُ لَهُ  
إِنَّ لَثْغاً مَا خَرَجَ مِنْ ذَلِكَ الصَّمْتِ  
لَا يَعْرِفُ مَا هُوَ  
لَثْغٌ خَرَجَ هَكَذَا فَجَاءَتْ مِنْ أَنْفَاسٍ رَحِلَتْ  
فَمَا عَادَ نَفْساً  
وَلَا صَارَ كَلِمَةً.

جری سعاله بیحث عنه  
لکنه سَعَلْ  
وغاب.

## لا في التراب ولا في مناقيد الطيور

عرفته الطيورُ من عينيه  
اللتين لا يزال يعيش فيهما نمل،  
قال سأعيد تركيب حياتي ولكن  
ظلّ نملٌ يدبُّ فيها  
تعرفه العصافير جيّداً حين كانت تبحث عن طعام في حديقته.

أراد أن يخرج من تراب ويشكّل نفسه هواءً  
طار قسمٌ منه  
وقسمٌ ظلّ في التراب  
قسمٌ علا ولم يعد يراه  
وقسمٌ غاص ولم يعد يجده،  
وحين أراد استعادة أعضائه القديمة كانت تتناثر  
وما عاد رأى نملاً في التراب  
ولا نملاً في عينيه  
ولا في مناقيد الطيور .

## كان هناك

صَعَدَ عَالِيًا عَلَى نَسِيَانٍ  
وَحِينٍ مَرَّ طَيْفٌ قَدِيمٍ  
انزَلَقَ عَلَى ذِكْرِي وَعَادَ  
إِلَى الْهَائِيَةِ.

كَانَتْ السَّلَامُ كُلُّهَا مِنْ صُنْعٍ غَيْرِ رَاغِبِينَ فِي عُلُوِّ  
وَمِنْ صُنْعٍ نَاسِينَ كَيْفَ يَحْرُكُونَ أَقْدَامَهُمْ  
وَكَانَ هُوَ قَاعِدًا مَعَهُمْ  
صَامِتًا مِثْلَهُمْ  
بِلا حِكَايَةِ وَلَا ذِكْرِي  
وَالزَّمَنُ يَمُرُّ مِثْلَ ذَبَابَةٍ عَابِرَةٍ  
لَا يَلْتَقِتُ إِلَيْهَا أَحَدٌ.

## حيرة اليد

يفتح يده ويرى قوافل مشاة  
تعبر في عروقتها،  
إلى أين يذهبون؟  
إلى قلبه؟  
أم إلى الجدران والأبواب حين يلمسها؟

هل  
إذا لمس الأشياء  
غادره إليها الساكنون في عروقه؟  
لا يعرف  
ويحار  
هل يلمس شيئاً  
أم يبقي يده  
في الفراغ؟

## حالات الآخر

أحاول أن أسبل جناحاً مكانَ يدٍ غادرت، فأسبل ذكرى يد  
أسبلُ ما تبقى في مكان اليد، ثغرةً في كتف، هوةً في العظام  
أسبلُ هوةً في العظام وأطير

كوطواط

غائصاً أكثر فأكثر

في عتمة عظامي.

أسبل ذكرى نظرة

مكانَ عينٍ غادرت

ذكرى مكان

مكانَ مكانٍ غادر

وأرى كائناتي شاردةً في براري شاسعة

لا تصل النظرةُ إلى حوافرها البعيدة وأناديها: تعالي

تعالي يا كائناتي

كُونْتُ براريك الشاسعة من نقطة صغيرة

عودي إلى النقطة الصغيرة التي كانت

في قلبي.

أسبلُ نكري يدِ ونكري عينِ ونكري مكان  
أسبلُ شطآنًا للغرقى الآتين من بحارٍ تركت أسماكها بعضَ  
عظامهم  
أسبلُ للحياة الأخرى للغرقى مكاناً على الحصى  
الحصى الأبيض حيث كان مكانهم  
حيث كانت حياتهم وضحكهم وملس أقدامهم الناعمة قبل أن  
تأخذهم البحار  
أسبلُ للمشدهين بالفضاء حجراً على الأرض  
للساعين وراء نارِ الجبل خيمةً لمبيتهم  
وللمأخوذين بالنجمة الغربية أسبلُ ضوءاً خفيفاً من أجسادهم  
وظلاً  
كي يستريحوا.

يخرج الموتى مني  
وكذا الأحياء  
ويرتطم بعضهم ببعض ولا يعود يعرف الحيُّ أنه حيٌّ  
ولا الميت أنه ميت.

يدخلُ الموتى بي  
وكذا الأحياء  
ويختلط بعضهم ببعض ولا أعود أعرف أحيائي من أمواتي  
ولا إذا أنا حيٌّ أو ميت.  
يختلط الموتى والأحياء بي وأرتبكُ  
باحثاً عن مقاعد لهم  
وعن صحون  
ولا أعرف كم عددهم وماذا يأكلون.  
فيّ ضيوفٌ كثيرون  
من التاريخ كلّه  
ولا أعرف كيف أكرّمهم على مائدتي،  
بيدِ غائبةٍ كيف أقدمّ طعاماً؟  
وكيف أرى ضيوفاً بعينِ غائبةٍ  
وكيف أُجلسُ أحداً  
على مكانِ غائبٍ؟

إتي في وليمة  
دعا الضيوفَ إليها شخصٌ آخر على الأرحج  
وعلى الأرحج صرتُ ذاك الآخر الذي يسبل فراغاً

وَيَلْقَمُ فَرَاغاً لَفَرَاغٍ  
يَسْبُلُ شَطَانًا وَأَحْجَارًا وَجِبَالًا وَنَجُومًا وَنَارًا وَظِلَالًا  
لَمْ يَرَهَا  
وَلَمْ يَقْعِدْ عَلَيْهَا  
سِوَى الْفَرَاغِ.

## أغنية الحافة

وَضَعَ قدمه على النقطة الأخيرة للحافة وراح يغني  
لنسمة العدم الأولى التي ستمرُّ على جسده  
وللفضاء الذي كان فارغاً  
وسيمتلئ به الآن.

وَطأً على النقطة الأخيرة وراح يغني:  
في الفجر تطلع الشمس وفي المغرب تغيب  
والسنةُ فصولٌ أربعة  
فيا للحياة الجميلة،  
النهارُ ضوءٌ إن لم تكن غيوم  
والليل عتمة  
فيا للحياة الجميلة،  
وللناس بيوت  
والساكنون فيها مهما مشوا  
لا يصلون إلى الباب  
فيا للبيوت الجميلة.

وَضَعَ قدمه على الحافّة وغنّى لمزق ثوبه  
التي لمح فيها ذات يوم ابتسامَةً للفجر  
وثغراً كاملاً للغروب  
ولحياته التي رأها مثل حريق  
شبّ فجأةً في نزهة.

وَضَعَ قدمه على النقطة الأخيرة للحافّة وراح يغني  
للخطوة التالية.

---

لم يكن هو الذي مرَّ  
ولا ظلُّه  
على كائنات جديدة  
فقط كانا واقفين  
في نقطة غريبة  
بلا كائنات



# 11

**من أخذ النظرة التي تركتها أمام الباب؟  
( ٢٠١١ )**



ماء  
ماء كثير  
يدفق في شراييني  
ولا مركب.

في قلبي بحر  
وجمهور من الغرقى.

**بقليل من الحطب**

**بقليل من الدخان**

بقليل من الحطب

أُحيي الآن زكري الشجر

زكري غابات كثيرة نبتت في ذاك الماضي في رأسي

وكنتُ طيورها

وحطَّابها

والمشتعلين في مواقدها.

شجرٌ أحاول الآن بقليل من الحطب إحياء ذكراه

زكري طير ملون حطَّ على غصن أمامي وطار

زكري سُحلية على صخرة ليثني استلقيتُ قريبا قليلاً

زكري ثمار حسبثها أفندةً

وأفندةً حسبثها ثماراً وقطفنُها

والى الآن لا أعرف ماذا أفعل

بدم تلك الغصون.

بقليل من الحطب المتبقي في قلبي  
أشعل سيجارة  
وأرى في دكانها رفاقي  
الذين ماتوا سكارى على الطرقات  
الذين عبروا النهر بلحظة واقتادوا اليباس في تجوالهم كي يكون  
لهم رفيق  
الذين نخزوا في عروقهم أخيلةً علَّ الدم الضجر في شرايينهم لا  
يبقى وحيداً في الليل الطويل  
رفاقي  
الذين في عيونهم طرقات  
وقطارات  
لا تتوقف في محطة  
الذين تركوا المفاتيح في الداخل وصفقوا الباب ومشوا  
وفي بحار نظراتهم وُلدت أسماك غريبة  
وصنَّارات  
رموها  
واصطادوا عيونهم.

من الحطب المتبقي من غابات ماضٍ بعيد  
أشعل سيجارة  
وأحاول أن أختبئ تحت دخانها  
وأخبئ معي موتي لا يُحصون  
تحت دخان سيجارة أخبئ موتي وأخبئ أحياءً كي لا يموتوا  
أحاول أن أطرده الموت  
بدخان.

بالحطب المتبقي  
بالدخان المتبقي  
أحيي ذكرى شجر وناس  
تعانقوا  
وصاروا دخاناً.

## رأيتُ أيضاً

أيضاً رأيتُ شجراً تضربه الرياح ويسقط  
شجراً في العروق  
شجراً في الدم.  
رأيتُ أصابع تحاول أن تصير غصوناً  
وتهوي  
وعيوناً تريد أن تصير ثماراً  
للعابرين وللطيور

ورأيت ورقة

تنام

في الزاوية.

## تلك المسافة

هل تتذكرون  
تلك المسافة الطويلة التي مشيناها  
كي نقعد على حجر؟  
المسافة الطويلة كي نطرد  
الذئبَ التي تأكل الخراف في قلوبنا وكي  
نبقى أبرياء من دم الأرض  
ودم المسافة؟

هل تتذكرون العسافير  
التي أردنا ذات يوم أن تكون بيننا وبينها قرى  
ففرقنا  
وانهم الرصاص علينا؟

تلك المسافة  
تلك المسافة الطويلة نحو خروف  
نحو عصفور  
نحو حجر.

## لا تأخذ الخيل إليه ولا الخيال

أعد الماء إلى النبع ولا تُزعج الغيم  
ولا تُصلِّ، لا تُقلق الموتى  
دعهم في ترابهم يستريحون  
وإن انهمر مطر فخفف من لهاتك  
لهاتك يصعد غيماً إلى الفضاء ويمطر  
والمطر يوحل التراب  
ويزعج الموتى.

أعد الماء إلى النبع ولا تأخذ الخيل إليه ولا التخيل ولا الخيال  
النبع جرّة مكسورة  
لا ماء فيها  
فاذهب بلا ماء ولا خيل ولا خيال.

## الحكاية

الحكاية أن لا حكاية  
تلك التي قالها القبطان كانت خرافة  
كي يسلي المسافرين في المحيط المديد  
والحكاية الأخرى كانت خرافة أيضاً  
كي يسلي الذين يغرقون.

الحكاية أن لا أحد في البستان  
ولا أحد في الخيمة  
ومن كان ينام ويزرع كان خيلاً  
لا خيمة ولا بستان لكن قيل ذلك  
كي يظن الشجر أن له ظلاً  
ويظن التراب  
أنه أم.

الحكاية أن لا أمَّ  
ولا قبطان ولا مركب ولا ظلَّ  
ولا حكاية.

## رفيقان

رأى وجهه في النهر وظنَّ نفسه ماءً  
وجرى  
وجرت معه ورقة يابسة.

## رفيقان

واحدٌ يسافر في النظرة  
وواحد يسافر في العمى ويسألان  
هل الماء لحمٌ؟ هل الماء شجرة؟

## رفيقان

وجهٌ ذائبٌ وورقة يابسة  
يعلوان معاً ويهبطان معاً ويرتطمان  
بصخور تظنُّ الورقة أنها شجر  
ويظنُّ هو أنها عظامه.

## يا جاك كيرواك

كثير من الأخطاء في الإشارات والأسماء على الطريق يا جاك  
كيرواك  
الأسهم المشيرة إلى أمكنة  
توصل إلى أمكنة أخرى  
واليافطات المكتوب عليها ينابيع  
صحارى.

ماذا جرى يا جاك كي أرى السهل حوتاً يريد أن يبتلعني  
والفراشة جداراً؟  
وهل السنونوة التي سقطت ميتةً أمامي  
كانت تعبر كي ترسم الطريق أم كي  
تمحو العبور؟

يا جاك، يا جاك، إنزع اليافطات عن الطريق  
إلغِ الينابيع والغابات والأمكنة  
دَلِّني فقط إلى الممرّ الذي بلا إشارات ولا أسماء  
أريد أن أعبر.

## كي تشرب الذبابة

وضعَ نقطة ماء في صحن  
كي تشرب الذبابة  
وسلمَّ نفسه للريح كي تأخذه الفراشات.

سلمَّ نفسه للريح  
فالتقطته الذبابة  
وعاد إلى المكان الذي طار منه.

## كي يقول

مئات الصفحات كي يقول العشبُ ماتت  
كي يقول القمرُ نام،

مئات الصفحات كي يقول خُذِ الشمعة  
إنها في الزاوية هناك، مطفأة

أشعلها بأنفاسك إن شئتَ أو أبقها مطفأة وإن شئتَ  
أزمها،

مئات الصفحات كي يقول عود ثقاب  
كي يقول اشتعل

كي يُخفِّض الدرجة قليلاً كي يستطيع  
أن ينزل،

مئات الصفحات كي يقول رأى نملة  
كي يقول رأى خشبة

وكي يوهم نفسه أنه أنقذ الغريق،

مئات الصفحات كي يقول  
غرقتُ ولا أرى شيئاً  
كي يتسامر مع طحلب، مع فراغ  
كي يرى السفن وهي تهوي  
والغرقى يصرخون  
وكي يلفّ سيجارة وهو ينظر إلى الأمواج،  
مئات الصفحات كي يعتذر من صرصار  
وطأه ذات يوم بقدمه  
كي يقول للعريشة أمام بابه شكراً  
وشكراً للكلب الذي كان  
يلوّح له بذنبه.

مئات الصفحات  
مئات الصفحات  
كي يقول كلمة  
ولا يقولها.

## لَوْحُوا بِالْحَطْبَةِ

هذه الحقول المحروقة كانت حقولكم  
انظروا  
وانبشوا في الرماد  
قد تعثرون على وجوه كانت لكم.

الخطبة هناك  
يدُ مزارعٍ مكسورة  
والفحمة  
حدقة عين  
انظروا بالفحمة لَوْحُوا بِالْحَطْبَةِ  
واجعلوا الورقة اليابسة لساناً ونادوا  
فربّما شبّحَ عابراً هناك  
يرى في رماد سيجارته مزارعي تبغ  
ويطفئها.

## الشوارع تعرفه من حذائه

بين الإسفلت وبينه

عمرٌ من المشي

لديه أسمال

وحذاء

قديمٌ لكنّه صار أليفاً مع قدميه

والشوارع لا تعرفه

إلاّ به.

## لديّ حلم

لديّ حلمٌ يا مارتن لوثر كينغ  
حلمٌ صغير  
أن أُعيد إلى الأرملة فلسها  
وحلم  
أن أقعد مع الكسيح  
وأن يمرَّ هواء لطيف  
بين قدميه المشلولتين والبلاطة التي يقعد عليها.

## كان جميلاً

كان جميلاً منكم أن تحيُّوهم وهم يشدُّون الحبال  
كي يربطوا شرايينهم بالشجر  
أن تنتظروا إليهم على الأقل  
كي تروا عروق التعب  
وتعرفوا كيف  
تأتي الثمار إلى موائدكم.

كان جميلاً أن يكون بينكم وبينهم نظرة  
كي تروا، على الأقل، الدمع من بعيد  
كي تعرفوا  
ماذا يفعل الدمع في التراب  
ماذا يفعل الدمع في الأرض.

## نملٌ على الجدار

حجراً آخر في الجدار؟  
بل أحجار  
أيُّها "الطوفان الزهريّ"

لكن لا يزال نملٌ  
يتسلَّق عليها.

## المروحة لا تدور

المروحة لا تدور يا ألن غينسبرغ  
كان ذاك هواءً يدور في رأسي  
حلّم هواء  
لا يحرك المروحة.

## إلى سركون بولص وبسأم حجار

اعطني رداءك يا سركون  
بردتُ  
أدفنني قليلاً بترابك  
وأنعش هذا التراب يا بسأم  
ادلقُ عليه  
كأسك.

على المحطّة قطارٌ بعد، اصعدا قبل أن يمضي  
نذهب معاً في نزهة  
نرى الغابات، نرى البطّ في البحيرات، نرى البيوت وكيف  
تطويها المسافات  
وتطوي الساكنين فيها  
لا يزال قطارٌ بعد  
وبعده تقفل المحطّة  
اصعدا

فإن مضي هذا القطار  
أين نقضي هذه الليلة؟

إنَّه القطار الأخير، اصعدا  
قد نذهب في نزهة  
قد نرى ذاك النبع الذي حلمنا به طويلاً  
ينبتق من المياه الجوفية لأحلامنا  
اصعدُ يا سركون  
قد يمرُّ هذا القطار في مدينتك  
اصعدُ يا بسام  
قد نرى مروة.

## دُلُّ النُقْطَةَ إِلَى الطَّرِيقِ

خُذْهَا

خُذْهَا رَجَاءً وَارْمِهَا فِي النُّهْرِ  
هَذِهِ النُّقْطَةُ الَّتِي ضَيَّعْتَ طَرِيقَهَا  
وَحَطَّتْ عَلَى كَتْفِي.

خُذْهَا

سَيَفْتَقِدُهَا النُّهْرُ  
سَيَكُونُ الْبَحْرُ نَاقِصًا مِنْ دُونِهَا

خُذْهَا

الشَّجَرُ أَوْلَى بِهَا مِنِّي  
العُشْبُ أَوْلَى  
وَقَدْ يَكُونُ هُنَاكَ عَصْفُورٌ  
يَبْحِثُ الْآنَ  
عَنْ نَقْطَةِ مَاءٍ.

## الإشارة

بشبه يدٍ لَوْحَ  
لإشارة تلّوح له من بعيد  
ومضى  
صافقاً وراءه حياته  
كبابٍ مخلوع.

ترك الأهل والأصدقاء ومشى  
ترك الحديقة، النعناع، الحبة  
النبتة الصغيرة التي كانت  
حين تسمع وقع خطاه تبتسم.

ترك الباب مخلوعاً  
ومشى  
نحو الإشارة  
الأخيرة للدخان.

## عرفتُ كيفُ يحنُّ الغصنُ

عرفتُ كيفُ الشجرةُ تحنُّ  
إلى غصنها المتخشبِ  
لكن عرفتُ أيضاً  
كيفُ يحنُّ الغصنُ  
إلى الخشبة.

## الذي عبر اسمه

كتبَ اسمهُ على الحائط كي يتذكَّر العابرون أنه مرَّ من هنا  
كتبَ اسمهُ وذهب  
وحين عاد  
حاول عبثاً أن يتذكَّر  
من هو هذا الاسم المكتوب على الحائط.

## مكان الورقة

قعد طويلاً هناك  
تحت الشجرة  
وكان يظنُّ نفسه غابة.  
حطَّت عصافير كثيرة  
وطيور غريبة  
على غصونه  
وعلى ترابه مشت سحليات، ومشى نمل، واستلقى ناس، وغفا  
عشب.

قعد تحت الشجرة وظنَّ نفسه غابة  
في الربيع يُزهر وفي الشتاء يرتجف  
وفي الخريف  
سقطت ورقة  
وقعدت مكانه

## غياب

ظنَّ أنَّه هو ذاك الماشي في الشارع  
وقفَ وناداه : هاي، أريد أن أقول شيئاً  
لكنه لم يلتفت  
وغاب.

ظنَّ نفسه هو ذاك الجالس في الحديقة  
وقفَ ومشى إليه  
ومشى الجالس في الحديقة  
وغاب.

ظنَّ أنَّ المارّة كلُّهم هو  
وصاح بهم : هاي، أريد أن أقول شيئاً  
لكنَّهم غابوا كلُّهم  
وغاب هو  
ولم يقلْ أيّ شيء.

## يدٌ على الحافّة

يدٌ على الحافّة  
وبدٌ في الفضاء  
ويغني  
راسماً بلهائه القبر الذي يحبُّ أن ينام فيه.

يغني للهواء الذي رافقه على الطرقات  
للبجعة الجائعة التي نظرت إليه ورمى لها لقمة  
وللبحيرة  
في ذاك المساء  
والأسماك التي تسبح فيها.

يضع يداً على الحافّة ويداً في الفضاء ويغني  
لرمل  
دفنت في الحياة كلَّ موتاها  
يغني لمغول

حفر طويلاً في ذاك الرمل علّه  
يجد موتى لا يزالون يتنفسون  
يغني لصحراء  
يغني لموتى.

يدّ على الحاقّة ويدّ في الفضاء وغناء  
وقبرٍ من لهاث  
تبدّده الريح.

## يمشي يمشي

يمشي باحثاً عن بحر  
يرقص موجّه مع السمك  
عن صحراء  
يغني رملها مع الريح  
باحثاً عن البحر الأوّل والصحراء الأولى  
وعن حقول  
أوراق أشجارها عيون مزارعين  
وعيون فلاحها أوراق شجر  
وعن عين  
هي عيون الجميع.  
يمشي يمشي ولا يرى بحراً  
لا يسمع غناء  
لا يرى رقصاً  
لا حقولاً ولا مزارعين

يمشي  
يمشي  
بلا عين  
ولا قدم  
ولا مكان.

## بالكاد تتسع لعين شخص ولهاثه

الهواء من رثنيه  
والماء من عينيه  
ما حاجته إلى الخارج؟  
من لهاثه يأتي الهواء ومن دمعه الماء  
وإن أراد طعاماً  
في حديقة باله خضار وثمار.

أقفل الباب وقعد  
مشيحاً بوجهه عن خيالات ناس  
تعبر أمام بيته  
عن خيالات عصافير  
تدقُّ على نافذته  
ماذا سيطلع العصافير وإلى أين سيدعو الناس؟  
إن أراد عصفور قمحاً من أين يأتي به؟

وإن دخل ناس

أين يجلسون؟

غرفة صغيرة ومقفلة

بالكاد تتسع لعين شخص

ولهاثه.

## في مكانه

رصف حجراً فوق حجر تاركاً فراغاً  
كي تتنفس الأحجار  
في الحجر روحٌ، قال  
وقد تكون بين حجر وحجر  
عشبة تريد أن تنبت.

نظر إلى الشجرة وقال  
قد تكون روحٌ في المسافة بينه وبين الشجرة  
والنظرة قد تعيقها  
فأغمض عينيه.

مشى  
عائداً  
وقال  
في الإسفلت روحٌ أيضاً  
رفع قدمه عن الإسفلت  
وبقي في مكانه.

## الجهة تُحنى، الجهات ترفعه

ضربته الريح من اليمين

فانحنى يساراً

ضربته الريح من اليسار

فانحنى يميناً

ضربته من الورا فأنحنى إلى الأمام

ضربته من الأمام فأنحنى إلى الورا

وحنى ضربته من كل الجهات

ارتفع.

## الطريق إلى البيت

هذه هي الدرب التي توصل إلى بيتي، قال  
ومشى

يتبين خطواته من قمر بعيد  
يتبين دربه من ذكرى  
وأحياناً يشم رائحة زهور  
كانت على جانبي الطريق إلى بيته.

قال هذه هي الدرب ومشى  
حين يظهر القمر يخطو خطوة  
وحين يحجبه الغيم يضيع،  
لكن هذه هي الدرب، قال  
ورائحة الزهور التي في ذاكرتي ستدلني

ومشى

ومشى

ومشى.

## حقول في الرأس

لديه تبغ وخمر لهذه الليلة  
فيا للسلام في قلبه!

صبّ كأساً ولفّ سيجارة وراح  
إلى الحقول  
يزرع تبغاً ويقطّر عنباً  
ويوزّع لضيوف  
يدقّون على بابه.

لديه تبغ وخمر ولا يحتاج إلى أكثر  
كي يشعر بسلام  
ويخترع حقولاً  
ويُحضر ضيوفاً.

## يده

يده تذرّيها الريح إن علّت  
وإن انخفضت يخفيها التراب

يد عالقة في جسد  
عليه أن يلحق بها  
ولا يعرف إلى أين تذهب.

## للريح أطفال أيضاً

للريح أطفال أيضاً  
تشرذمهم على امتداد عبورها  
وتتركهم وحيدين.

للريح أطفال على الطرقات  
هلاميّون، عراة وبنامى  
يلوّحون للمارّة كي يروههم  
علّ نظرات العابرين تكسو هباءهم  
فتصير لهم أجساد  
ويُروُن.

## أخفِضِ الصَّوْتِ

أخفِضِ الصَّوْتِ أَرْجُوكِ  
أُرِيدُ أَنْ أَسْمَعَ السَّكُونَ مَاذَا يَقُولُ  
رَبِّمَا يَقُولُ: تَعَالَى  
وَأُرِيدُ أَنْ أَتَّبِعَهُ.

## هل رأيت السنونوة؟

هل رأيت السنونوة ؟  
أظنُّها ستعبر من هنا  
على جسدي نبتَ ريش يشبهها  
نبتتُ سنونوات تريد رقيقاً  
ولا تحطُّ على غصن حين تطير.

## من أخذ النظرة؟

من أخذ النظرة التي تركتها أمام الباب قبل أن أنام؟  
النظرة التي  
طوال الليل  
حاولتُ أن أخلق لها عيناً.

نظرة بلا عين أنت  
ووقفتُ على بابي  
في قلبي أحداق كثيرة لعيون  
نبشتها حدقة حدقة  
ولم أجد عيناً لهذه النظرة.

نظرة غريبة أنت في الليل  
ونامت أمام الباب  
وفي الفجر  
حين فتحتُ عينيَّ  
غابت.

## ذكري ماء

بين الماء وبينه ذكري نهر  
ذكري وديان كثيرة  
وبحرٍ شاسع.

بين الماء وبينه ذكري حقول  
ذكري شجر وعشب وتراب  
وفلاحين  
ترتطم معاولهم  
في قلبه.

بينه وبين الماء سطوح من تراب  
وقرويونٍ يحدلون السطوح  
بينه وبين الماء  
سطوح بيوت بعيدة.

بين الماء وبينه سماء  
هطلت فجأةً  
وتركتُ في قلبه بحاراً  
تركتُ سفناً، أسماكاً في شباك صيادين  
تركتُ أسماكاً صغيرة مَيِّتة  
تعود إلى الشاطئ..

## لا ترم شيئاً في القمامة

ليست ثمرة يابسة هذه التي رميتها في القمامة يا وديع  
بل هي قلب  
قلب كان معلّقاً في شجرة  
تأتي العصافير وتتقد منه  
يأتي النحل ويمتصُّ رحيقه  
يسرح عليه النمل  
حتى يبس  
وسقط على التراب.

لا ترم شيئاً في القمامة يا وديع  
قد يكون ما ترميه رقيقاً يريد أن يبقى معك  
قد يكون فماً يريد التحدُّث إليك  
لا ترم شيئاً  
قد يكون ما ترميه  
قلبك.

## ضجيج

في قلبه ضجيج  
كأنَّ مسافرين يحتفلون في حافلة  
في قلبه  
ولا يعرف حافلة ولا مسافرين  
ولا يدري  
أنَّ في قلبه طريقاً.

ضجيجٌ ضجيج  
كأنَّ شاحنة تتسلق جبلاً  
في قلبه.

## خطوة واحدة

خطوة واحدة بعد، قال  
لأرى ماذا وراء هذا الجبل  
خطوة واحدة تكفي  
لأنني تقريباً وصلتُ  
تقريباً سأرى.

خطوة واحدة، قال  
كي أنتهي من مشي سنوات  
من رغبة سنوات  
في رؤية ماذا وراء جبل.

خطوة واحدة  
واحدة فقط  
كان عليه أن يمشيها بعد  
كي يرى.

## للدّم شتاء أيضاً

للدّم شتاء أيضاً  
والأّ من أين كلّ هذا النهر؟  
للدّم غيوم ملبّدة ومطر  
وجُزف  
جُزف كاسح في العروق  
وعلى الأرض.

ضفافٌ كانت هنا  
ومقاعد على الضفاف  
وعلى الشجرة عصفور كان يغنّي  
وعجوز على مقعد  
كان يصغي إليه.

## غرق

دَلَّقَ مَاءً  
مَاءً كَثِيراً  
وغرق في الماء.

ظنَّ روحه قماشة  
وأراد أن يغسلها.

## مرةً قال

مرةً قال: ليس للمساء إخوة  
ومشى كثيراً  
في الشوارع، في الدروب المقفرة، في الغابات  
كي يجلب أماً للمساء.

قال المساء بلا أخ ومشى  
محدّقاً في المارة  
محدّقاً في الشجر  
محدّقاً في التراب  
محدّقاً في المساء الذي  
نام وحيداً.

## حجر

لا يعرف كيف رُصفت كلُّ هذه البلدان في قلبه  
وليس لديه غير بيت صغير  
وحجر.

من بلد إلى بلد  
من ربح إلى ربح  
ولا يعرف كيف في هذا الهبوب  
لا تزال عيناه تحملان  
حجراً.

## أريد لحظة بعد

سمعتُه

نعم سمعتُه هذا الجرس يَدُقُّ في رأسي فأوقفه  
أريد أن أنام.

أوقف الجرس أرجوك

أريد لحظة بعد

كي أودّع الذي زارني في الحلم  
وكي أشكر لحافي.

## يافطات

يافطات كثيرة على الطرقات

يافطات تدلُّ إلى مدن

يافطات تدلُّ إلى شوارع

يافطات تدلُّ إلى مصانع، إلى مؤسسات، إلى دكاكين، إلى

بيوت...

يافطات كثيرة ملأى بأسماء

وبمشي

باحثاً عن يافطة

فارغة.



# 12

قُلْ لِلْعَابِرِ أَنْ يَعُودَ  
نَسِيَ هُنَا ظِلَّهُ  
( 2012 )



## الطريق

...وحيين نأى هدأت الريح.

كان في العاصفة. مقتلِعاً مخلِّعاً مثلِّعاً. رأسه في مكان، يده في مكان، قلبه في مكان، وعبثاً حاول جمع أعضائه.

لم يكن له اسم. سمَّاه بعضهم "منحرفاً" لأن لا طريق له، وسمَّاه بعضهم "هابياً" لأن لا مقعد له، وسمَّاه بعضهم "غباراً" لأن كلَّ شطيَّة منه في مكان. كانت له أسماء كثيرة استحال جمعها في اسم. كانت له أسماء كثيرة، ولم يكن له اسم.

الذي بلا اسم كان في العاصفة وكانت ترتطم به طيور ميَّتة تحملها الرياح وغصون متكسرة وجمع مرتجف لا يعرفه. سمع أصواتاً تصرخ: "أيها العالم ! أيها العالم !".

ولمستَه جموع، لمسَه العالم، ولم تخرج منه أيَّة قوَّة.

لم يكن هو السيِّد، لم يكن هو المصطفى. كان المرتجف مثلهم في الريح. وبالكَاد خرج منه صوت: " ما جنُّت لأُكْمَل ولا جنُّت لأنقض، بل أنا النقصان والأنقاض والنقيض". وضَّيع صوته، ولم يبحث عنه، ولا بحث عنه أحد.

الذي لم يكن سيِّداً، وبلا اسم ولا صوت، كان يتحدَّث فقط في قلبه.

قال أنا بلا اسم كي أكون كلَّ الأسماء، وبأعضاء متناثرة في كل مكان كي تكون كلُّ الأمكنة مكاني. إن نادى أحدٌ أحداً، أينما كان، أليس عليَّ أنا أيضاً أن أجيب؟ وإن كبا كائن في أي مكان، ألا يجب أن يكون مني شيء هناك كي أحنو عليه؟

قال أنا الكائن هناك، وأنا المنادي هناك، وأنا المجيب والحاني. والغصن المنكسر أمامي كان ضلعاً مني والطيور الميتة المرتطم بي كان بعض حياتي. كل الغصون في الشجر هي ضلوعي أيضاً، والطيور على الأرض وفي الجوّ إخوتي. والأحجار، هنا وهناك، عظامٌ لي لم يكتمل نموُّها، فهل أتتكرَّر لعظامي؟

هَبَّ المنحرف حاملاً معه الشجر والطيور والعظام. لا إلى أرض، لا إلى مكان. هَبَّ إلى الشساعة، إلى كل الأمكنة، محمولاً بالعاصفة، وحاملاً السكينة: سكينة الشجر إذ يمتلئ بالتراب. سكينة الطير إذ يمتلئ بالفضاء. سكينة العظم إذ يفرغ من الجسد.

هَبَّ عاصفاً، لكن أينما عصفت الريح به كانت السكينة في قلبه.

مثلهم، نعم، كان مرتجفاً، لكنّه حوّل الارتجاف إلى سكينه. ففي  
أمكنة هناك كان هدوء، وشظاياها التي هناك جلبت الهدوء إلى  
شظاياها التي هنا.

ثمة سلّكٌ لا يراه أحد، يجعل المقيمين هناك هنا، والمقيمين هنا  
هناك.

وهو كان هنا، ومقيماً هناك. وكان هناك، ومقيماً هنا.  
لا تدع النبع يغفو. رُشّ على وجهك من مائه قليلاً فيصحو.  
وتصحو معه الجبال والوديان التي أوصلته إليك.  
خُذِ القطرة بيدك فيصحو الغيم وتصحو السماء.

وإن رأيت سحلية لا تنهزها، اتبعها، فقد تأخذك إلى الكنز. كلُّ ما  
تبحث عنه هو لا شيء، سوى وكر السكينة.  
وضَع يده في النبع ورشّ ماء على وجهه. رشّ غيماً، رشّ  
سماء. وضاع وجهه في الفضاء وانتظر نقطة، كي تعيد وجهه  
إليه.

ثمة أكثر من وجه في الغيمة. ثمة أكثر من غيمة في الوجه.  
وحاول أن يرى.

نظر إلى فوق، ولم يرَ. نظر إلى تحت، ولم يرَ. وحين أغمض  
عينيه رأى: سحلية مئّنة.

كان ذلك في الماضي البعيد، حين كان نبع وشجر وغيم وسماء وأرض. كان ذلك في الماضي، حين كانت عيون. وحين كان للسحلية وكُر.

كان ذلك حين كانت دروب، وحين كان يمكن أن ينحرف المنحرفُ عنها. وحين كانت غصون الأشجار ضلوعاً، والمنكسر منها، حتى في غابات الأمازون، عظامك. كان ذلك في الماضي البعيد، الذي لم يكن.

هَبَّ "الهابُّ" واصطدمت به جموع، ولم يلتفت إليه أحد. لم يسأله أحد سؤالاً، لا عن المحبة، لا عن الزواج، لا عن الأولاد... لم يكن المصطفى ولا السيّد، ولا سفينة له ولا هيكل ولا تلاميذ. ولو سأله ما كان سيجيب. لم يكن يعرف جواباً. كان يعرف فقط أنَّ الهبوب يجرف كلَّ شيء، الأسئلة والأجوبة والكلام، ويصمت. كان طفلاً في حقل حين هبَّت عليه أوَّل ريح، وسقطت ورقة من شجرة أمامه. انتظر، علَّ الريح تعود، وتعيد الورقة إلى الشجرة. ثم رأى الشجرة كلّها تهوي. ثم لم يعد يرى أيَّ حقل.

وما بقي للبستاني أن يفعل غير جمع الأوراق وكسور الشجر. ما بقي للبستاني أن يفعل غير إحراق بستانه.

وتيقن، حينذاك، أنّ ما يراه في البعيد، أنّ ما يسعى إليه، هو الدخان.

لكن، في ذلك الدخان ورق وشجر. في ذلك الدخان حقول. في ذلك الدخان هو حين كان طفلاً، وهو حين كبر... إنه، الآن، في ذلك الدخان.

إنه هناك، في الدخان الذي يراه في البعيد. ولا شكّ معه أيضاً ناسٌ هناك. فالناس ليسوا هنا وهو ليس هنا. فأين يكون وأين يكونون إن لم يكن هناك؟ ولكن، أين الهناك؟

صُبَّ الناسَ والحقول في كأسك واشربهما. وصبّ نفسك أيضاً واشربها.

صُبَّ الناسَ والحقول ونفسك في عينيك واغمضهما، وإلا يضيع الناس وتضيع الحقول وتضيع أنت. صُبَّ الدخان.

وقلّ للسُّخْلية التي ماتت قبل أن تصل إلى وكرها: لا كنز في الوكر.

وافرش شريط أغانٍ على الغصون، فلعلّ الأشجار تغني. رأيتُ شجراً يفتح فمه. رأيتُ أوراقاً تصفّق، وغصوناً تطلع من الرماد، وترقص... هناك، في البعيد، حيث كان يستلقي قلبي.

أريد قدماً لهذا القلب. هذا القلب يريد أن يرقص مع الشجر.  
صُبَّ التراب في شرايينك واخترع قدماً. صُبَّ تراباً واخترع شجراً  
ورقياً.

صُبَّ تراباً. فإن ترمد الشجر، قد تيزغ نبتة من ترابك. قد تيزغ  
شجرة.

وإن خلوت من شريط غناء، قد يأتي عصفور يحط عليها،  
ويغني.

بعضهم سمّاه "المنحرف". بعضهم سمّاه "الغبار". وبعضهم سمّاه  
"المحي"...

محا "المحي" قدمه ومضى بلا قدم.

لم تكن هناك طريق. استنسخ من حذائه طريقاً.

لم يكن هناك شجر. استنسخ من ضلوعه جذوعاً وأغصاناً. ومن  
أنفاسه استنسخ ريحاً عائدة، كي تعيد الورقة إلى الشجرة.

حين رأى الريح تُسقط الورقة أمامه انتظر وبكى، لأنّ الريح لم  
تعد ولم تُعد الورقة إلى غصنها... ويحزن الآن لأنّ دموعه لم  
تكن حينذاك مطراً، فلعن الورقة كانت شربت قبل أن تموت.

صُبَّ دمعاً في كأسك صُبَّ مطراً على ورقٍ ميت.

صُبَّ شجراً، من ضلوعك.

استنسخ طريقاً من حذائه.

وطوى الطريق، طيَّة طيَّة، ووضعها في جيبه.

وصار، عوض أن يمشي على الطريق، يمشي في ثنايا رداءه.

لم تكن هناك طريق، ولا حذاء له ولا ثوب. لكن قال ذلك كي يكون له مشي.

لم يكن له شيء. كان له القول فقط. كان له القول، والمشي في القول.

وقطع الدروب كلها مشياً على الكلام.

لا تفظ الكلمة الأخيرة، لا تقل الكلمة التي في آخر الطريق. قد يسمعا أحد في أول الطريق ولا يعود يمشي.

وإذ تطوي الطريق وتضعها في جيبك، تيقن أن لا أحد ماشٍ عليها. هكذا يخفُّ حملك.

وهكذا لا تززع المشين.

وإن أردت رقيقاً، فأب رقيق أعز من وحدتك؟

امش على الكلام. امش على اللهات الذي يخرج من فمك.

وسترى في لهاتك طريقاً، وشجراً أيضاً.

امش في ثنايا رداك. امش على الطريق المطوية في جيبك.

بين لهاتك وثوبك طريق، ويمكنك أن تمشي عليها العمر كله.

## المقعد

مشى ناظراً إلى فوق، إلى الغيم الذي يعبر، وقال في قلبه: إنهم يعبرون أيضاً هناك.

هناك أيضاً فوق من يمشي، ولا مقعد له.

ولكن من هم هؤلاء الذين طلّعوا من ماء ويمشون فوق؟ لا شكّ بينهم أنفاسٌ غرقى.

مُدَّ نظرةً إليهم، مُدَّ كرسيّاً، فلعلَّهم متعبون.

مشى خافضاً رأسه. لا يريد أن يرى أنفاس غرقى في الفضاء.

مشى خافضاً رأسه، وانتابه حُبُّ هائل للتراب.

ما في قلبي على الأرجح هو ترابٍ إذاً وليس دماً، قال، ومشى.

ابحث في التراب حبة حبة، قد تجد نفسك، أو على الأقل قطعة منك.

قد تجد قطعة من أجدادك، ومن أحفادك الذين لم يولدوا بعد.  
ابحث في التراب قد ترى أصدقاء، وقد تتعرف إلى ناس لا تعرفهم.

انبش التراب الذي في قلبك، ستجد كثيرين مدفونين هناك، ينتظرون أن يصل مغولك إليهم كي يحيوا.

تعب وأراد أن يجلس.

على الطريق أحجار. حجرٌ مستطيل يريد أن يمشي. حجر مكور يندب نفسه. حجر ذو ثغرة كفم يريد أن يقول شيئاً. حجر مائل يستنجد بحجر آخر...

أحجار في جوفها شرايين، في جوفها دم... هل يجلس على دم؟!

ابسط نظرتك على الأرض واجلس عليها.

استرخ في عينيك.

في العيون مقاعد. اسحب كرسيّاً من عينك واقعد عليه.

قديماً، مرّ متعبون كثيرون وقعدوا في عينه. استراحوا قليلاً من سفر طويل، ثم تابعوا المشي على نظرتة.

في ذلك الوقت كان يمكن أن تخرج العينُ من محجرها وتصير طريقاً. وحين يتعب الماشون، كان يمكن أن تعود إلى محجرها وتصير بيتاً.

كان يمكن تلك العين أن تؤوي آلاف المتعبين، وآلاف الضالِّين، في محجرها الصغير، وأن تقدّم لهم طعاماً وشراباً من شرايينها التي لا تُرى.

الأحجار ليست مقاعد، وعلى حوافي العين رمل، قد يكون من الدموع. من دموع المتعبين الذين يمشون كلَّ حياتهم ولا يجدون مقعداً.

هياً، تابع المشي. لا تجلس على رمل. لا تجلس على دمع. وافترض أخذتَ كرسيّاً من عينك وجلست. أليس كلُّ الذين تنتظر إليهم يجلسون عليه؟ فهل تجلس على جالسين؟! هم أخذوا المقعد قبلك. فبمجرد أن نظرتَ إليهم صار المقعد في عينك لهم. امش، لا مقعد لك في عينك ولا مقعد لك على الطريق.

امش.

وانتظر أن تنتظر إليك عينٌ عابرةٍ آخر، فلعلَّك تقعد وتستريح فيها.

## العيون أيضاً

يعبرون، أفراداً وجموعاً، ولا أحد ينظر إليه.  
إلى أين تذهب نظراتهم، لا يعرف. أين تحطُّ النظرة إن لم تحطَّ  
على ناس!؟

يسمع أُنِيناً تحت الأقدام. ويعتقد أنّ من يئنُّ هناك هي العيون.  
انتشل العيونَ من التراب وضعها على الغصون، فالأشجار تريد  
أيضاً أن تنتظر.

انتشلها وضعها على الحجارة، فربما الحجارة تريد أن تمشي  
وينقصها النظر، أو على الأقلّ تريد أن ترى من يقعد عليها.  
ليس عدلاً أن لا يكون للنظرات مكان.

ليس عدلاً أن لا تعرف العيون إلى أين تذهب نظراتها.  
وإن احترتَ إلى أين ترسل نظرة فضعها على الطريق. قد يمرُّ  
أعمى ويكون في حاجة إليها.

قال هذا والجموع تعبر ولا أحد يلتفت إليه.  
نظرات، يتيمة، في فضاء فارغ.

تمنّى لو يخلق لها أباً، أمّاً، أخاً، رفيقاً...

نظَرَ، ولم يرَ رَحْمًا.  
نظَرَ، ولم يرَ.  
كأنه كان هو العابرين.  
ومثلهم لم يعرف إلى أين تذهب نظرتَه.

## الظل

أخرجَ وُقُلٌ للعبّار أن يعود. تَرَكَ ظِلًّا هنا فيه لهائه.  
ظلٌّ فيه شوارع. فيه مسافات. فيه جبال ووديان وذكريات  
وفيه ناسٌ علقوا به وهو يعبر في محاذاتهم.  
مرَّ على الحدائق، وصار فيه زهور. مرَّ في الشوارع، وصار فيه  
ناس. مرَّ في الليالي، وصار فيه قمر. مرَّ في النهارات، وصار  
فيه شمس. مرَّ على المقابر، وصار فيه موتى.  
قلَّ للعبّار أن يعود ويجمع زهور ظلّه، وناس ظلّه، وقمر ظلّه،  
وشمس ظلّه، وموتى ظلّه...  
قلَّ له إنَّ الحدائق  
والقمر  
والشمس  
والأحياء والموتى  
في ظلّه.

## لهات العابر

ترك العابر بعض لهاته ممدداً على الدروب، وبعضه شارداً في  
الفضاء.

لهاتٌ يطأ عليه المارة

ولهاتٌ يجهد كي يصير غيمة.

ترك العابر لهاتاً يمشي في الشوارع مع الأقدام، أو يصير تحتها  
تراباً

ولهاتاً يمشي مع الهواء، يرتطم بأشجار وبنائيات، بقطارات  
وسفن، يعلو ويهبط، يهبط ويعلو، ولا يصير غيمة.

انحرف عن الطريق. لهاتك فيه ناسٌ فلا تدعُ أقداماً تطأ عليهم  
وانحرف عن الفضاء. للفضاء رئة شاردة لا تترك لهاتك فيها  
فيشرد.

امش كأن لا لهات لك. امش كأنك ميّت

فلا يشرد الفضاء لهاتك

ولا أحد يطأ عليه.

## الذي غرق

الذي غرق في الماء صار سحابة  
ثم نزل قطرةً قطرةً  
والسباحون في البحر يسبحون فيه.

## النائمون على الحافّة

النائمون على الحافّة جميلون  
لا النهار لهم ولا الطريق  
ليس عليهم أن يروا ولا أن يمشوا  
النائمون على الحافّة  
وصلوا.

كانت على الطرقات شاحنات تصمُّ الأذان  
وشوارع ومفارق يدورون فيها عمياناً  
كانوا يبحثون عن مكان، لا إشارة له  
يبحثون عن طريق، لا مفرق لها ولا علامة  
فناموا على الحافّة  
ووصلوا  
في نومهم.

## دُقُوا عَلَى بَابِهِ وَقَالُوا

دُقُوا عَلَى بَابِهِ وَقَالُوا: نَحْمَلُ لَكَ شِفَاءَ مَدَى الْحَيَاةِ، وَأَبَدِيَّةً أَيْضاً،  
لَا تَغْلُقِ الْبَابَ، دَعْنَا نَدْخُلَ وَنَعْطِكَ الدَّوَاءَ.

مَا كَانَ يَعْرِفُ أَنَّ شِفَاءَهُ وَخُلُودَهُ مُوصُولَيْنِ بَغْرِيَاءَ مَارِّينَ فِي هَذَا  
الشَّارِعِ.

مَا كَانَ يَعْرِفُ أَنَّ شِفَاءَهُ وَخُلُودَهُ رَهْنٌ طَرِيقَةٍ عَلَى الْبَابِ.

فِي بَيْتِي مَوْتَى كَثِيرُونَ، قَالَ، وَمَرْضَى كَثِيرُونَ. هَلْ يَكْفِي  
دَوَائِكُمْ كُلَّ هَؤُلَاءِ؟

لَمْ يَغْلُقِ الْبَابَ. كَانَتْ فِي الْحَوْضِ زَهْرَةٌ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، وَإِلَى وَرَقَةٍ  
يَابِسَةٍ.

يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَيَنْظُرُ إِلَى الْوَرَقَةِ وَالزَّهْرَةِ.

يَتَكَلَّمُونَ، وَالزَّهْرَةُ وَالْوَرَقَةُ صَامَتَانِ.

وَلَمْ يَكُنْ يَسْمَعُ كَلَاماً بَلْ صَمْتاً.

ثُمَّ أَقْفَلَ الْبَابَ

وَعَادَ إِلَى مَرْضَاهُ

وَمَوْتِهِ.

## انظر إلى الجبل

انظر إلى الجبل، حيث يستلقي خروف خرج اليوم من عينك ونام  
هناك

خروف وُلد تحت جفنيك، من لقاح أضواء غريبة  
وأكل عشباً كثيراً كان يطلع من قلبك.

انظر إلى الجبل وناج الخروف  
ومسدّ صوفه بنظراتك

وإن يبس العشب هناك أوصل شرابينك بتراب الجبل، واطعمه  
عشباً من قلبك.

انظر إلى الجبل. ودلّ الذئب إلى طريق أخرى لا تمرُّ أمام  
خروفك

نائمٌ وصغير  
فدعه ينم.

انظر إلى الجبل

ولا تدعْ نظرتك تذهب إلى هناك من دون أن تحملها طعاماً

إلى العصفور الذي كان في صدرك  
ارسل له قمحاً، من دموع تجففت وصارت حبوباً للعصافير  
وارسل للنحل زهوراً، كانت حدقات  
وللشجر جذوراً، كانت شرايين.  
انظر  
إلى الجبل.

## النسائم التي مرّت

النسائم التي مرّت في رثنيه كانت لها أسماء  
أسماءُ مدنٍ وقرى وشوارع وصحارى وغابات  
وأسماءُ ناسٍ  
يتنفسون بقربه.

أمكنة كثيرة في رثنيه  
وناسٌ كثيرون  
دخلوا مع الهواء ثم غابوا  
وما تنفّسه  
كان غيابهم.

ما في صدره كان رئات العابرين  
ولم يكن يتنفسُ الهواء  
بل العبور.

## الذي مات ولم ير الغزالة

الغزالة ستأتي إلى النبع، قال مراراً  
الغزالة ستخرج من رأسي وتشرب  
لم يعد في رأسي ماء  
فاخرجي يا غزالة.

انتظر الغزالة ستين عاماً على النبع  
أراد فقط أن يراها  
هذه التي جالت طويلاً في خياله ورعت  
عشب رأسه.

## النائم على الرصيف

النائم على الرصيف يفتح عينيه بين وقت وآخر  
يحدّق بي  
ويتمتم: ألا تعرفني؟  
ألسّت أنا حين كنتُ أمشي؟  
ألم نعبر الأرض معاً؟ مرّات على الأقدام ومرّات في سهونا عن  
الأرض؟  
ألم نغرق في النهر معاً؟  
والنمال التي كانت على الدروب، كم مرّة رفعت أقدامنا عن  
الأرض وغيّرت وُجّهاتنا؟

أنظرُ إلى النائم على الرصيف  
ولا أعود أمشي  
وينظر النائم على الرصيف إليّ  
ويعود إلى النوم.

## يبحث عن خشب

دخلتُ دروب كثيرة في عروقه وسالت مع دمه  
دخلتُ جبال، وسالت  
في دمه طوفان  
ويبحث في عروقه عن خشب  
كي يبني سفينة.

## الرحلة

وَضَعَ الطَّرِيقَ فِي صَدْرِهِ  
وَمَشَى عَلَيْهَا طَوَالَ الْعَمْرِ.

## اذهب إلى الغابة

اذهب مع الهواء إلى الغابة  
نم على ورقة، ادخل في أريج زهرة، واذهب مع النسيم إلى الغابة  
الطير الذي مرَّ أمام بيتك ولم تطعمه  
تفقَّده إن كان جائعاً، إن كان مات  
تفقَّد الأشجار التي قلت إنها ضلوعك  
وعُدَّ كم منها انكسر  
وتفقَّد مجرى النهر الذي حفرته في خيالك كي تسقيها.

اذهب إلى الغابة  
أكد هناك من هو في انتظارك  
ربما غصن يريد أن يراك  
ربما عشبة تريد أن تتحدَّث إليك  
استلقِ على نسمة  
نم على ورقة  
واذهب إلى الغابة.

## كلمة فقط، أو إشارة

كلمة، كلمة فقط

أو إشارة

كي أرى بيتاً في تموجات الصوت  
ومقعداً في عروق اليد التي تلوح.

كلمة أو إشارة

كي يقعد هذا الحشد الواقف في قلبي.

كيف؟

كيف للسابح أن يصل  
والبحر يَغْرَق؟

## فيوم

في عيونه غيوم  
ويحدّق في الأرض  
علّها تمطر.

## برقة من يحمل طفلاً

برقة من يحمل طفلاً  
يحاول أن يجعل ذراعه نسمة.

## خُذَ الحطَبَ فِي نَزْهَةِ

ضَعْ يَدَكَ فِي يَدِ الحطَبِ المحروقِ  
وخذْهُ فِي نَزْهَةِ  
خذْهُ إِلَى الغَابَةِ كِي يَرَى أَهْلَهُ  
كِي يَرَى أَوْلَادَهُ الذِّينَ وُلِدُوا بَعْدَ رَحِيلِهِ  
ضَعْ يَدَكَ فِي يَدِ الحطَبِ المحروقِ وخذْهُ إِلَى النَهْرِ  
يَرِيدُ أَنْ يَشْرِبَ.

## الرياح تدقُّ على بابه

الرياح تدقُّ على بابه  
كي تسأل ربما لماذا تأخَّر اليوم عن الهبوب معها،  
كان تقريباً هواء  
كان تقريباً رياحاً  
لا مكان له غير الهبوب  
ولا رفيق  
لا الشجر لا الحجر لا التراب  
كان تقريباً رفيق الفضاء  
الفارغ.

تدقُّ الرياح على بابه  
على باب قلبه الذي خلعتَه الرياح  
ودخلتْ  
ولم تجدْ أحداً.

## تحاول أن ترفع يداً

للطريق رئة

وعيون

ودقائق قلب.

للطريق دقائق قلب متعبة

ورئة

ملأى بغبار الدعسات

وعيون

تنظر إلى الماشين عليها وتدمع

تحت أقدامهم.

للطريق رئة تئن تحت ثقل الخطى

وعيون تفتأها الأقدام

وذراع مكسورة

ومع ذلك تحاول أن ترفع يداً

كي تحيي العابرين.

لا

لا تدقّ على الباب

امشِ

مَنْ فِي الدَّخْلِ يَدُقُّ عَلَى البَابِ أَيْضاً

وَلَا أَحَدٌ يَفْتَحُ لَهُ.

## رفاق

لديك ما يكفي من ذكريات  
كي يكون معك رفاق على هذا الحجر  
اقعدُ  
وسلِّهم بالقصص  
فهم مثلك شاخوا  
وضجرون  
فُصَّ عليهم حكاية المسافات  
التي مهما مشت  
تبقى في مكانها  
أخبرهم عن الجنّ الذي يلتهم أطفال القلب  
عن القلب الذي مهما حَبِلَ  
يبقى عاقراً  
حدّثهم عن العشب الذي له عيون  
وعن التراب الأعمى  
عن الرياح التي كانت تريد أن تقول شيئاً

ولم تقل  
وعن الفراشة البيضاء الصغيرة التي دقت على بابك في ذاك  
الشتاء  
كي تدخل وتتدفأ.

لديك رفاق على هذا الحجر  
لا تدعهم يضجرون  
أخبرهم عن الخراف التي بلا راعٍ  
وعن الراعي الذي بلا خراف  
عن الراعي الذي ضلَّ والخرافِ التي تعرف الطريق  
أخبرهم حكاية الذئب  
وحكاية القبرة  
وحكاية الغول  
وإن لم يكن لهؤلاء حكايات فاخترعها  
اخترع حكايات  
اخترع ذئاباً وحنّاً وخرافاً ورعياناً وفراشات  
رفاقك مثلك شاخوا  
ويقعدون على حجر صغير  
اخترع لهم مسافات.

## سفرٌ مع الدخان

في الرقم عشرة من شارع "الوريكيت" في سيدني  
أدخنتُ الآن سيكارة وأقول:  
فعلتُ عملاً رائعاً اليوم  
أخرجتُ من فمي دخاناً ونظرتُ إلى الدخان.

الدخان عملٌ جميل  
وعملٌ جميل هو النظر  
وأنا لديّ كلاهما، فيا لجمال حياتي!

كنتُ مخطئاً حين ظننتُ أن الفم موقدة مطفأة  
أو فقط للكلام  
وأن النظر ليس إنجازاً رائعاً.

كنتُ مخطئاً حين اعتقدتُ أنني  
في هذه الغرفة الضيقة  
ليس في وسعي أن أنتشر في كل الشارع بدخاني ونظراتي  
ومخطئاً كذلك  
حين حاولتُ أن أنزع ذراعيَّ  
وأضع مكانهما ريشاً  
كي أصير عصفوراً  
وأن أنزع بعد ذلك الريش  
كي أصير نسيماً.

كان يمكنني أن أفعل كلَّ ذلك  
في الدخان الذي يخرج من فمي  
وفي النظرة التي تتبع الدخان.

## كَأَنَّ

في رأسي غيم  
كَأَنَّ رأسي يريد أن يمطر  
كَأَنَّ تراباً في رأسي عطشان  
كَأَنَّ بلاداً في رأسي لا يصل إليها المطر  
كَأَنَّ في رأسي مسافرين عطاشي  
وسنونوات  
تريد أن تشرب  
كَأَنَّ فلاحين تَفَقَّدُوا أباريقهم  
ووجدوها فارغة  
كَأَنَّ بحراً في مكان ما جفَّ  
وأسمائه تبحث عن ماء  
وكَأَنَّ المسافة  
بين الرأس والأرض  
تتطلب نهرًا في الرأس كي تُعْبَرَ.

## كان

كان بوذي أن أكتب أغنية  
كي يتسلّى بها المسافرون في الطريق الطويل  
المسافرون الضجرون من السفر  
ومن الطريق.

كان بوذي أن أوصل المسافرين إلى محطاتهم  
بصوتٍ يقطع المسافات عنهم  
وهم نيام.

كان بوذي أن أكتب أغنية  
أن أجد كلمات  
تقتل الضجر  
كلمات  
تقتل الطريق

## رغبة

في فمي رغبة مالحة  
ولا أعرف كيف أبصقها.

## إِنْ مَشَيْتَ أَوْ قَعَدْتَ

الماء أعلى من الرصيف

إِنْ مَشَيْتَ

أَوْ قَعَدْتَ

سَتَغْرُقُ.

## لم يرَ طريقاً، لم يقل كلمة

كلُّ ما رآه كان مشهداً واحداً: قلبه  
مسافة طويلة  
طويلة ولم تكن  
غير دوران في قلبه.

جاءت الريح وأخذته وهو جالس في قلبه  
لم يرَ طريقاً  
لم يقل كلمة  
بحث عن طريق  
عن كلمات  
عن عيون  
وزهب أعمى  
وصامتاً.

# 13

ريش في الريح  
(٢٠١٤)



لا تطأ على ظلّ

إنه نظرة نائمة.

\*\*\*\*

لا تأخذُ غصناً إلى موقد

إنه يد شجرة.

\*\*\*\*

التقطِ الورقةَ وأعدّها إلى الغصن

إنها عين الشجرة.

\*\*\*\*

النجوم نظرات

انظرِ تَصِيرَ نجمة.

\*\*\*\*

كلُّ هذه الرياح

ليست سوى

آهات بشر.

\*\*\*\*

للطريق التي لا تتوقّف عن المشي

بيت أيضاً

ولا تعرف كيف تفتح الباب.

\*\*\*\*

فقط لو عرفوا

أن دمعة واحدة تكفي

لغسل كل الأرض.

\*\*\*\*

... وللطريق رئة أيضاً

امش عليها خفيفاً

لئلا تختنق.

\*\*\*\*

الذين يصرخون هناك  
أفواههم هنا.

\*\*\*\*

قال لا تقترب من الماء  
وغرق.

\*\*\*\*

الغصون التي تهزها الريح لا تكون ترتجف  
بل هي تلوح  
للغصون الأخرى.

\*\*\*\*

مهما كان هذا الحمل ثقيلاً  
يمكنك أيضاً أن تكون  
نسمة.

\*\*\*\*

الأرض عمياء  
اعطها عيناً كي تراك.

\*\*\*\*

الذين قلتُ لهم وداعاً هناك  
سبقوني إلى هنا.

\*\*\*\*

لا تطأ على نملة  
هل نسيتَ كم لعبتَ معها حين كنتَ طفلاً؟

\*\*\*\*

لا تنتظر إلى الفضاء كي ترى قمراً  
ثمة قمرٌ آخر على الأرض:  
عينك.

\*\*\*\*

أخفض رأسك قليلاً  
إن أردت أن ترى الأرض.

\*\*\*\*

للدّم لسان  
كلُّ نقطة منه وهي تسقط تقول:  
البشرية كلّها سقطت.

\*\*\*\*

حَمَلَ حياته مثل لعبة معطّلة  
أراد أن يعيدها إلى الحانوتي  
ووقفَ العمرَ كله  
أمام حانوت مقفل.

\*\*\*\*

تكلّمتُ كثيراً  
لكنّ الصمت كان كنزي الوحيد.

\*\*\*\*

للأحلام قناصون  
لا تحلم  
تتج.

\*\*\*\*

تبقى وحيداً  
ولو بين جمهور.

\*\*\*\*

أيها الناظرون إلى السماء  
انظروا جيداً تروها خاوية.

\*\*\*\*

الذين بلا أقدام  
حين تنتظر إليهم بحب  
يصيرون بأجنحة.

\*\*\*\*

نقطة دم واحدة تُهدر من عصفور  
تُظلم كلَّ السماء.

\*\*\*\*

كم كانت الأرض جميلة  
لو أنّ كائناتها تفتت فقط من الهواء.

\*\*\*\*

قال: بلى، ثمة ماءٌ بعد في قعر البئر  
ومات عطشاناً.

\*\*\*\*

كان حافياً  
والطريق كلها مرسومة على لحم قدميه.

\*\*\*\*

لا أخال الأرض محمولةً إلا بكثافة الآهات.

\*\*\*\*

هل رأيتم سحلية في مكان ما ؟  
إنها شقيقتي وقد أضعته حين كنا نلعب في الغابة .

\*\*\*\*

أقدامٌ أقدامٌ أقدام  
وظلٌّ على الرصيف  
يحاول أن ينام .

\*\*\*\*

ثلوج ثلوج ثلوج  
أظنُّها دموعاً قد تجمّدت .

\*\*\*\*

الطريقُ أيضاً  
تسأل عن الطريق .

\*\*\*\*

لا تحلم بمحطة  
مهما ركبتَ قطارات  
تبقى في مكانك.

\*\*\*\*

ناديتها كثيراً  
ولم تأتِ  
الحياة .

\*\*\*\*

في البحر قشة ؟  
لا تتشبثُ بها  
لو خشبة  
ستغرق .

\*\*\*\*

من ترابه نبتت شجرة  
تشبهه حين كان فتى .

\*\*\*\*

من ترابه نبتت زهرة  
تشبه عينه المغمضة .

\*\*\*\*

أرى عيوناً كثيرة  
في الأنهار .

\*\*\*\*

حين تنزل دمعاً في النهر  
تأخذ عينها معها .

\*\*\*\*

أرج السماء  
وَضَعِ الأرضَ في قلبك .

\*\*\*\*

الطير الذي حطَّ على رأسك ذات يوم  
لم يكن يريد سماءً  
بل رفيقاً .

\*\*\*\*

كم هي صبورة  
الطريق التي مشت وحدها كلَّ هذه الأيام ! .

\*\*\*\*

يا أصدقائي البعيدين  
العصافير التي تأتي إلى شجرة أمام بيتي وتتنظر إليَّ  
في عيونها شيء من نظراتكم ؟

\*\*\*\*

هناك هو هناك  
ولكن أين هنا ؟

\*\*\*\*

أسمعُ أصواتاً  
في العشب أيضاً .

\*\*\*\*

تكلم كثيراً  
لكنّ الوحيد الذي رافقه طوال الطريق كان الصمت .

\*\*\*\*

أريد أن ألعب  
أمعقولاً أن أجوب كلَّ هذه المدن وأبحث طوال العمر  
ولا أجد لعبة؟!!

\*\*\*\*

مللتُ من انتظارك  
يا رفيقي القديم يا شبيهي يا وديع أين ذهبتَ ؟

\*\*\*\*

حتى الصخر يصرخ  
والنسيم ينجرح  
من ريشة .

\*\*\*\*

فقط لو الهواء يعيد إليّ  
الكلمة الأولى التي قلّتها  
للريح .

\*\*\*\*

مشى صامتاً  
لئلا يُثقل عبوره  
الصوتُ .

\*\*\*\*

لم يقل وداعاً  
فقط  
رفع قليلاً إصبعه .

\*\*\*\*



قرأت شعر وديع سعادة برمته، منذ توزيعه  
كتيبه الأول في شارع الحمراء، في أوائل السبعينات،  
صورته تلك، لم تبارح مخيلتي، وهي هي لم تتغير،  
إنها صورة المساء الذي ليس له أخوة، بل صورة  
الشاعر الذي يكتب الشعر، بالموهبة المكتملة التي  
تمنح نفسها بتألق يوازي تألق النبع عند الفجر أو  
في الهزيع الأخير من الليل.

ليس لشاعر من طينة وديع سعادة، أن يجتهد،  
أن يختبر، أن يبحث عن شكل، أو معنى، خارج  
وديع سعادة نفسه. اجتهداته، اختبارات، أبحاثه  
الأسلوبية الشكلية، معانيه، وأسراره، كلها موجودة  
فيه. وكذلك لغته.

أعمار، وأحلام، وتخيلات، وصور، وهلوسات،  
وآلام، وتراكمات، وخيبات، ومرارات، تتلوى كلها في  
ليل الباطن، وتتخالط، وتتخمر، قبل أن تنضج،  
وتعثر كينونتها على درب عبورها إلى قم الأرض.  
شعريته أسمىها شعرية النبع، جوهرية، بديهية،  
بسيطة.

فاقرأوا شعر وديع سعادة. لكن احذروه في الآن  
نفسه. لأنه مليء بالفخاخ.  
ظاهرة نثري، سيرتي، حكواتي، سلس، لثني،  
قريب، متواضع، خضر، أليم، مرير، أسود، ساخر،  
صارخ، يائس، باسط معناه على حبر سردتي، لكن  
باطنه محرر من النثر. إنه النثر الذي هو شعر  
خالص.... إنه النثر الذي هو قصيدة نثر.

عقل العويط



أبا بيل

## وديح سعادة الأعمال الشعرية

WADIH SAADEH

التصميم: الفخرية، أبو حمزة، الأناضول

